

التحول
وقصص أخرى
فرانتس كافكا

- Author: Franz Kafka ♦ المؤلف: فرانز كافكا
- Title: Transformation and other stories ♦ العنوان: التحول وقصص أخرى
- Translated by: El Dessouki Fahmy ♦ ترجمة: الدسوقي فهمي
- Afaq's first edition: 2018 ♦ طبعة آفاق الأولى 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- Cover Painting: El Dessouki Fahmy ♦ لوحة الغلاف: الدسوقي فهمي
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier ♦ مستشار النشر: سوسن بشير



رقم الإيداع:

٢٠١٦ / ٢٦٨١١

الترقيم الدولي: ISBN

978-977-765-086-1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st.- From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT- Tel: 00202 25778743- 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني- ميدان طلعت حرب- القاهرة- جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

فرانتس كافكا

التحول وقصص أخرى

ترجمة

الدسوقي فهمي

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

كافكا، فرانتس.

فرانتس كافكا: التحول وقصص أخرى - ترجمة: الدسوقي فهمي

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018

304 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 2016 / 26811

الترقيم الدولي 1 - 086 - 765 - 977 - 978

1- الأدباء

2- كافكا، فرانتس

تقديم

سبق أن نشرت ترجمتي لقصة «التحول» في جريدة المساء على ثماني حلقات يومية مصحوبة برسومي لها، بدءًا من ٦٨\٩\٤ وحتى ١٩٦٨\٩\٢٠، بإشراف عبد الفتاح الجمل وقتها تحت عنوان «المسخ». وأرى الآن أن تنشر ضمن مجموعتها الكاملة التي نشرت هذه القصة في بدايتها، وتحت العنوان الذي اخترته لها وهو «التحول».

أيضًا توجد ضمن قصص هذه المجموعة قصة «الدودة الهائلة» وقد نشرت في المساء على يومين متتاليين (١٧ و ١٨-٨-٦٨) وعنوان القصة ربما كان ينبغي له أن يكون كما يشير بذلك العنوان الأصلي (حيوان الخُلْد هائل الحجم)، لكن تم تكثيف العنوان على كلمتين لم تتجاوزا المعنى، هما (الدودة الهائلة)، «فالخلد» كائن في حجم الدودة تقريبًا؛ وهو في القصة يمثل «الشيء»، أو الموضوع الذي تتمثل أو تتجسد فيه الآمال الدفينة بالغة التهويل، تلك الآمال التي يعلقها الإنسان على ما يعتقد من عقائد مقدسة، ولا يتبين لا العلماء ولا الجمهور، الأهمية الكاملة المتمثلة في ذلك التهويل، أو تلك الضخامة الهائلة التي تتفجر متجاوزة نطاق الواقع المعقول القابل للتجربة أو للمعايشة.

إن من يؤمن بعقيدة ما، إيماناً عميقاً، بلا حدود؛ يمكنه وحده أن يفهم - هذا الإيمان - الموضوع حقّه. وقد يتدخل رجال الأعمال، على أساس من موقف كوميدى هزلي اتخذته عدد كبير من الناس المهممين بالموضوع بدافع من عقيدتهم.

إن رجل الأعمال ليس مهتماً في القصة بحيوان (الخلد) هائل الحجم، لكن اهتمامه ينصب فقط على المدرس.

وبدلاً من الاهتمام بلا حد، ذلك الذي يشغل بال المدرس، يحل محله عند رجل الأعمال اهتمام مختلف كل الاختلاف، هو الشفقة.

هذه هي وجهة النظر العامة التي يتطلع من خلالها الإنسان الحديث نحو الماضي التاريخي الذي خلفته العقيدة وراءها. فالحقيقة إنما تشير اهتمامه فقط من أجل ذلك الإنسان (المدرس).

ويبدو العالم الذي يتكشف للقارئ في تلك القصة التي لم تكتمل كتابتها بعنوان (أبحاث كلب) عالمًا باليًا - متكرراً على نحو ما، والمعنى المباشر لهذه القصة (الأمثلة) هو العالم الذي يتعلق بوجود الكلاب كتشخيص - بين السطور - يجد احتقاراً للذات، ويعكس إحساساً بالخزي من الوجود البشري وطبيعة هذا الوجود البشري، التي لم تبلغ بعد مرتبة الإنسانية. وانسياقاً مع ذلك، تبدو الكلاب الحقيقية لكافكا، بعاداتها العتيقة التي تشبث بها، وتلتصق بها في شغف زائد، وقد تضافرت مع تلك العادات العتيقة، خيالات وأوهام غريبة، كأنما تجسد للقارئ صورة هنيئة، ربما تنعكس على مرآتها أشكال أخرى للوجود البشري، تختلف عن صورته الحالية النكدة.

إن الجو الذي تتحرك الكلاب في إطاره هو جو تصوره القصة على أنه عالم يخلو من الفرح، عالم تحكمه الغرائز، وتتسلط عليه العادة «الروتينية»، وهو جو قد يثير مقارنة ما مع عالم التكرار اليومي، وهموم المعيشة التي يعيشها كبير الكتبة (ك.)، أو عالم أهالي القرية، في أعمال كافكا الأخرى.

كما أن ثمة خاصية تتمثل في قصص لكافكا اتخذ فيها السرد صيغة الجمع (نحن)، بدلاً من السرد من زاوية رؤية المفرد المتكلم (أنا).

فهذه الـ(نحن) تظهر بتأثير متماثل أو متشابه في القصة -غير الكاملة أيضًا- (سور الصين العظيم) أو في طبعة أخرى (عند بناء سور الصين العظيم). وهذه الـ(نحن) التي تقدم السرد، هي صيغة صريحة حميمة مفتوحة، تماثل الـ(نحن) المستعملة في الخطاب أو السرد داخل نطاق الأسرة الواحدة، وكما في قصة (المغنية جوزفين) التي يستخدم فيها كافكا نفس الصيغة في السرد (نحن)، يشعر القارئ بها وقد اتخذت نبرة أليقة محسوبة مبهجة ومؤثرة.

فقد أحس الراوي في قصة (سور الصين العظيم) بحاجته إلى الحماية التي تكمن في هذه الكلمة، في غمار التوحد المنعزل في صيغة الراوي، والسرد بضمير المتكلم المفرد.

وقد كتب كافكا قصة (البحر) في السنة الأخيرة من حياته، وكان قد أتم كتابتها، لكن ما تبقى من صفحاتها لا يكاد يكشف عن نهايتها للقارئ. والراوي (أنا) لهذا الجزء المتبقي من القصة؛ هو حيوان منعزل، وحيد، عصبي المزاج، أسلوبه في الحياة، والطابع النفسي لشخصيته يذكر القارئ على الفور بالحقّار أو ما يسمى بـ(الغريب)، وهو حيوان ثديي يحفر لنفسه

في باطن الأرض أوكارًا وممرات. فهو في القصة يعيش في داخل جحر يتألف من ممرات ممتدة، ومخازن وحفرات للنوم ونقاط للدفاع، كان قد حفرها كلها، عندما كان صغيرًا، بعد أن قضى فترة تجوال بائسة. وفي إحدى المناسبات يسمع هذا الحيوان ضوضاء تتكرر؛ صادرة لا بد عن عدو ما، ويتبدى له حينذاك عقم كل إجراءات الدفاع التي كان قد أَعدها ضد هذا العدو المجهول، ثم... تنتهي فجأة هذه القصة غير المكتملة بوصف لهذا الموقف اليائس. أما القصة في نسختها الكاملة، فكانت قد واصلت وصف المعركة التي دارت وانتهت بهزيمة العدو.

والجحر هو رمز للأمان عندما يتحقق في الدنيا. فالجحر ليس مجرد فجوة يمكن اللجوء إليها؛ بل هو التعبير عن طبيعته الخاصة طبيعة الجحر التي لا يمكن فقدانها.

يقول الحيوان في القصة: «عندما أكن في الحصن... تكون كل فكرة عن مجرد السلامة هي أبعد شيء عن ذهني؛ ذلك لأنني أعلم أنه هنا في هذا المكان يتواجد حصني... حصني الذي لا يمكن قط أن ينتمي إلى أي كائن آخر، والذي يكون في جوهره هو حصني أنا، وأنه بداخله يمكنني في هدوء أن أتقبل تلك الضربة المحتومة التي يوجهها لي عدوي في ساعة النهاية، ذلك أن دمي سوف يُراق هنا فوق أرضي أنا؛ وأنه لهذا لن يضيع».

وبهذا يصبح الصراع في الدنيا جحيمًا متحرك الزوايا، تتبادل فيه الحقائق أماكنها وأوضاعها، وتلتبس في كثافة حالكة مراوغة، متسلحة بكلمات ملتبسة متشابهة. لهذا يصبح الصراع صراعًا صلبًا جهنميًا له منطق، وحوار الخنجر ذي الحدين.

وإن كان الراوي في قصة كافكا (عرب وبنات آوى) يصف جشع بنات آوى في اشمزاز، ويرى أن العين لا ترتاح في نظرتها إلى واقع الدنيا ويرى أحد نقاد كافكا وهو هربرت تاوبر أن التهكم والسخرية الراضية هي ما يسيطر على قصة (عرب وبنات آوى)، وليست نغمة المرح الحقّة.

أما قصة (التحول) فهي تقدم للقارئ حالة من حالات الفشل، تؤدي إلى الموت، وهي قصة تجسد أزمة وجود وتشير في وضوح إلى انقسام يقع نتيجة لتراكمات فيفصل بين الوعي واللاوعي كما يقول عنها الناقد بينو فون فيزه.

ويتمثل ذلك الانقسام في بقاء الذات الحقيقية المنسحبة في عجز من المواجهة في البيت على هيئة حشرة هائلة الحجم تسترخي في الفراش. بينما الجسد الذي يرتدي ملابس تلك الذات أي حرفياً الواجهة الخارجية لتلك الذات تترنح خارجة إلى اضطراب الدنيا الخارجية، وتقوم بالعمل كبائع متجول.

ومن خلال «التحول» ومبدئه الأساسي هو الاغتراب عن الذات يكون هذا الانقسام هو المبدأ الذي يقوم عليه بناء القصة.

ويقوم مبدأ الانقسام كذلك، نتيجة للاغتراب أساساً في قصص أخرى لكافكا تتفق مع قصة (التحول) في اتخاذها لموضوع العقاب أرضية لها، وهي قصة (في مستعمرة العقاب) وقصة (الحكم).

أما (سور الصين العظيم) ففيها يعبر السور عن إرادة لإقامة مملكة الرب، أو إرادة تتشوق نحو الاكتمال الدنيوي، إلا أن هذا الاكتمال لا يتاح

له أن يتحقق بصورة مباشرة، وإنما يتحقق فقط في صورة أبنية أو إنشاءات جزئية. فهذه الإنشاءات الجزئية هي الاكتمالات المنعزلة، الاكتمالات الخاصة، والتحقيقات النوعية الجزئية، وأنه ليس للإنسان سوى أن يحقق فقط أهدافاً فردية شخصية/ خاصة ومحدودة.

وينشأ هذا أصلاً عن طبيعة الإنسان نفسه من ناحية؛ ذلك أن الإنسان لا يحتمل أي عبء يتجه وجهة لا نهائية، ولا يسعه أي جهد مطلق لا تلوح له أية إمكانية تجسد مرئية.

نشرت قصة (أبحاث كلب) في «المساء» على حلقات خمس من ٦٩١٤/١٨ إلى ٦٩١٤/٢٧ - ونشرت (سور الصين العظيم) في (جاليري ٦٨). و(البحر) على سبع حلقات في «المساء» من ٦٩١٢/٧ إلى ٦٩١٢/١٤ و(التحول) على ثماني حلقات من ٦٨١٩/٤ إلى ١٩٦٨/٩/٢٠، مصحوبة كلها برسومي لها.

التحول

الفصل الأول

استيقظ «جريجور سامسا» ذات صباح بعد أحلام مزعجة، فوجد نفسه قد تحول في فراشه إلى حشرة هائلة الحجم. كان مستلقيًا على ظهره الجامد الذي كان مقسما إلى أجزاء صلبة تشبه الدروع، وعندما رفع رأسه قليلاً أمكنه أن يرى الجثة المقلبة بنية اللون مقسمة إلى فصوص جامدة مستديرة، لم يكن غطاء الفراش مستقرًا فوقها بعد في وضعه السابق، بل كان على وشك أن ينزلق تمامًا من فوقها. وكانت سيقانه العديدة التي كانت تبدو رفيعة على نحو بائس بالنسبة لبقية جسمه تبدو مستننة أمام عينيه بصورة منفردة.

تفكر قائلاً في نفسه: ما الذي حدث لي؟

لم يكن الأمر حلمًا.

كانت حجرته حجرة نوم إنسان عادية، إلا أنها تبدو فقط صغيرة للغاية على نحو ما، وكائنة وسط الجدران الأربعة المألوفة، وتعلو المنضدة التي كانت تنتشر فوقها أنواع من الملابس المبعثرة المفكوكة - فقد كان بائعًا متجولاً - صورة معلقة قد قطعها أخيرًا من إحدى المجلات المصورة،

ووضعها في إطار رقيق مذهب، تبدو فيها سيدة ترتدي قبعة من الفراء وقميصًا من الفراء، جاكيت في وضع معتدل، وتمدُّ نحو المتفرج غطاء يد من الفراء، كان ساعدها كله مخفيًا في داخله.

ثم تحولت عينا جريجور بعد ذلك إلى النافذة، وقد دفعته السماء المعتمة-كان في مقدور المرء أن يسمع وقع قطرات المطر فوق إطار النافذة- إلى الاكتئاب. فماذا لو استغرق في النوم فترة أخرى قصيرة وتناسى ذلك الهراء كله؟ فكر في ذلك، إلا أنه لم يسعه أن يفعله؛ لأنه كان معتادًا أن ينام على جانبه الأيمن، ولم يكن في وسعه أن يستدير وهو في حالته الراهنة، ومهما حاول أن يميل جسمه بالقوة على جانبه الأيمن، كان ينقلب في كل مرة على ظهره دائمًا، ولقد قام بهذه المحاولة مائة مرة على الأقل مغلقًا عينيه؛ حتى لا يرى سيقانه المرتعشة، ثم توقف عن المحاولة فقط حينما بدأ يشعر في جانبه بألم لعين خفيف لم يسبق له أن عانى مثله من قبل.

تفكَّر قائلاً: يا إلهي، أية مهنة مرهقة تلك التي اخترتها لنفسني متجولًا يوميًا بعد آخر، إنه عمل أشد إثارة للسخط مما لو أدى المرء العمل نفسه في المتجر، وهناك فوق هذا كله متاعب السفر الدائمة من القلق على اللحاق بالقطار إلى الفراش، والوجبات غير المنتظمة والعلاقات العارضة التي تبقى علاقات جديدة دائمًا، ولا تتمخض أبدًا عن أصدقاء متآلفين، فليأخذهم الشيطان جميعًا!

أحسَّ باحتكاكٍ بسيطٍ فوق بطنه، فسحب نفسه ببطءٍ على ظهره مقترَّبًا من قمة الفراش؛ حتى يتمكن من أن يرفع رأسه بسهولة أكثر، وتفحص

الموضع الذي كان يشعر بتآكله، فوجده محاطاً بعدديد من البقع البيضاء الصغيرة التي لم يمكنه أن يدرك طبيعتها، وحاول أن يلمسها بإحدى سيقانه، إلا أنه أعاد ساقه على الفور ثانية إلى مكانها؛ ذلك أن الملامسة ولدت رعشة باردة سرت في أوصاله.

انزلق هابطاً مرة أخرى إلى وضعه السابق، وتفكّر قائلاً في نفسه: إن هذا الاستيقاظ المبكر يصيب المرء بالغباء التام، إن المرء ليجتاح إلى كفايته من النوم، وإن التجّار الآخرين ليعيشون كهوانم الحريم، فعندما عدتُ -مثلاً- من تجوالي ذات صباح إلى الفندق؛ لكي أدوّن الطلبات التي حصلت عليها، كان هؤلاء الآخرون جالسين فحسب يتناولون إفطارهم. فلأحاول فقط أن أجرب السلوك على هذا النحو مع رئيسي، وسوف أفصل في التو واللحظة! وعلى أية حال، فربما كان في هذا كل الخير لي، من يدري؟! ولو لم يكن عليّ أن أحتفظ بذلك العمل من أجل والدي، لكنك قد أعلنت رأيي منذ وقت طويل، ولكنك قد ذهبتُ إلى الرئيس وأخبرته صراحةً برأيي فيه. وقد كان ذلك كفيلاً بأن يطرحه أرضاً من على مكتبه، وإنها أيضاً لطريقة شاذة في السلوك تلك الجلسة إلى مكتب في أعلى والتخاطب إلى أسفل مع العاملين، وخاصة عندما يكون عليهم أن يقتربوا تماماً بسبب ثقل سمع الرئيس.

حسناً، لا يزال هناك شعاع من الأمل؛ فلقد قررتُ أن أدّخر مبلغاً كافياً من المال؛ لكي أتمكن من دفع ديون والدي له -ولسوف يستلزم مني خمس سنوات أخرى أو ستاً، وسوف أمضي في هذا السبيل دون تراجع، حينئذ سأتمكن من أن أسترد حريتي كاملة. والآن يحسن لي رغم هذا أن أنهض،

فإن قطاري يتحرك في الخامسة.

نظر إلى المنبه الذي تتوالى دقاته من فوق الصندوق، وحدّث نفسه قائلاً: يا أبانا الذي في السموات! كانت الساعة قد تجاوزت النصف بعد السادسة، بل لقد كانت تقترب من الساعة إلا ربع. ألم ينطلق رنين المنبه؟! كان في مقدور المرء أن يرى من الفراش أنه كان مضبوطاً بدقة على الساعة الرابعة، ولقد انطلقت رناته بالطبع نعم. لكن، هل من الممكن أن يبقى المرء نائماً في هدوء وسط مثل تلك الضجة التي تصم الأذان؟ حسناً، إنه لم ينم في هدوء. إلا أن الأمر كان يبدو كذلك في الظاهر. لكن ما الذي سوف يفعله الآن، إن القطار التالي يمضي في تمام الساعة، ولكي يتمكن من اللحاق بذلك القطار فإن عليه أن ينطلق كالمجنون، ولم تكن عيّناته حتى قد حُزمت بعد، كما أنه هو نفسه لم يكن يشعر على وجه الخصوص بالانتعاش ولا بالنشاط. وحتى لو تمكن من اللحاق بالقطار، فليس في وسعه حينذاك أن يتجنب وقوع عراك بينه وبين الرئيس؛ لأن حمّال المتجر سيكون قد انتظر قطار الساعة الخامسة، وقد سجل عدم حضوره، منذ ذلك الوقت لم يكن الحمّال سوى مخلوق غبي إمعة من أتباع الرئيس. حسناً، فلنفرض أن بإمكانه أن يقول إنه كان مريضاً؛ إلا أن هذا العذر لن يقبل أكثر من أي عذر آخر، كما أنه سيبدو مثيراً للشك؛ لأنه لم يسبق له أن مرض مرة واحدة طوال الأعوام الخمسة التي قضاها في الخدمة، ومن المؤكد أنه كان على الرئيس نفسه أن يحضر وبرفقته طبيب التأمين الصحي، وكان سيعنف والديه لتكاسل ابنهما، وسيقطع السبيل أمام مختلف الأعذار بإشارة من يده إلى طبيب التأمين الذي يرى البشر جميعهم - طبعاً - متمارضين في تمام

العافية، فإلى أي حد كان خطؤه سيبدو في هذه الحالة؟ كان جريجور يشعر أنه حقًا على ما يرام فيما عدا نوع من الخمول الذي كان يبدو زائدًا تمامًا عن المؤلف بعد مثل ذلك الاستغراق الطويل في النوم، كما أنه كان جائعًا جدًا على غير العادة.

وبينما كان هذا كله يدور بغاية السرعة في رأسه حين كان عاجزًا عن أن يقرر مغادرة فراشه، وكان المنبه قد أشار لتوه إلى السابعة إلا ربع، انبعثت دقة واحدة على الباب خلف رأس فراشه، وارتفع صوت ما-كان صوت أمه- قائلًا: جريجور لقد بلغت الساعة الآن السابعة إلا ربعًا. ألن تسافر اليوم؟! ذلك الصوت الرقيق. أصيب جريجور بصدمة عندما استمع إلى صوته وهو يجيها، كان صوته هو حقًا دون شك، إلا أنه كان مصحوبًا بزقزقة صارخة مخيفة متصلة كانت تذيله كالهمس الذي كان يجعل الكلمات تخرج في جرسها الواضح فقط للوهلة الأولى، لكن أصداؤه كانت ترتفع متكسرة حولها؛ لتشوّه وقعها، حتى أنه لم يكن يسع المرء أن يتثبت من أنه قد سمعها بوضوح. وقد أراد جريجور أن يجيب في النهاية وأن يشرح كل شيء، إلا أنه قصر نفسه لظروفه تلك فقط على أن يقول: نعم.. نعم أشكرك يا أمي، سوف أنهض الآن. ولا بد أن الباب الخشبي الذي كان يفصلهما قد تسبب في ألا يبدو التغيير في صوته ملحوظًا خارجه، ذلك أن والدته قد قنعت بذلك الرد ومضت مبتعدة. إلا أن تلك الكلمات القصيرة المتبادلة قد تسببت في إزعاج باقي أفراد الأسرة عندما تبينوا منها أن جريجور كان لا يزال بالمنزل على عكس ما كانوا يتوقعون. وكان والده قد شرع يطرق أحد الأبواب الجانبية بقبضته في رفق مناديًا: جريجور.. جريجور، ما الذي

حدث لك؟ ثم راح ينادي ثانية بعد قليل بصوت أكثر ارتفاعاً: جريجور.. جريجور. وأمام الباب الداخلي الآخر كانت أخته تقول في صوت خفيض بالك: جريجور أ لست على ما يرام! هل تحتاج إلى أي شيء؟ وأجابهما معاً على الفور قائلاً: إنني جاهز الآن، باذلاً كل جهده في أن يجعل صوته يبدو عادياً بقدر الإمكان، ناطقاً الكلمات بكل وضوح وتاركا لحظات من الصمت بين كل كلمة والأخرى. وعلى هذا، فقد مضى والده عائداً لتناول إفطاره، لكن شقيقته همست قائلةً: جريجور افتح الباب، افتحه! ومع ذلك فلم يكن ليفكر في فتح الباب، وشعر بالامتنان لتلك العادة الحكيمة التي اكتسبها من أسفاره، وهي تعوده على إغلاق كل الأبواب أثناء الليل حتى في المنزل.

كان أول ما ينوي أن يفعله هو أن ينهض في هدوء دون أن يزعجه أحد، وأن يرتدي ملابسه. وأهم من هذا كله أن يتناول إفطاره، ثم بعد ذلك يتدبر ما الذي يجب عليه أن يفعله. فقد كان منزعجا جداً وهو في فراشه، ولم تكن تأملاته تنتهي إلى نهاية معقولة، وتذكر أنه غالباً ما أحس بالآلام وأوجاع خفيفة، ربما كانت قد سببتها له الأوضاع غير الصحيحة التي كان يتخذها أثناء نومه، وكان يتأكد عندما كان ينهض في كل مرة أنها لم تكن سوى محض خيالات. لقد كان يتطلع في لهفة إلى رؤية أوهام هذا الصباح وهي تنقش أيضاً، وأن يتضح له أن التغيير في صوته لم يكن سوى نذير بنوبة برد شديدة، وهي علة التجار الجوالين العتيقة... لم يكن لديه أدنى شك في ذلك.

كان طرح الغطاء أمراً سهلاً للغاية، لم يكن عليه سوى أن ينكمش

قليلاً على نفسه، وسينزل الغطاء تلقائياً، إلا أن الحركة التي تلي ذلك هي ما كانت تشق عليه، خاصة وأنه كان عريض الجسم بصورة غير عادية، ولسوف يحتاج إلى أذرع وأيد لكي يرفع نفسه إلى أعلى، إلا أنه لم يكن له بدلٌ من ذلك سوى تلك الأرجل العديدة الضئيلة التي لم تتوقف عن الاضطراب في كل الاتجاهات، والتي لم يكن بوسعها أن يتحكم فيها.

وعندما حاول أن يشني واحدة من تلك السيقان، وجدها قد فردت نفسها تماماً على الفور، وعندما نجح في ثنيها أخيراً كما أراد، اضطربت بقية السيقان جميعاً في نفس الوقت اضطراباً أشد عنفاً، فتذبذبت في صورة غاية في الفظاعة.

وحدث جريجور نفسه قائلاً: وما فائدة الاستلقاء كسلاً في الفراش إذن؟! وفكر أنه ربما يمكنه أن يغادر الفراش بالجزء الأسفل من جسمه أولاً، إلا أن الجزء الأسفل من جسمه الذي لم يكن قد رآه ولم يكن حتى قد تمكن من أن يكون فكرة واضحة عنه، كان من الصعب جداً أن يتحرك كما اتضح من المحاولة، كان يتململ في بطءٍ شديدٍ، وعندما تملكه الضيق في النهاية ودفعه إلى أن يجمع كل قواه مندفعاً في تهوُّرٍ إلى خارج الفراش، كان قد أخطأ في توجيه حركته، وانحط في عنف بجزئه الأسفل في أسفل الفراش، وهياً له الألم الشديد الذي أحسه في تلك اللحظة أن ذلك الجزء الأسفل من جسمه ربما كان بالتحديد هو أكثر أجزاء جسمه حساسية.

وعلى هذا، فقد حاول أن ينهض بالجزء الأعلى من جسمه أولاً، ورفع رأسه بحذرٍ متجهًا نحو حافة الفراش، وبدا ذلك سهلاً إلى حد بعيد، وتبع جذعه حركة رأسه أخيراً في بطء، على الرغم من تلاحق أنفاسه وثقل

جسمه... لكنه حتى عندما كان قد أخرج رأسه تمامًا خارج الفراش. كان يحس بالفرع لا يزال يملكه، الفرع الشديد من الاستمرار في محاولته، ذلك أنه لو ترك جسمه يسقط على هذا النحو في نهاية الأمر، فلن يسلم رأسه من الجروح سوى بمعجزة، ومهما كان الثمن فقد كان عليه ألا يفقد وعيه الآن، والآن على وجه التحديد كان هو الوقت الذي يجب عليه فيه أن يبقى في الفراش.

لكنه بعد أن استقر ثانية في وضعه السابق متنهّدًا بعد تكرار المحاولات نفسها، وراح يرقب سيقانه الضئيلة وهي تتخبط بعضها ببعض في عنف أشد قسوة من ذي قبل -لو كان ممكنًا أن يحدث ذلك-، بينما يرى هو أن ليس ثمة وسيلة للسيطرة على ذلك الاضطراب المحتوم، ومرة أخرى حدث نفسه قائلاً: إنه من المستحيل البقاء في الفراش، وإن الحل الأقرب إلى الصواب هو أن يذكّر نفسه في تلك الأثناء أن التفكير الهادئ -على قدر ما يسعه الهدوء- أفضل كثيرًا من القرارات اليائسة. وركز في تلك اللحظات بقدر ما وسعه التركيز على النافذة، إلا أن منظر ضباب الصباح الذي كان يحجب الجانب الآخر من الشارع الضيق قد بث فيه -لسوء الحظ- قليلًا من الراحة والعزاء.

وقال لنفسه عندما رن جرس المنبه مرة أخرى: إنها الساعة السابعة الآن.. الساعة السابعة الآن ولا يزال هناك مثل ذلك الضباب الكثيف، وظل مستلقيًا في هدوء لفترة قصيرة وهو يتنفس تنفسًا خفيًا كما لو كان يتوقع أن مجرد رقدته تلك ربما أصلحت كل شيء، وأعادته إلى حالته العادية الحقيقية.

إلا أنه سرعان ما قال لنفسه: يجب عليّ أن أكون خارج هذا الفراش قبل أن تدق الساعة معلنة الساعة والرابع دون أن يجانبني التوفيق في إنجازه، وربما وصل شخص ما بأية حال -من المتجر في ذلك الوقت للسؤال عني حيث يفتح المتجر أبوابه- قبل الساعة. وبدأ يهز جسده على الفور في إيقاع منتظم بهدف تطويحه خارج الفراش، ولو اصطدم بشيء ما بخروجه من الفراش على هذا النحو، ففي وسعه أن يمنع عن رأسه أي أذى برفعه بزاوية حادة عندما يسقط. ويبدو أن ظهره كان صلباً بدرجة تكفي لكي يتحمل ألم سقطته فوق السجادة. وكان أخشى ما يخشاه هو صوت الارتطام المرتفع الذي لن يكون في مقدوره أن يمنعه، والذي ربما سبب قلقاً -إن لم نقل رعباً- خلف كل الأبواب، وعليه أن يقوم بتلك المخاطرة على أية حال.

وعندما أصبح بالفعل في منتصف محاولته لمغادرة الفراش -وكانت هذه المحاولة الجديدة للخروج من الفراش تأخذ شكل لعبة أكثر من كونها مجهوداً؛ لأنه لم يكن بحاجة إلا إلى أن يهز نفسه بالتطوح هنا وهناك- باغتته فكرة المساعدة التي تسهل تلك اللعبة إلى حدٍّ بعيد.

وسيكون شخصان قويان كافيين للغاية. كان يفكر في والده وفي الخادمة، ولن يكون عليهما سوى أن يفردا أذرعهما تحت ظهره المكدوب ويرفعا من الفراش، ومن ثم ينحنيان إلى أسفل بحملهما. وعليهما أن يكونا مترفقين بما يكفي؛ لكي يتركا له الفرصة لكي ينقلب تماماً إلى الأرض، حيث ثمة أمل حينئذ في أن تجد أقدامه سبيلها إلى العمل بصورة تامة. حسناً! هل يجب عليه أن يزعم طالباً النجدة، متجاهلاً أن كل الأبواب

كانت جميعها مغلقة. لم يتمكن من أن يمنع الابتسامة عندما راودته هذه الفكرة على الرغم من بؤسه.

كان قد قطع شوطاً بعيداً، حتى لم يعد في مقدوره أن يحفظ توازنه سوى بصعوبة بالغة وهو يطوّح نفسه بشدة، وكان عليه أن يستجمع قواه ليتخذ قراره الأخير فوراً، ذلك أن الوقت أوشك أن يبلغ السابعة والربع خلال خمس دقائق. عندما دق جرس الباب الخارجي، قال لنفسه وقد جمد تماماً: ها هو شخص ما قد قدم من المتجر، بينما اهتزت سيقانه الدقيقة مضطربة في سرعة، وظل كل شيء هادئاً لدقيقة، وقال جريجور لنفسه وهو يتعلق بأمل مجنون: إنهم لن يحاولوا أن يفتحوا له الباب. لكن الخادمة ذهبت بالطبع كالعادة إلى الباب في خطواتها المتثاقلة وفتحته. ولم يكن جريجور في حاجة سوى أن يسمع جملة «صباح الخير» الأولى التي سيقولها الزائر؛ لكي يتعرف على شخصيته على الفور، لقد كان الباشكاتب نفسه. يا له من قدر أن يُقضى عليك بالعمل في متجر حيث يثور حولك أشد أنواع الارتياح تزمناً لأقل إهمال! هل المواطنون جميعاً وبصفة خاصة مجرد أوغاد لا يوجد بينهم أبداً ولو رجل واحد فقط مخلص في تفانيه، رجل على الرغم من أنه قد يُضَيّع ساعة أو نحوها من وقت عمل المتجر ذات صباح؛ فإنه يكاد يفقد صوابه تحت وطأة عذاب الضمير وهو غير قادر رغم ذلك على أن يبارح فراشه! وهل يكفي حقاً أن يرسل مستخدمه للاستفسار لو كانت هناك ثمة ضرورة للاستفسار بالمرة؟ هل كان على الباشكاتب نفسه أن يحضر وأن يكشف أمام الأسرة كلها.. أمام أسرة بريئة. إن مثل تلك الظروف المريبة من الممكن أن تفحص على يد

من لا يقل عنه شخصياً خبرة بهذه الأمور. وتحت وطأة الحيرة التي سببتها له هذه التأمّلات، لا بسبب أي دافع آخر من دوافع الإرادة، طوّح جريجور نفسه إلى خارج الفراش بكل ما أوتي من قوة، ولقد ارتفع صوت صدمة مدوية، إلا أنها لم تكن صدمة بالفعل؛ فلقد خففت السجادة إلى حد ما من شدة الصدمة، كما أن ظهره أيضاً كان أقل صلابة مما كان يظن. وعلى هذا فقد كان ما حدث هو مجرد هبة حمقاء، إلا أنها لا تبعث كثيراً على الارتياح. لم يكن فقط قد رفع رأسه بعناية كافية، وعلى هذا فقد أصيب، وقد أداره وحكه على السجادة في ألم وهياج.

قال الباشكاتب في الغرفة المجاورة إلى اليسار: لقد كان ذلك شيئاً ما قد انطرح أرضاً بالداخل. وحاول جريجور أن يفترض في نفسه أن شيئاً كهذا الذي حدث له اليوم ربما حدث يوماً ما للباشكاتب، ولا يسع المرء في الواقع أن ينكر إمكان أن يحدث ذلك. إلا أن الباشكاتب تقدم خطوتين بثبات، في الغرفة المجاورة، وصر حذاؤه المصنوع من الجلد الجيد كما لو كان ذلك إجابة مقتضبة على ذلك الافتراض. وكانت أخته تهمس إليه من الغرفة التي إلى اليمين لتنهى إليه الموقف، قائلة: جريجور إن الباشكاتب هنا. تمتم جريجور قائلاً لنفسه: أعلم ذلك. إلا أنه لم يجرؤ على أن يرفع صوته إلى حد يكفي لكي تسمعه أخته.

وقال والده أخيراً من الغرفة التي إلى اليسار: جريجور، لقد حضر الباشكاتب، وهو يريد أن يعرف لماذا لم تلحق بالقطار المبكر. إننا لا نعرف ماذا نقول له، وهو بالإضافة إلى هذا يريد أن يتحدث إليك شخصياً؛ فافتح الباب أرجوك، إنه سيكون كريماً بما يكفي ليغفر لك اضطراب نظام غرفتك.

وكان الباشكاتب يهتف في أثناء ذلك قائلاً في ود: صباح الخير يا سيد سامسا.

وقالت والدته للزائر بينما كان والده لا يزال يتحدث من خلال الباب: إنه ليس على ما يرام.. إنه ليس على ما يرام يا سيدي، صدقني وإلا فأني شيء آخر يمكن أن يعوقه عن اللحاق بالقطار! إن الفتى لا يفكر أبداً سوى في عمله، وإن تعود على عدم الخروج في الأمسيات ليحزنني للغاية. فلقد كان هنا طوال الأيام الثمانية الماضية، وقد بقي كل ليلة من الليالي قابلاً بالمنزل. إنه يجلس فحسب هناك إلى المائدة في هدوء: يقرأ جريدة أو يتطلع في جدول مواعيد القطارات، إن تسليته الوحيدة هي أعمال النجارة الدقيقة وحفرها وتخريمها، فهو قد أنفق ليلتين أو ثلاث ليالٍ في صنع إطار صغير لصورة، ولسوف يدهشك عندما تتفحص جمال صنعه، إنه معلق على أحد حوائط غرفته، ولسوف تراه لأول وهلة عندما يفتح جريجور الباب. يجب عليّ أن أعلن سروري لقدمك يا سيدي. يجب علينا ألا ننقل عليه أبداً بإرغامه على فتح الباب لأنه حرون جداً، وإنني واثقة من أنه على غير ما يرام، وأنه لم يكن في تقديره أن يتأخر هذا الصباح.

قال جريجور بتباطؤ للغاية: إنني قادم فوراً. دون أن يتحرك بوصة واحدة؛ لخوفه من أن يفوته سماع كلمة واحدة من الحديث.

وقال الباشكاتب: لا أظنني بحاجة إلى مزيد من التفسير يا سيدي، وآمل ألا يكون في الأمر ثمة خطورة. على أننا يجب أن نقول من ناحية أخرى إننا -معشر رجال الأعمال- لحسن حظنا أو لسوءه علينا ببساطة في الأغلب أن نتجاهل أية وعكة خفيفة طالما كان أماننا ما يجب أن نقوم به

من الأعمال.

تساءل والد جريجور بصبر نافذ وهو يدق على الباب: حسنًا، هل يمكن أن يدخل الباشكاتب الآن؟ فقال جريجور: لا. وتبع هذا الرفض صمت أليم ساد الحجرة التي إلى اليسار، بينما بدأت أخته تنهنه باكية في الحجرة التي على اليمين.

لماذا لم تنضم أخته إلى الآخرين؟ ربما كانت قد غادرت الفراش لتوها، ولم ترتدي حتى الآن ملابسها بعد. حسنًا، لماذا كانت تبكي؟ لأنه لم ينهض، ولأن الرئيس سوف يزيد أنانيته في مطالبة والديه بديونهما القديمة. كانت هذه بالتأكيد أشياء لم يكن المرء في حاجة إلى أن يقلق الآن بخصوصها، فلا يزال جريجور بالمنزل، وهو لا يفكر مطلقاً في ترك الأسرة في هذه اللحظة. بالفعل كان ممدداً فوق السجادة، وأي شخص كان يعلم حقيقة حالته لم يكن ليتوقع منه أن يسمح للباشكاتب بالدخول، إلا أن جريجور لم يستطع سوى بصعوبة بالغة أن يصرف نفسه لحظتها عن التفكير في فظاظة مثل ذلك السلوك، التي كان من الممكن بحثها تمامًا فيما بعد بشكل كاف. ولقد بدا لجريجور أنه كان من الأقرب للصواب أن يتركه حينئذ في سلام، بدلاً من أن يزعجه بدموعهم وتوسلاتهم، إلا أن شكوكهم ومخاوفهم بالطبع كانت لا تزال هي ما يبعثهم جميعاً على مثل ذلك الارتباك، وتبرر سلوكهم.

وأخيراً هتف الباشكاتب قائلاً في صوت أكثر ارتفاعاً: ما الذي دهاك يا سيد سامسا؟ فها أنت ذا تتحصن داخل حجرتك، مجيباً علينا فقط بنعم ولا، ومسبباً لوالديك كثيراً مما لا يلزمهما من الإزعاج، ومهملاً - وأنا أذكر

هذا فقط في سياق الحديث - مهملاً واجبات عملك بصورة لا تعقل . إنني أتحدث الآن باسم والديك، وباسم رئيسك، وأرجوك في جدية تامة أن تقدم تفسيراً سريعاً ودقيقاً لذلك كله . إنك لتدهشني ! لقد عهدتك شخصاً هادئاً، يعتمد عليه، ولكنك تبدو الآن فجأة ميالاً إلى استعراض نفسك في استهتار . لقد لمّح لي رئيسك مبكراً هذا الصباح بتفسير ممكن لغيابك مع الإشارة إلى تلك الدفعات النقدية التي تسلمتها أخيراً كأمانة، لكنني تعهدت فوراً بكلمة شرف مؤكدة، أن هذا لا يمكن أن يكون . لكن لم تعد لدي الآن أدنى رغبة - وأنا أراك مهملاً عملك على هذا النحو الذي لا يصدقه عقل - في الدفاع عنك مطلقاً . كما أن وضعك في المؤسسة لم يعد على سابق عهده من الثبات . لقد جئتُ قاصداً أن أقول لك هذا كله على حدة، لكن بما أنك تضعي وقتي بلا داع إلى هذا الحد، فلست أرى ثمة ما يمنع والديك من سماع هذا بدورهما . فلم يكن عملك مرضياً بالمرة، منذ مضى وقت غير قليل، وليس هذا بالطبع هو موسم الزواج من بين مواسم السنة . موسم لا يلزمنا فيه القيام بأي عمل على الإطلاق، ويجب ألا يوجد هذا الموسم يا سيد سامسا !

صاح جريجور قائلاً وقد نسي نفسه في ارتباك، ونسي كل شيء آخر حوله : لكنني يا سيدي، في سبيلي لكي أفتح الباب في التو واللحظة . وإن وعكة طفيفة، نوبة من نوبات البرد، هي ما عاقبتني عن النهوض، إنني لا زلت مستلقياً في الفراش . لكنني أشعر الآن بأنني على ما يرام، وإنني لأنهض من الفراش الآن، فأرجو أن تسمح لي بدقيقة أخرى أو دقيقتين . إنني لست على خير ما يرام تماماً، كما كنت أعتقد، إلا أنني بخير حقاً ! كيف يتسنّى لشيء

من هذا القبيل أن يطرح المرء أرضاً فجأة؟! لقد كنتُ على خير ما يرام في الليلة الماضية بالذات، ويمكن أن يخبرك والدي بهذا، وإلا فلن يكون ما دهمني سوى مجرد توجس طفيف. وقد كان من واجبي أن أشير إلى ذلك. فلماذا لم أرسل تقريراً إلى المؤسسة عن ذلك؟! إلا أن المرء يظن دائماً أن أية وعكة قد تمر بسلام، دون أن تضطره إلى البقاء في المنزل. أرجوك يا سيدي أن تعذر والدي! إن كل ما تلومني الآن عليه، لا أساس له، كما أن أحداً لم يشر لي إليه من قبل بكلمة قط. ولعلك لم تطلع بعد على قائمة الطلبات الأخيرة التي سلمتها، وعلى أية حال، فلا يزال في وسعي أن ألحق بقطار الساعة الثامنة؛ فقد تحسنتُ كثيراً خلال تلك الساعات القلائل التي ارتحتُ خلالها، فلا تتأخر هنا بسببي يا سيدي، ولسوف أستأنف عملي في الحال، وأرجو أن تتكرم، فتخبر الرئيس بذلك، وأن تعتذر له نيابة عني!

وبينما كان يتتابع هذا كله ويختلط، وجريجور لا يكاد يعي ما الذي يقوله، كان قد بلغ صندوق الملابس في سهولة تامة، ربما بسبب التمريعات التي كان قد قام بها في الفراش، وكان يحاول الآن أن يفتح الباب، وأن يخرج فعلاً، ويتحدث إلى الباشكاتب، وقد كان متلهفاً إلى أن يعرف ما الذي سوف يقوله الآخرون، بعد طول إلحاحهم، لحظة أن تقع أعينهم عليه، فإن ارتسم على وجوههم الرعب، فإن المسؤولية حينئذٍ لن تكون مسؤوليته هو، ويمكنه أن يبقى ساكناً، أما إذا واجهوه في هدوء، فلن يكون أمامه حينئذٍ أبضاً ثمة ما يكدره، ويمكنه بالفعل أن يتوجه إلى المحطة؛ لكي يلحق - إن أمكنه أن يسرع في السير - بقطار الساعة الثامنة، ولقد انزلق في البداية بضع مرات من فوق سطح صندوق الملابس اللامع لكنه تمكن في

النهاية- بانتفاضة أخيرة- من أن يقف مستقيماً، ولم يلق بالاً حينئذ إلى الآلام التي كان يشعر بها في النصف الأسفل من جسده مهما اشتد وخزها، ثم ترك جسده ليسقط إلى ظهر أحد المقاعد القريبة، وتشبث بأرجله الدقيقة في حواف المقعد، وقد مكنه ذلك من السيطرة على نفسه من جديد، وكان قد توقف تماماً عن الكلام، ذلك أنه كان في وسعه الآن أن يتسمع إلى ما كان يقوله الباشكاتب.

كان الباشكاتب يتساءل قائلاً: هل فهمتم حرفاً واحداً مما قال؟ هل أنتم واثقون من أنه لا يحاول خداعنا! وصاحت والدته قائلةً وسط دموعها: آه يا عزيزي! لعله يعاني مرضاً فظيماً، بينما نسبب له نحن مزيداً من الآلام. صاحت تنادي: جريتا، جريتا! وأجابتها أخته من الغرفة الأخرى: نعم يا ماما؟ كائنات تصايحان على بعضهما عبر حجرة جريجور! اذهبي لاستدعاء الطبيب، أسرعي، هل سمعت رنة حديثه؟!

رد الباشكاتب قائلاً في صوت خفيض بدرجة ملحوظة بالقياس إلى جلجلة صوت الأم: إن صوته لم يكن صوتاً بشرياً! بينما كان صوت والده ينطلق منادياً عبر الصالة إلى المطبخ، وهو يضرب يديه ببعضهما: أنا، أنا، اذهبي حالاً للبحث عن حداد كوالين! بينما انطلقت الفتاتان لتوهما مسرعتين عبر الصالة، وانبعث حفيف جونلتيهما. كيف تمكنت أخته من أن ترتدي ملابسها بمثل هذه السرعة! وفتحتا باب الشقة الخارجي. لم يسمع صوت إغلاق الباب بعد ذلك، كان يبدو واضحاً أنهما قد تركتا مفتوحاً كما يفعل المرء في البيوت التي تدهمها إحدى النكبات الفاجعة. إلا أن جريجور كان قد أصبح أكثر هدوء الآن. ويبدو أن الكلمات

التي تفوه بها لم تعد مفهومة على ما يبدو، على الرغم من أنها كانت قد بدت له واضحةً بدرجةٍ كافيةٍ، بل ربما أكثر وضوحًا عن ذي قبل، وربما لأن أذنه كانت قد اعتادت على نبراتها، إلا أنهم على أية حال قد أحسوا الآن أن مكروهاً قد ألم به، وأصبحوا على أتم استعداد لمساعدته. ولقد أراحه اليقين القاطع الذي بنى على أساسه هذه التقديرات المبدئية لموقفه، فلقد أحس بنفسه، وقد انخرط مرةً أخرى في سلك البشر، وأفعمت نفسه بالأمل في أن ينجلي الموقف عن نتائج خطيرة وخارقة على يدي كل من الطبيب وحداد الكوالين، دون أي تمييز محدد - في الحقيقة - بينهما، ولكي يجعل صوته واضحًا بقدر المستطاع استعدادًا للحديث الحاسم الذي كان يترقبه الآن، سعل قليلاً، بقدر ما وسعه الهدوء بالطبع، بما أن تلك السعلة كان من المحتمل أن تبدو مقطوعة الصلة هي أيضًا بالسعلة البشرية، ذلك أنه كان لا يزال بوسعه أن يحتاط لكل شيء. وكان قد هبط على الغرفة المجاورة في تلك الأثناء صمت تام. ربما كان والداه يجلسان مع الباشكاتب إلى المائدة يتهامسون، وربما استندوا جميعًا إلى الباب يستمعون!

دفع جريجور المقعد ببطء نحو الباب، ثم.. تركه وتشبث بالباب، ليستند إليه - كانت الحوافر التي تنتهي بها سيقانه الدقيقة لزجة على نحو ما - ثم استراح لحظة، مستندًا إلى الباب بعد جهوده تلك. ثم حاول أن يدير المفتاح في القفل بفمه. لكن اتضح - لتعاسته - أنه لم تكن له بالفعل أية أسنان. فبأي شيء آخر يمكنه أن يقبض على المفتاح؟ ولكن فكيه بدلًا من ذلك كانا غاية في الصلابة بالتأكيد، وقد أمكنه أن يحرك بهما المفتاح، غافلاً عن حقيقة أنه كان بلا ريب قد هشمهما في بعض المواضع، فلقد

انبثق من فمه سائل بني اللون، فلطخ المفتاح وتساقط فوق الأرض.

صاح الباشكاتب قائلاً من الناحية الأخرى للباب: انظروا إلى ذلك.. إنه يدير المفتاح! كان ذلك تشجيعاً عظيماً لجريجور، إلا أنهم تصايحوا جميعاً يشجعونه، والده ووالدته هي أيضاً: استمر، اضغط على المفتاح! وليقينه من أنهم كانوا جميعاً يتعقبون جهوده باهتمام، أطبق فكيه على المفتاح في تهور بكل ما أوتي من القوة، وعندما ازداد دوران المفتاح، تقوس هو أيضاً بدوره حول الكالون، مرتكزاً الآن فقط على فمه، دافعاً المفتاح، كما ينبغي، أو جاذباً إياه ثانية إلى أسفل بكل ثقل جسده. وقد دفعت أولى التكات - مرتفعة الصوت التي صدرت عن الكالون - جريجور إلى الإسراع في مهمته، ومن ثم قال لنفسه أخيراً، وهو يطلق زفرة ارتياح عميقة: وهكذا لن أحتاج أخيراً إلى حداد الكوالين. ثم.. ضغط رأسه على مقبض الباب لكي ينفتح!

كان لا يزال مختفياً وراء الباب عندما انفتح بالفعل إلى آخره؛ لأنه كان قد سحب ضلفته مختفياً خلفها، وكان عليه لكي يظهر من فتحة الباب أن يحرك جسده ببطءٍ منحرفاً نحو حافة الضلفة التي كانت تحجبه، وكان عليه لكي يفعل ذلك أن يتفادى السقوط مقلوباً على ظهره، فوق عتبة الباب، كان لا يزال منشغلاً بإتمام تلك الخطوة العسيرة، دون أن يجد فسحة من الوقت لمتابعة أي شيء آخر سواها، حتى سمع الباشكاتب، وهو يطلق آهة مرتفعة - بدت كما لو كانت لفحة من الهواء -، وكان قد تمكن الآن من أن يراه واقعاً كما كان أمام الباب، لا طمأ فمه المفغور بإحدى كفيه ومتراجعاً في بطاء كما لو كانت قد دفعته قوة شديدة غير منظورة، وأطبقت أمه - وكان

شعرها الذي لم تكن قد مشَّطته بعد، على الرغم من وجود الباشكاتب، لا يزال أشعث ومنفوشاً في كل اتجاه- كفيها على بعضهما أولاً، ثم تطلعت نحو والده، وتقدمت نحو جريجور خطوتين، ثم سقطت على الأرض وسط ملابسها التي انتشرت حولها وقد اندفن وجهها تماماً بين صدرها، أما والده فقد ضم قبضته بعنف، وقد ارتسم على وجهه تعبير قاس كما لو كان قد انتوى أن يدفع بنظرة زائغة، ثم غطى عينيه بكفيه، وانخرط في البكاء حتى اضطرب صدره العريض.

لم يخرج جريجور عندئذ على حجرة الجلوس، وبينما بقي بداخل حجرته مستنداً إلى الضلفة الثابتة المغلقة من الباب، وعلى هذا فقد تبدَّى للرؤية نصف جسده فقط، ورأسه مائل إلى جانب؛ حتى يتابع النظر إلى الآخرين، وكان الضوء قد انتشر ساطعاً في تلك الأثناء وكان في إمكان المرء أن يرى في مواجهته بوضوح في الجانب الآخر من الشارع، قطعاً من المبنى الرمادي القاتم، الذي لا نهاية لطوله وقد كان لمستشفى ينساب على صفحته في نعمة حسابية جافة، صف من النوافذ الروتينية المنتظمة، وكان المطر لا يزال يتساقط، إلا أنه كان يتساقط فقط في قطرات واضحة متناثرة أو بمعنى أصح، في طرطشات متناثرة مطردة الإيقاع، وكانت أطباق الفطور قد رصت بكثرة فوق المائدة، فقد كان الفطور هو أهم وجبات اليوم عند والد جريجور، الذي كان يتلصقاً قبل تناوله بساعات عديدة، يقرأ خلالها مختلف الصحف، وفي مواجهة جريجور تماماً كانت ثمة صورة فوتوغرافية معلقة على الحائط له في ملابس الخدمة العسكرية كملازم، ويده على مقبض السيف، وعلى ملامح وجهه ترسم ابتسامة ثابتة، تدعو

المرء إلى تقدير بذلته ورتبه العسكرية. كان الباب الذي يفضي إلى الصالة مفتوحًا، وكان في إمكان المرء أن يرى أن الباب الخارجي كان مفتوحًا أيضًا، لا يزال تبدو خلفه بسطة السلم وأولى درجات السلم الهابطة إلى أسفل.

قال جريجور، مدرِّكًا تمامًا أنه الوحيد الذي لم يعد يسعه أن يحتفظ بهدوئه، على عكسهم: حسنًا، سوف أرتدي ملابسني، ثم أحزم عيناتي، وأرحل! هل تسمحون لي فقط بالذهاب؟ ها أنت ذا يا سيدي ترى أنني لست حروئًا، وأنني راغب في العمل، إن حياة الارتحال، هي حياة شاقة، إلا أنني لم أعد قادرًا على أن أحيا حياة أخرى سواها، فإلى أين ستذهب أنت يا سيدي؟ إلى الإدارة؟ نعم هل تتكرم بنقل صورة صادقة لهذا كله! إنَّ المرء ليعجز إلى حين، إلا أن لحظات عجزه هذه بالذات هي ما يجب عندها تذكّر خدماته السابقة، وإن ما يحفظه المرء في ذاكرته من هذا فيما بعد، بعد أن تكون قد زایلته شدته يدفعه بلا شك إلى العمل بأقصى ما يسعه الجهد والتركيز! إنني ملتزم بأن أخدم الرئيس في إخلاص، وإنك لتعلم هذا حق العلم، وعليّ بالإضافة إلى هذا أن أعول والديّ وشقيقتي! لقد سقطت فريسة لعديد من المحن المروعة، إلا أنني سأنجو منها في النهاية، فلا تحاول أن تجعل الأمور تبدو بالنسبة لي أشد سوءًا مما هي عليه، دافع عني في المؤسسة! إنني أعلم أن التجار المتنفلين، لا يتمتعون بأي عطف هناك، فالناس يعتقدون أنهم يكسبون من الأموال ملء أجولة، ولا يقومون إلا بقضاء أوقات ممتعة في رحلاتهم، اعتقاد خاطئ! ليس ثمة سبب يدعونا الآن بصفة خاصة إلى مراجعته. إلا أنك تتمتع يا سيدي برؤية للأمور أكثر

وضوحًا عما يراه الرئيس نفسه، الذي يدع حكمه، بما أنه مالك المؤسسة
يميل بسهولة ضد أحد مستخدميهِ. وإنك لتعلم حق العلم، أن المتنقل الذي
لا يتواجد في الإدارة على مدار السنة بطولها غالبًا، عرضة لأن يقع فريسة
للغيبة، وسوء الطالع، والشكاوي التي لا أساس لها في حقه، والتي لا يعلم
عنها شيئًا البتة في أكثر الأحيان، إلا بعد أن يعود مجهدًا من تجواله، ليعاني
شخصيًا حينئذ فقط نتائج شرورهم التي لا يسعه إذ ذاك أن يتعقبها حتى
يقف على دوافعها الأصلية. سيدي، يا سيدي، لا تنصرف أرجوك، دون
أن تجيبني بكلمة تؤكد ثقتك بأنني على حق، ولو إلى حد ما، على الأقل!

إلا أن الباشكاتب كان قد استدار مترجعًا من فوره عند سماعه أولى
كلمات جريجور، محدقًا فيه فقط بفم مفعور، فوق كتف مرتعد! ولم
يتوقف ولو للحظة واحدة، بينهما كان جريجور يتحدث، وإنما انسل
مبتعدًا نحو الباب، دون أن يرفع عينيه عن جريجور، سوى مرة، لمسافة
خطوة فقط، كما لو كان قد تلقى إنذارًا سرّيًا بمغادرة الحجرة! وكان قد بلغ
الصالة للتو. ولكن المباغلة التي خطا بها خطواته الأخيرة إلى خارج حجرة
الجلوس كانت تكاد تدفع المرء إلى أن يظن أن كعب قدمه لا بد وأنه قد
لسعته لحظتها حشرة ما! وفي الصالة مد ذراعه الأيمن مرة أخرى أمامه نحو
السلم، كما لو كانت ثمة قوة خارقة للطبيعة، تنتظره لتلقفه هناك.

ولقد أدرك جريجور أنه لم يكن يجب عليهم أن يسمحوا للباشكاتب
مهما كانت الظروف، بأن ينصرف في حالته العقلية المضطربة تلك، لو أن
وضعه في المؤسسة حقًا، لم يكن قد أصبح حرجًا إلى أقصى حد، إلا أن
والديه لم يتفهما ذلك كما ينبغي، فلقد كانا قد اقتنعا نهائيًا، على مر السنين

أن جريجور، كان قد استقر في تلك المؤسسة إلى الأبد، كما أنهما كان منشغلين فوق الطاقة علاوة على ذلك بهموهم الطارئة، لدرجة جانبهم فيها تمامًا تدبر العواقب، إلا أن هذا التبصر لم يغب عن بال جريجور! فقد كان الواجب عليهم أن يقنعوا الباشكاتب، وأن يهدئوا ثأرتة، وأن يغروه على البقاء، حتى يكسبوه أخيرًا في صفهم، ذلك أن مستقبل جريجور كله، ومستقبل أسرته بالتالي كان يتوقف على ذلك، لو أن أخته كانت موجودة فقط إذ ذاك! فلقد كان ذكاؤها كافيًا لإدراك الموقف! ولكنها قد شرعت في البكاء بينما كان جريجور مستلقيًا لا يزال على ظهره في هدوء، ولا شك أن الباشكاتب بانقياده المعهود للنساء، كان سيتصرف تبعًا لإرادتها، ولا بد أنها كانت ستغلق باب الشقة، وتحدث معه في الردهة بعد أن يزيله كل ما استولى عليه من الرعب، إلا أنها لم تكن هناك! وكان على جريجور أن يملك زمام الموقف بنفسه! ودون أن يتذكر حتى أن كلماته في أقصى احتمالات تأثيرها -وفي أقصى احتمالات وضوحها- سوف تلبى فهمها على الباشكاتب مرة أخرى.

ترك ضلفة الباب، واندفع من خلال فتحته، وبدأ السير متجهًا نحو الباشكاتب، الذي كان قابضًا بكلتا يديه -بصورة مضحكة- على الدرازين فوق بسطة السلم، لكنه فجأة تهاوى على الأرض مطلقًا صرخة خافته، ضاعت وسط كل سيقانه العديدة، بينما كان يبحث عن شيء يستند إليه. وهكذا انطرح أرضًا عندما كان قد بدأ يمارس لأول مرة في ذلك الصباح، إحساسًا بالراحة الجدية، فلقد كانت الأرض صلبة تحت أقدامه، وكانت حركة سيقانه -كما لاحظ في سعادة- طيبة للغاية بل لقد جاهدت لتحمله

إلى الأمام في أي اتجاه شاء، وكان قد أوشك على الاعتقاد بأن الشفاء التام من كل آلامه كان قد بات في متناول يده! إلا أنه في نفس اللحظة التي وجد نفسه أثناءها منطرحاً على الأرض، ينتفض من غلبة شوقه إلى أن يتحرك غير بعيد عن والدته، بل أمامها مباشرة للحقيقة، هي، التي كان يبدو عليها وكأنها قد تحطمت تماماً، قفزت فجأة واقفة على قدميها، ناشرة أمامها ذراعيها وكل أصابعها، صارخة: النجدة بحق الإله، النجدة. ثم أحنّت رأسها إلى أسفل، كأنما لتجد جريجور أمامها على ما يرام، إلا أنها على عكس ما كانت تتوقعه، أخذت تتراجع مبتعدة بظهرها، بلا شعور.. إلى الخلف، غائبة تماماً عن أن تتذكر أن المائدة المحملة، كانت تقبع خلفها، لتجد نفسها فجأة مستقرة فوق سطحها، كما لو كان اصطدامها بها قد وقع في غيبة العقل. كما بدت ذاهلة أيضاً عن إناء القهوة الكبير الذي انقلب بجوارها، وانصببت القهوة، وفاضت فوق السجادة!

تمتم جريجور قائلاً في صوت خافت وهو يتطلع إليها: أماه! أماه! وكان الباشكاتب قد اختفى تماماً من مخيلته بتلك اللحظة، ولم يسعه بدلاً من ذلك، أن يقاوم اصطدام فكيه ببعضهما، وهو يرى القهوة باللبن. وقد دفع هذا والدته إلى أن تطلق صرخة أخرى، هاربة من المائدة، لتسقط بين ذراعي والده، الذي أسرع لينتشلها! لكن جريجور لم يكن لديه الآن متسع من الوقت للاهتمام بوالديه، فلقد كان الباشكاتب يهبط السلالم بالفعل، بينما كان يختلس، بذقنه فوق الدرابزين، نظرة أخيرة إلى الخلف، وقفز جريجور مندفعاً، ليضمن اللحاق به بقدر الإمكان، ويبدو أن الباشكاتب كان قد تنبأ بما انتواه، لأنه قفز هابطاً بضع درجات دفعة واحدة، واختفى،

بينما كان لا يزال يعوي، مطلقاً صيحة تأفف أخيرة، تردد صداها في كل جنبات السلم!

ولقد بدا أن فكاك الباشكاتب-لسوء الحظ- قد أحق جداً والد جريجور الذي كان قد ظل هادئاً غاية الهدوء حتى الآن؛ لأنه بدلاً من أن يسرع ليلحق بالرجل نفسه أو على الأقل لا يعوق جريجور في مطارده له قد أمسك بيده اليمنى العصا التي كان الباشكاتب قد نسيها فوق المقعد، واختطف صحيفة كبيرة بيده اليسرى من فوق المائدة، وراح يدق الأرض بقدميه، ويدفع العصا بالصحيفة على رأسها ليرغم جريجور على العودة ثانية إلى داخل حجرته! ولم تفلح توسلات جريجور، ولم يفهم في الحقيقة رجاءً واحداً من رجاءاته، ومهما أحنى رأسه في تواضع، لم يكن والده يجيبه سوى بأن يدق له الأرض في ضجة أشد ارتفاعاً. وخلف والده فتحت والدته إحدى النوافذ على مصراعيها، رغم برودة الجو، وانحنت تطل منها خارجاً، إلى أبعد ما وسعها ذلك ووجهها بين كفيها! وهبت من الشارع لفحة قوية من الهواء. ورفرفت الستائر، وتطايرت الصحف من فوق المائدة، وصفت صفحاتها الشاردة فوق الأرض! ودفعه والده إلى الخلف بلا رحمة، وهو يصفر، ويتصايح كوحش، إلا أن جريجور لم يكن متمرساً قط على السير مترجعاً بظهره... كان سيره على هذا النحو بطيئاً حقاً، فلو أن الفرصة أُتيحت له فقط حتى يستدير إذن لأمكنه أن يعود إلى حجرته على الفور، لكنه كان خائفاً من إغاظه والده، ببطء مثل تلك المحاولة للدوران على نفسه، وربما صكته عصا والده حينئذ، في أية لحظة في خبطة قاتلة على ظهره، أو فوق رأسه. ورغم ذلك، فلم يكن أمامه أي

شيء آخر ليفعله بعد أن أدرك في رعب أنه في تحركه إلى الخلف بظهره، لن يمكنه حتى أن يتحكم في تحديد الاتجاه الذي سوف يتخذه، وعلى هذا، وبينما عيناه القلقتان، ترقبان والده طوال الوقت من فوق كتفه في حذر، بدأ يتحرك مستديرًا بأقصى ما وسعته السرعة، التي بدت -للحقيقة- غاية البطء! وربما كان والده قد أدرك حسن نواياه؛ لأنه توقف عن التدخل فيما عدا محاولاته من حين لآخر، أن يقدم له بعض العون، على تنفيذ خطته، بطرف العصا، من بعيد! فلو أنه ألق فقط عن إصدار ذلك الصغير الذي لا يطاق! فلقد كان يوشك أن يفقد جريجور صوابه تمامًا! كان قد أوشك على إتمام دورانه، عندما أربكه ذلك الصغير، حتى أنه قد انحرف قليلًا إلى سابق وضعه، مرة أخرى! إلا أن رأسه عندما أصبحت تواجه مدخل الباب أخيرًا لحسن الحظ، اتضح -بكل بساطة- أن جسده كان عريضًا جدًا، بحيث لا تسعه فتحة الباب، وكان والده بالطبع في حالته تلك، أبعد من أن يفكر في أي شيء من قبيل أن يفتح له ضلفة الباب الأخرى، حتى يتيح له مسافة كافية للمرور، كانت لديه مجرد الرغبة الملحة في إعادة جريجور ثانية إلى حجرته بأسرع ما يمكن! إنه لن يتيح أبدًا لجريجور أن يقوم بتلك الترتيبات الطارئة، التي تنتهي بوقوفه، فربما أمكنه أن يمر منزلقًا -لو وقف- من خلال فتحة الباب وربما كان قد رفع صوته الآن أكثر من ذي قبل؛ لكي يحث جريجور على المضي إلى الأمام، كما لو لم تكن هناك أية عقبات تمنعه من المرور، لكن الصوت الصادر من الخلف لم يعد يطن في سمع جريجور، رغم ذلك، باعتباره صادرًا عن أب واحد فقط -ولم تكن هذه مجرد نكتة-، فاندفع -وليحدث ما يحدث- مقتحمًا فتحة الباب، فارتفع أحد جانبيه،

وانزلق في فتحة الباب بزاوية ما، وغطت الرضوض مؤخرته كلها، ولطخت الباب أبيض اللون لطشات مرعبة، ولم يلبث حتى انزلق أكثر من ذي قبل، وأصبح من المستحيل أن يواصل الحركة مطلقاً، بلا معاونة وتعلقت سيقانه مضطربة في الهواء، على أحد جوانبه. أما السيقان التي في الجانب الآخر فقد انسحقت في الأرض بألم لا حد له، عندما دفعه والده دفعة قوية من الخلف كانت خلاصاً فعلياً له، وارتمى بعيداً في داخل حجرته، يدمي في غزارة. وكان الباب قد انصفق خلفه! ومن ثم هبط الصمت أخيراً بعد ذلك.

الفصل الثاني

لم يفق جريجور- إلا بعد أن هبط المساء- من السبات العميق الذي استغرقه، والذي بدا أقرب إلى الإغماء منه إلى النوم، ولا شك أنه كان سيستيقظ من تلقاء نفسه بعد وقت قصير؛ لأنه أحس بأنه قد استغرق في النوم، لكن بدا كما لو أنّ وقع قدم هاربة، وإغلاق الباب المؤدي إلى الصالة في حذر، هو ما كان قد أيقظه. وكانت المصابيح الكهربائية في الشارع قد أَلْقَتْ ضوءًا خافتًا هنا وهناك على السقف، وفوق سطوح قطع الأثاث، لكن أرضية الحجرة، حيث كان قابعًا كان يسودها الظلام، وفي بطنه بدأ يحرك أمامه في تخطيط قرون استشعاره، التي كان قد أدرك الآن فقط جدواها، ثم اندفع في طريقه نحو الباب، ليرى ما الذي كان يحدث هناك. كان يحس بجانبه الأيسر وكأنه ندبة واحدة ضيقة، ممتدة في بشاعة، فلم يكن يسعه بالفعل إذ ذاك سوى أن يتأرجح في حركته فوق سيقانه التي تتألف من صفيين، وكانت ساق صغيرة من سيقانه-بالإضافة إلى هذا- قد تهشمت بقسوة، في مجرى أحداث ذلك الصباح، ولم يكن يقل عن معجزة، أنه لم تتحطم سوى واحدة فقط من سيقانه وتجر جرت خلفه بلا نفع.

وكان قد بلغ الباب قبل أن يكتشف ما الذي كان قد جرّه حقًا نحوه.

رائحة الطعام، ذلك أنه قد استقر بالقرب من الباب وعاء امتلأ باللبن الحليب، ويطفو فوق سطحه فتات من الخبز الأبيض. كاد أن يضحك من فرط السعادة؛ فلقد كان قد أمسى الآن أشد جوعاً مما كان عليه في الصباح، ودب رأسه حتى ما فوق العينين فوراً في قلب وعاء اللبن. لكنه سحبها ثانية في خيبة أمل، ليس فقط لأنه لم يكن يسعه أن يطعم بسبب الألم الذي كان يرهقه في الجانب الأيسر - فلم يكن يمكنه أن يتناول طعامه سوى بخفقان أجزاء جسده جميعاً متضامنة في وقت معاً - بل لأنه لم يستسغ اللبن أيضاً، على الرغم من أنه كان شرابه المفضل، وهذا كان السبب بلا شك في أن أخته قد وضعت له هناك، وقد استدار مبتعداً بالفعل عن الوعاء في اشمئزاز، وزحف راجعاً إلى وسط الحجرة!

ولقد حدث مرة خلال تلك الأمسية الطويلة، أن انفتح أحد الأبواب التي تتوسط الشقة، لحظة قصيرة، ثم أغلق ثانية بسرعة، ثم حدث ذلك للباب المقابل، فيما بعد، أيضاً ويبدو أن أحدهم كان قد رغب في الدخول، ومن ثم رأى أن من الأفضل ألا يفعل. فقبع جريجور فوراً أمام الباب الذي يفتح على حجرة الجلوس وقد انتوى أن يغري أي زائر متردد على الدخول، أو أن يكتشف على الأقل من عساه أن يكون، إلا أن الباب لم يفتح قط ثانية، وضاع انتظاره عبثاً! كانوا يريدون جميعاً أن يدخلوا إليه في ذلك الصباح الباكر، عندما كانت الأبواب مغلقة، والآن بعد أن فتح لهم أحد الأبواب بنفسه، وكان الآخر قد ظل مفتوحاً على ما يبدو طوال النهار لم يدخل أي منهم، وحتى المفاتيح كانت في ثقب الأبواب من الخارج.

لم تنطفئ المدفأة في حجرة الجلوس إلا في وقت متأخر من الليل،

وفي مقدور جريجور بسهولة أن يؤكد أن والديه وشقيقته، قد ظلوا جميعاً متيقظين حتى ذلك الحين؛ لأنه كان قد تمكن من أن يستمع في وضوح لثلاثتهم، وهم يسترقون الخطى، مبتعدين على أطراف أصابعهم. لم يكن يبدو أن أحداً منهم سيزوره قبل طلوع النهار، كان ذلك أكيداً، وعلى هذا فقد كان لديه متسع من الوقت ليتدبر فيه وحده كيف يرتب حياته من جديد، إلا أن الغرفة الشاهقة الخاوية، التي كان يتعين عليه أن يستلقي متمدداً فوق أرضيتها كانت قد ملأته بشعور لم يتمكن من تعليله، بما أنها كانت هي نفس حجرته التي قضى فيها سنواته الخمس الماضية.. وبحركة نصف واعية، لم تفتقر إلى ظل من الشعور بالحر، اندفع غاطساً تحت الكنبه، حيث أحس بالراحة من فوره، على الرغم من أن ظهره كان مضغوطاً على نحو ما، ولم يكن يمكنه أن يرفع رأسه إلى أعلى، وكان ما أسف عليه فقط، هو أن جسده كان أعرض من أن يختفى بكامله، تماماً، تحت الكنبه!

وبقى تحت الكنبه طوال الليل، محاولاً قطع الوقت أحياناً بالنعاس الخفيف، الذي كان جوعه يوقظه منه متوفزاً، وأحياناً يقطعه مهموماً مخططاً بعض الآمال المبهمة، التي كانت تنتهي كلها إلى نفس النتائج، التي تلخص في أن عليه أن يتمدد الآن أرضاً، وبمعالجة الصبر، وغاية التساهل، يمكنه أن يساعد الأسرة على تحمل الصعاب التي سيسببها لهم بحالته الراهنة.

وفي الصباح المبكر جداً، بينما كان ظلام الليل لا يزال سائداً تماماً، سنحت لجريجور الفرصة لكي يختبر سلامة حلوله الجديدة، فلقد فتحت شقيقته الباب قادمة من الردهة وحملت في الداخل، مرتدية ثيابها كاملة

تقريباً، لم تتمكن من رؤيته لأول وهلة، إلا أنها عندما رآته تحت الكنبه- حسناً- لقد كان مقدراً له أن يتواجد في مكان ما من الحجرة، فلم يكن في مقدوره أن يطير بعيداً، هل كان يسعه أن يفعل؟ فزعت غاية الفزع، حتى أنها صفقت الباب، فانغلق ثانية، لما لم تتمكن من السيطرة على أعصابها، إلا أنها فتحت الباب مرة أخرى على الفور، كما لو كانت قد ندمت على تصرفها ودخلت على أطراف أصابعه، كما لو كانت تعود مريضاً، أو شخصاً غريباً.. فدفعت جريجور رأسه إلى الأمام، وراح يتطلع إليها! هل ستلاحظ أنه قد ترك اللبن، دون أن يمسه، وأن ذلك لم يكن يعني أنه ليس جائعاً؟ وهل ستحضر بعض أنواع الطعام الأخرى التي يستسيغها؟ إنها لن يلفت نظرها إلى حقيقة الأمر على الرغم من أنه قد أحس بدافع وحشي لأن يندفع خارجاً من تحت الكنبه، وأن يرتمي على قدميها، يستعطفها أن تأتي له بشيء يأكله. إلا أن ما فعلته حقيقة- لطيفة قلبها- بعد ذلك لم يكن جريجور يستطيع أن يصل إليه قط بتخميناته.

فحتى تكتشف ما الذي يفضله كانت قد أحضرت له عينات تقريباً من كل ألوان الطعام مفروشة كلها فوق إحدى الجرائد القديمة. كانت هناك خضراوات بائنة نصف متعفنة وعظام بقيت من حساء الأمس، مغطاة بدهن أبيض كان قد تجمد وبعض الزبيب واللوز وقطعة من الجبن بإمكان جريجور أن يؤكد أنها كانت قد فسدت منذ يومين وقطعة مستديرة من الخبز الجاف وكسرة خبز مدهونة بالزبد وكسرة مملحة ومدهونة أيضاً بالزبد، ويجوار هذا كله وضعت ثانية نفس الوعاء، الذي صبت فيه بعض الماء والذي كان قد قصر خصيصاً فيما يبدو على استعماله الخاص. وفي

لباقة زائدة، انسحبت مسرعة، مدركة أن جريجور لن يأكل في وجودها، بل لقد أدارت المفتاح في كالون الباب حتى يدرك أن في مكانه أن يأخذ راحته بقدر ما يشاء، وأتبع ذلك صفيح سيقان جريجور عندما اتجه نحو الطعام، ولا بد أن جراحه كانت قد التأم تمامًا علاوة على ذلك؛ لأنه لم يعد يشعر بالعجز، وهذا ما حيره، وجعله يتذكر الآن كيف أنه كان قد جرح أحد أصابعه بسكين جرحًا بسيطًا منذ أكثر من شهر مضى، وأنه ظل يعاني من ألم الجرح حتى يوم أمس الأول، وفكر متسائلًا: هل أنا الآن أقل حساسية؟ وراح في شراهة يمتص الجبن الذي اجتذبه على الفور أكثر من باقي المأكولات كلها، وبسرعة التهم ودموع الرضا تترقق في مآقيه كل الجبن قطعة بعد أخرى، والتهم الخضراوات والدهون، لكن الخبز الطازج لم يجذبه، بل حتى لم يطق رائحته، ثم سحب بالفعل الأشياء التي كان يستطيع أن يأكلها وانتحى بها جانبًا. ولقد أجهز من فوره على وجبته، وكان مستلقيًا في تكاسل في نفس مكانه عندما أدارت شقيقته المفتاح ببطء كإشارة له لكي ينسحب، فنهض إذ ذاك على التو رغم أنه كان قد أوشك على أن يستغرق في النوم، وأسرع، فاندس مرة أخرى تحت الكنبه.. لكن البقاء تحتها كلفه جهدًا ملحوظًا من الضغط على نفسه؛ لكي يبقى على حالته ولو للفترة القصيرة التي يستغرقها وجود أخته بداخل حجرته فقط، حيث كانت الوجبة الضخمة قد زادت من ضخامة حجمه إلى حد ما، ولأنه كان متشنجًا حتى لم يكن قادرًا على التنفس سوى بصعوبة. ولقد دهشته نوبات خفيفة من ضيق التنفس، وكانت عيناه قد جحظتا قليلًا إلى الخارج، بينما كان يرقب المطمئنة وهي تجمع بمكنسة ليس فقط بقايا ما أكله بل

حتى الأطعمة التي لم يقربها كما لو كانت هذه الأطعمة قد أصبحت غير ذات نفع لأي كائن آخر، وجرفتها بسرعة في دلو، كانت قد غطته بغطاء من الخشب، وحملته إلى الخارج، وما كادت تدبر ظهرها حتى أخرج جريجور رأسه من تحت الكنبه وتمدد وجذب جسده خارجًا.

وعلى هذا النحو كان يطعم جريجور.. مرة في الصباح الباكر حينما يكون والداه والخادمة ما زالوا مستغرقين جميعًا في نومهم، ومرة أخرى بعد أن يتناولوا جميعًا وجبة الغذاء، حيث يغفو والداه بعدئذ إغفاءة قصيرة ويمكن إرسال الخادمة إلى الخارج في مهمة أو أخرى بتدبير شقيقته. وليس هذا بالطبع لأنهم كانوا يريدونه أن يموت جوعًا، بل ربما لأنه لم يكن في وسعهم أن يعلموا عن نظام تغذيته أكثر مما تنتهي إليه أحاديثهم، وربما أيضًا لأن شقيقته قد شاءت أن تجنبهم بقدر الإمكان مشقة مثل تلك الهموم الصغيرة، لما كانوا قد ناءوا بالفعل تحت عبء ما نزل بهم.

بأي عذر أمكنهم أن يتخلصوا من الطبيب وخدام الكوالين في ذلك الصباح الأول؟ هذا ما لم يتوصل جريجور إلى اكتشافه؛ لأنه منذ ذلك الحين لم تصدم أيًا منهم حقيقة أن الآخرين لا يفهمون ما يقوله، حتى شقيقته لم تصدمها هذه الحقيقة أنه يفهم ما يقولونه. وعلى هذا فقد كان عليه أن يقنع كلما دخلت شقيقته إلى حجرته بسماعها، وهي تطلق زفرة من حين لآخر ودعاءً عارضًا للقديسين، وفيما بعد عندما اعتادت ذلك الوضع إلى حد ما - لم يمكنها بالطبع أن تتعود تمامًا عليه - كانت تلقي أحيانًا بإحدى التعليقات التي قد تكون مقصودة أو.. قد تفسر على أنها كذلك.

قد تقول عندما يجهز جريجور تمامًا على طعامه: حسنًا، لقد أعجبه

الغذاء اليوم. وعندما لا يكون قد قارب الطعام وهذا ما أخذ يحدث أكثر فأكثر باطراد، فإنها تقول غالبًا في حزن: لقد ترك كل شيء كما هو مرة أخرى.

على الرغم من أن جريجور لم يكن يسعه أن يحصل مباشرة على الأخبار إلا أنه يستمع إلى الحجرات المجاورة، ولا تكاد ترتفع الأصوات حتى يسرع نحو باب الحجرة ملتصقًا به ضاغطًا كل جسده إليه. لم تجرئمة أحاديث تناوله بحال من الأحوال في الأيام الأولى على وجه الخصوص، ولا حتى عن طريق غير مباشر. ولمدة يومين كاملين كانت ثمة قرارات تصدر عند تجمعهم في كل وجبة كانت تتناول ما يجب عليهم عمله لكن.. هذا الموضوع كان يثار أيضًا بين الوجبات؛ ذلك أنه كان يوجد دائمًا عضوان هناك على الأقل من أعضاء الأسرة بالمنزل بما أن أحدًا منهم لم يكن يرغب في أن يبقى وحده في الشقة، ثم إنهم لم يفكروا أيضًا في مغادرتهم جميعًا في وقت معًا.

ولقد حدث في نفس اليوم الأول من تلك الأيام أن ركعت الطباخة - لم يكن محددًا مدى معلوماتها عن الحالة ولا كيف بلغت تلك المعلومات - عند قدمي والدته، ورجتها أن تسمح لها بالذهاب، وعندما رحلت بعد ذلك بربع ساعة لهجت بالشكر على طردها، بينما اغرورقت عيناها بالدموع، كأنما عرفانا بالخير العميم الذي أنعم به عليها، ودونما تريث أقسمت يمينًا مؤكدة بأنها سوف لا تتفوه مطلقًا بكلمة واحدة لأي شخص كان عما حدث.

وأصبح على أخت جريجور أن تطبخ أيضًا الآن مساعدة لوالدتها. لم

يكن المطبخ في الحقيقة أمرًا ذا بال؛ لأنهم لم يكونوا تقريبًا يأكلون أي شيء، وكان جريجور يسمع دائمًا أحد أفراد الأسرة يحاول عبثًا أن يحث الآخر على أن يأكل، إلا أنه لم يكن يتلقى ردًا سوى: شكرًا، لقد أكلت ما يزيد عن كفايتي، أو شيء من هذا القبيل. ولعلهم لم يكونوا يشربون شيئًا كذلك. وكانت أخته تلح على والدها مرة بعد أخرى تسأله إن كان يرغب في شيء من البيرة، وتعرض استعدادها عن طيب خاطر لإحضارها بنفسها، وإذا لم يحرج جوابًا باردًا على إلحاحها، اقترحت أن في إمكانها أن ترسل البواب ليحضرها وهكذا، حتى لا تعود به حينئذ حاجة إلى مواصلة الاعتذار في رقة، وإنما تنطلق «لا» مدوية صادرة عن والدها. فلا يبقى ثمة ما يقال بعد ذلك في هذا الشأن.

وضمن أحداث ذلك اليوم الأول شرح والد جريجور وضع الأسرة المالي والآمال التي يتعلقون بأذيالها لكل من والدته وشقيقته. وكان ينهض تاركًا المائدة من حين لآخر لكي يخرج إيصاليًا أو مذكرة من داخل الخزانة الحديدية الصغيرة التي كانت هي كل ما تمكن من إنقاذه وسط انهيار تجارته منذ خمس سنوات. وقد كان في استطاعة المرء أن يسمعه وهو يعالج فتح المقعد التركيب، ويسمع خشخشة الأوراق عندما ينزعها ثم.. صوت إغلاق الخزانة ثانية، ذلك التقرير الذي أعلنه والده كان هو أول تصريح سار يسمعه جريجور منذ بداية سجنه. فقد كان موقنا أنه لا شيء قد تبقى بعد من تجارة والده، فوالده لم يكن قد صرح على الأقل بشيء يفيد عكس هذا، ولم يكن هو قد سأله بالطبع صراحة في هذا الخصوص. كانت رغبة جريجور الوحيدة إذ ذاك هي أن يبذل جهد ما يستطيع؛

لكي يعين أسرته على أن تنسى بأقصى ما يسعه من السرعة تلك الكارثة التي انقضت على المتجر، وألقت بهم جميعًا في حافة اليأس المطبق. وهكذا قد نهض لكي يعمل بحماس، ولم يلبث حتى تحول من كاتب صغير إلى تاجر متحول، تناوشه بالطبع فرص أعظم لكسب المال، وسرعان ما تحول نجاحه إلى قطعة كبيرة مستديرة من العملة، أمكنه أن يضعها فوق المائدة لدهشة أسرته وسعادتها. تلك كانت أياما مجيدة بالطبع، ولن تكرر تلك الأيام. لن تتكرر على الأقل بنفس ذلك المجد، على الرغم من أن جريجور قد كسب فيما بعد الكثير من المال، حتى أصبح قادرًا على مواجهة كافة نفقات الأسرة، وقد قام بذلك. ولقد تعودت الأسرة ببساطة على هذا، كما تعود جريجور. فكان المال يُؤخذ بامتنان، ويُعطى عن طيب خاطر. لكن لم تكن ثمة فورة واحدة غير معتادة من دفء العاطفة. كان قد ظل متآلفا فقط مع شقيقته. ولقد كانت ضمن الخطط السرية فيما يختص بها -هي التي تهوى الموسيقى على عكسه، ويمكنها أن تعزف عزفا مؤثرا على الكمان- خطة إرسالها في العام التالي للدراسة في الكونسرفتوار. على الرغم من النفقات الباهظة التي تتطلبها تلك الدراسة والتي يجب تدبيرها بطريقة ما وكان ذكر الكونسرفتوار يتردد غالبًا في الأحاديث التي كانت تدور بينه وبين شقيقته في أثناء فترات زيارته القصيرة للمنزل، لكن دائمًا كمجرد حلم جميل لن يُقدَّر له أن يتحقق، ولقد كان والداه يعارضان حتى تلك الإشارات البريئة إليه، إلا أن جريجور كان قد بت في أمره بصورة قاطعة، وكان قد انتوى أن يعلن تلك الحقيقة بما يلزمها من الخطورة والأهمية في يوم عيد الميلاد.

ذلك ما كان يدور في رأسه من الأفكار العقيمة تمامًا في وضعه الرهن بينما كان قد انتصب واقفًا خلف الباب ملتصقًا به منصتًا. وكان ينصرف أحيانًا عن التسمع، وأحيانًا ما كانت رأسه تسقط في إهمال، مستندة إلى الباب لإرهاقه الشديد، إلا أنه كان يتمالك نفسه على الفور. ذلك أن أقل صوت يمكن أن يحدث ارتطام رأسه بالباب، كان من الممكن سماعه في الخارج وكان حديثهم ينقطع تمامًا إذ ذاك، وقد يقول والده بعد برهة: تُرى ما الذي يفعله هناك الآن؟ ملتفتًا بلا شك نحو الباب، وبعدئذ فقط يعود مرة أخرى إلى الاتصال تدريجيًا بما انقطع من الحديث.

كان جريجور قد علم الآن على قدر ما وسعه العلم. فلقد كان والده يميل إلى التكرار عند تفسير أي شيء تقريبًا؛ لأنه كان قد نفّس يديه من أمثال تلك الأمور منذ وقت طويل مضى؛ ولأن والدته أيضًا لم يكن في مقدورها أن تدرك الأمور على الفور.. أن قدرًا ما من المال المستمر - مبلغًا ضئيلًا حقًا للغاية - كان قد أحيا بعضًا من حطام ثروتهم، وكان قد تزايد قليلًا أيضًا لأن أرباحه لم تكن قد مست في تلك الأثناء. كما أن المال الذي يدفعه جريجور كل شهر للمنزل - لم يكن يستبقي لنفسه فقط سوى بضعة دولارات - لم يكن قد أنفق عن آخره، بالإضافة إلى هذا، ولقد كَوَّن مجموع بقاياها مبلغًا يمكن اعتباره رأسمًا صغيرًا. وخلف الباب أومأ جريجور برأسه في تشوق متلهللاً لاكتشاف هذا التدبير غير المتوقع وذلك التبصر. لقد كان في إمكانه بالفعل أن يسدد للرئيس مزيدًا من ديون والده بما يحصل عليه من المال الإضافي، وكان هذا سيعبّل حينئذ بحلول هذا اليوم الذي يتخلص فيه من وظيفته، إلا أن أسلوب والده في تدبير الأمر كان

بلا شك أفضل.

إلا أن ذلك المبلغ لم يكن بحال من الأحوال يكفي لكي تعيش الأسرة مرتكئة إليه، فربما بعد عام أو عامين على الأكثر يجدون أنفسهم مرغمين على الإنفاق من أساس المبلغ نفسه. هذا كل ما في الأمر.. لم يكن يجب أن يُمسَّ هذا المبلغ، بل كان يجب أن يبقى جانبا للأيام الحالكة أما المال اللازم لنفقات المعيشة، فكان يلزمهم أن يتكسبوه. ولقد كان والده لا يزال يتمتع بصحة كافية حتى الآن، لكنه كان عجوزًا، ولم يكن قد اضطلع بأداء أي عمل من الأعمال طوال الأعوام الخمسة الماضية، وهي أعوام التبطل الخمسة الأولى طوال حياته المليئة بالكفاح الشاق على الرغم من عدم نجاحها، حتى أنه كان قد أصبح سمينًا إلى حد ما، وأصبح متثاقلاً في حركته.

أما والده جريجور العجوز، فكيف يتسنى لها أن تتكسب خبزها وهي مريضة بالربو، الذي كان يرهقها حتى عندما تتجول في أنحاء الشقة، ويضطرها إلى الاستلقاء على الكنبه في معظم الأيام، تجاهد لاهثة لالتقاط أنفاسها إلى جوار إحدى النوافذ المفتوحة. وهل يمكن لشقيقته أن تعمل لتكسب رزقها؟ لقد كانت مجرد طفلة في السابعة عشر من عمرها، وكانت قد عاشت حياة لاهية حتى ذلك الحين، أنفقتها في الاختيال بشبابها الأنيقة والنوم الطويل، والمساعدة في شئون البيت، والخروج أحيانًا في بعض الزيارات البريئة، والعزف فوق هذا كله على الكمان.

حينئذ وعلى الرغم من كل ما تقدم ذكره من الحاجة إلى تكسب سبيل العيش، ترك جريجور الباب مبتعدًا، وألقى بنفسه فوق الكنبه الجلدية الباردة

التي بجوار الباب، وقد أحس بالسخونة اللاهبة من فرط الخجل والحزن. وغالبا ما كان يستلقي فوق تلك الكنبه طوال الليالي متقلبا فوق غطاءها الجلدي دون أن يغلبه النوم قط، أو مرهقا لنفسه بالمجهود الخارق الذي يقتضيه دفع أحد المقاعد إلى النافذة، ومن ثم ينهض متشبها بقاعدة النافذة، مستندا إلى المقعد، مائلا على زجاج النافذة في تشوق واضح إلى الحرية التي كان يتيحها له دائما التطلع من خلال النافذة؛ ذلك أن الضباب والغموض كان قد بدأ بعنف في الواقع، ويوما بعد يوم حتى تلك الأشياء التي لم يكن يهتم بالتطلع إليها ويحجبها عن رؤيته حتى المستشفى عبر الشارع الذي كان قد مل رؤيته دائما أمام عينيه كان قد أصبح الآن بعيدا عن مجال رؤيته. ولو أنه لم يكن يعرف أنه كان يقطن في شارع شارلوت وهو شارع هادئ، إلا أنه واحد من شوارع المدينة على الرغم من ذلك، لاعتقد أن نافذته إنما كانت تطل على فراغ مقفر، حيث تختلط السماء الرمادية والأرض الرمادية بعضها ببعض، ولم تكن أخته بسرعة بديتها في حاجة إلى أن تلاحظ أكثر من مرتين وجود المقعد ذي الذراعين إلى جانب النافذة، حتى تدفعه بعد كل مرة ترتب فيها حجرة جريجور في النهاية إلى نفس مكانه هناك بجوار النافذة، كما أنها كانت تترك النافذة مفتوحة أيضا على مصراعها.

لو أمكنه أن يتحدث إليها وأن يشكرها على كل مل تقوم به من أجله، فلقد كان يستطيع أن يقابل خدماتها بصورة أفضل مما يلقاها به بالفعل، ولقد كان هذا يثقل عليه، ولقد حاولت هي دون شك أن تواجه في بساطة كل المكاره التي فرضها عليها قيامها بأداء واجبها نحوه، ولقد نجحت

بالطبع في ذلك بمرور الوقت، إلا أن ذلك الوقت كان قد علم جريجور الكثير أيضًا. فلقد كان جريجور يضيق بالأسلوب الذي كانت تدخل به حجرته، فما كانت تكاد تدخلها حتى تندفع مباشرة نحو النافذة دون أن تتريث حتى لكي تغلق الباب كما اعتادت أن تفعل في عناية؛ لتحجب مرأى حجرة جريجور عن أنظار الآخرين، ومن ثم تفتح مصراعي النافذة بأصابع متعجلة كما لو كانت على وشك الاختناق، لتتوقف بعدئذ لحظة أمام تيار الهواء المطلق في برود مرير، وتردد أنفاسها عميقة مضطربة. ولقد كان اندفاعها الصاخب ذلك يكدر جريجور مرتين كل يوم، فكان يربض مرتجفا تحت الكنبه طوال الوقت متيقنا تمام اليقين من أنها قد كفته مشقة الانزعاج الذي لم تكن تتحمله قط ببقائها في وجوده بداخل الحجرة دون أن تسرع بفتح النافذة.

وفي إحدى المناسبات بعد حوالي شهر من تحول جريجور، وبعد أن لم يعد هناك ما يدعوها إلى أن تظل على فرعها عند رؤيته، كانت قد أتت مبكرة قليلاً على غير عاداتها، ووجدته محققاً من خلال زجاج النافذة في سكون تام، وقد بدا كما لو كان غولاً في هيئته تلك. ولم تكن الدهشة لتستولي على جريجور لو أنها لم تدخل الحجرة مطلقاً، ما دامت لم تتمكن فوراً من فتح النافذة، بينما كان يقف أمامها هناك، إلا أنها لم تراجع فحسب، بل قفزت راجعة كأنها واجهت خطراً، وصفقت الباب.. فانغلق في ضجة صاخبة حتى أن الغريب ما كان ليحسبه فقط إلا مستلقياً هناك في انتظارها، وقد انتوى أن ينهشها. ولقد اختبأ في الحال تحت الكنبه بالطبع، لكن كان عليه أن يبقى منتظراً حتى الظهر حتى تعاود الدخول ثانية إلى

حجرته، ولقد بدت إذاك ملهوفة على غير العادة، غاية اللهفة! ولقد أتاح له ذلك أن يدرك كم كان مرآه شنيعاً في نظرها حتى الآن، وكان مقدراً له أن يبقى على شناعته تلك.. وكم كان لا بد أن تتكبد من الجهد حتى تمنع نفسها من الفرار لرؤية ذلك الجزء الصغير من جسمه الذي كان يبرز خارجاً من تحت الكنبه، ولكي يجنبها- لهذا- رؤية ذلك الجزء من جسمه، حمل ذات يوم ملاءة على ظهره إلى الكنبه، وقد اقتضاه ذلك أربع ساعات من العمل، ثم.. نشرها فوقها بحيث تحجبه كلية حتى لا تتمكن من رؤيته، ولو اضطرت حتى إلى أن تنحني على الأرض! فهل رأت من غير الضروري نشر تلك الملاءة.. إذن لكانت قد رفعتها ثانية بالتأكيد، من فوق الكنبه، فلقد كان واضحاً بصورة كافية- أن تستر جريجور واحتجابه ذاك لم يكن ليرحبه في شيء، إلا أنها تركتها كما هي في مكانها، ولقد خيل لجريجور حتى أنه قد لمح في عينيها نظرة امتنان عندما رفع الملاءة برأسه قليلاً، في حذر، ليرى أثر ذلك الترتيب الجديد عليها!

لم يستطيع والداه أن يقدموا على دخول حجرة جريجور طوال الأسبوعين الأولين، وغالباً ما كان يسمعهما وهما يعبران عن تقديرهما لنشاط شقيقته، في حين أنهما كثيراً ما كانا من قبل قد انتهرها، لكونها في ظنهما ابنة غير ذات نفع على نحو ما، إلا أن أباه وأمه الآن غالباً ما كانا ينتظران في الخارج أمام الباب، في أثناء قيام شقيقته بترتيب حجرته، وكان عليها فور خروجها أن تنهي إليهما كيف كانت الأمور بداخل الحجرة على وجه الدقة.. ما الذي أكله جريجور، وكيف تمكن الآن من تدبير أموره، وعماً إذا لم يكن ثمة احتمال لبعض التحسن الطفيف في حالته. وسرعان

ما بدأت أمه تعلن في الحال، فوق ذلك، رغبتها في زيارته في إلحاح، إلا أن والده وشقيقته حاولا في البداية أن يصرفاها عن رغبتها تلك، بمجادلات استمع إليها جريجور بانتباه وتأيد شديدين، في وقت ما! إلا أنها اضطرتهما إلى منعها بالقوة فيما بعد. لكنها عندما هتفت صارخة: دعوني أدخل لرؤية جريجور.. إنه ابني التمس، ألا يمكنكما أن تدركا أنني يجب أن أذهب إليه؟. رأى جريجور أنه ربما كان من المستحسن أن يدعوها تدخل إليه، ليس يوميا بالطبع، لكن مرة، ربما كل أسبوع، فهي فوق كل شيء تدرك الأمور، على نحو أفضل كثيرا من إدراك شقيقته، التي لم تكن سوى طفلة، على الرغم من الجهود التي تقوم بها، والتي ربما كانت تقوم بها بدافع من مجرد طيش صبياني فحسب!.

وسرعان ما تحققت رغبة جريجور لرؤية أمه.. لم يرغب في الظهور أمام النافذة، لا لمراعاة لوالديه، بل لأنه لم يمكنه أن يزحف موعلا في التباع، خلال بضعة الياردات القليلة المربعة التي كانت في متناول حركته، والتي تشكل مساحة أرضية الحجرة الخالية، كما لم يكن ليحتمل الاستلقاء مستريحا في سكون، طوال الليل، في حين أنه بدأ يفقد بسرعة كل ما كان لديه من شهية للطعام، ولهذا فقد تعود لمجرد الرغبة في التجديد، على أن يزحف في اتجاهات متقاطعة فوق الجدران، والسقف، ولقد كان ذلك أفضل كثيرا من الاستلقاء فوق الأرض، فلقد كان في مقدور المرء أن يتنفس بحرية، كما أن جسم المرء كان يتطوح، ويترنح في خفة، وفي غاية الاستغراق الذي يتولد عن ذلك التوقع، الذي قد يسفر عن فقدانه السيطرة - لدهشته هو نفسه - وسقوطه من ثم.. مرتطما بالأرض. إلا أنه كان يسعه أن

يحكم السيطرة على جسمه على نحو أفضل - كثيرًا من ذي قبل، كما أن مثل تلك السقطة الخطرة، لم تكن لتصيبه بأي ضرر. ولقد لاحظت شقيقته تلك التسلية الجديدة التي كان جريجور قد اهتدى إليها - فلقد كان قد ترك آثارا لتلك المادة اللزجة التي تفرزها حوافره، في كل بقعة زحف فوقها - وقررت في نفسها أن تهئ له بقدر الإمكان أوسع مجال ممكن ليزحف فيه، وأن تزيل قطع الأثاث التي تعوق حركته، وفي مقدمتها صندوق الملابس، ومائدة الكتابة. إلا أن هذا العمل كان أصعب من أن تضطلع بالقيام به وحدها، ولم تجرؤ على طلب العون من والدها، أما فيما يختص بالخادمة، وهي فتاة صغيرة في السادسة عشر فقد كان لديها الجرأة لتواصل البقاء بعد رحيل الطباخة، فلم يكن يمكنها أن تطلب مساعدتها، ذلك لأنها كانت قد اشترطت - كهبة خاصة - أن يؤذن لها بإغلاق باب المطبخ عليها، وأن تفتح له دواع محددة. وعلى هذا، فلم يكن أمامها سوى أن تستدعي والدتها، حينما يكون والدها خارج المنزل، وقد لبثت السيدة العجوز تلك الدعوة في فضول مفعم بالفرح المتشوق، الذي تبدد مع ذلك عند باب حجرة جريجور، ولقد دخلت شقيقة جريجور أولاً لتطمئن على كل شيء، قبل أن تسمح لوالدته بالدخول، وفي سرعة خاطفة جذب جريجور الملاءة إلى أسفل، وطواها طيات عديدة، حتى تبدو كما لو كانت قد ألقيت بالفعل عرضاً فوق الكنبه. ولم يحملق خارجاً من تحت الكنبه، في هذه المرة، وقد زهد في الاستمتاع بمشاهدة أمه في تلك المناسبة، سعيداً فقط بمجرد دخولها حجرته! قالت لها أخته: ادخلي إنه مختبئ! وهي تسحب أمها بيدها، على ما يبدو، إلى الداخل! وكان بإمكان جريجور أن يستمع الآن

إلى جهاد المرأتين في زحزحة صندوق الملابس العتيق الثقيل من مكانه، بينما تطالب أخته بالقيام بالعبء الأكبر من المجهود، دون أن تلقي بالا إلى تحذيرات أمها، التي كان خائفة من احتمال إفراط ابنها في إرهاق قواها فوق الطاقة! ولقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً! وبعد أن مرت ربع ساعة على الأقل عليهما وهما تجذبان ذلك الصندوق، اعترضت أمه قائلة، بأنه من الأفضل أن يظل ذلك الصندوق في مكانه كما هو، لأنه -أولاً- كان ثقيلاً جداً، ولن يمكن إخراجه قبل عودة والده إلى المنزل، كما أن بقاءه على هذا النحو، في وسط الحجرة، يعوق حركة جريجور، بينما لا يبدو مؤكداً -من ناحية أخرى- أن إزالة الأثاث سيفيد جريجور في أي شيء! وقد كانت مدفوعة على عكس ذلك، إلى التفكير بأن رؤية جدران الحجرة العارية كانت قد ضغطت على قلبها، فلماذا لا يقدر لجريجور أن يحس الإحساس نفسه؟ بما أنه قد اعتاد على أثاثه تلك الفترة الطويلة، وأنه ربما أحس بالضيق تماماً بدونه.. ثم استتجت قائلة في صوت خفيض: «ثم ألا تبدو...» ولقد كانت في الحقيقة تتحدث هامسة في الأغلب، طوال الوقت، كما لو كانت تفعل ذلك؛ كي لا تتيح لجريجور -الذي لم تكن تدري في أي مكان مختبئاً على وجه التحديد- أن يسمع حتى أقل همساتها، لأنها كانت مقتنعة بأنه لن يمكنه أن يفهم معنى كلماتها: ألا تبدو كما لو كنا نوحى إليه عندما ننقل أثاثه بعيداً، بأننا قد فقدنا الأمل نهائياً في شفائه، وأنا إنما نتركه وحيداً في قسوة؟.. إنني أعتقد أنه من الأفضل أن نترك حجرتة بنفس حالتها التي كانت عليها دائماً، فإذا ما عاد إلينا ثانية كما كان، فلسوف يجد أن شيئاً لم يتغير، وسيمكنه حينئذ بسهولة أكثر أن ينسى ما حدث له في تلك الاثناء

ولقد تحقق جريجور -عند سماعه لتلك الكلمات التي قالتها أمه عن أن انتقاده لكل أشكال الحديث المباشر طوال الشهرين الماضيين، كان بالإضافة إلى اطراد الحياة العائلية الممل، لا بد قد أصابه بالتشوش العقلي، وإلا فإنه لا يمكن أن يعلل حقيقة أنه قد تطلع باهتمام تام إلى إخلاء حجرته من الأثاث. فهل يريد حقاً أن تتحول حجرته الدافئة، المجهزة على ذلك النحو المريح، بأثاث الأسرة العتيق، إلى حب خاو سوف يمكنه دون شك أن يزحف خلاله في شتى الاتجاهات دونما عائق، لكن على حساب إهدار كل ذكرى لأرضيته البشرية في نفس الوقت! لقد أوشك حقاً على أن ينسى تماماً أن صوت أمه الذي لم يكن قد سمعه منذ وقت طويل، كان هو فقط ما دفعه للعدول عن ذلك. إن شيئاً لن يخرج من حجرته، ويجب أن يبقى كل شيء كما كان من قبل، إنه لا يمكنه أن يستغني عن ذلك التأثير الطيب الذي يعكسه وجود الأثاث على إدراكه، وحتى لو عاقه الأثاث في زحفه اللاواعي عندما يدور بلا توقف، ويدور داخل الحجرة، فلن يكون ذلك عبئاً في وجوده بداخلها، بل ميزة هائلة!

إلا أن شقيقته كانت ترى -لسوء الحظ- عكس ذلك الرأي، وكانت قد أصبحت معتادة، وليس دونما سبب -أن تعتبر نفسها خبيرة في شؤون جريجور، وكأنما لمناقضة والديها، وعلى هذا فقد كانت نصيحة أمها كافية، لتجعلها تصمم ليس فقط على إزالة الصندوق ومائدة الكتابة، تبعاً لما انتوته في البداية، بل على إزالة كل ما في الحجرة، فيما عدا الكنبه التي لا غنى له عنها. ولم يكن ذلك التصميم بالطبع، مجرد نتيجة لعناد صبياني، ولا للثقة بالنفس التي كانت قد جنتها أخيراً، إلى هذا الحد غير المتوقع وفي

مقابل ذلك البذل.. بل لأنها كانت قد أدركت في الحقيقة، أن جريجور في حاجة إلى مساحة متسعة ليزحف فوقها، في حين أنه -من ناحية أخرى- لم يكن قط يستعمل ذلك الأثاث بالمرة، وهذا ما كان يبدو واضحاً! وثمة عامل آخر، ربما كان أيضاً هو ذلك المزاج المتحمس لفتاة مراهقة، ذلك المزاج الذي يندفع إلى استهلاك نفسه في كل مناسبة.. والذي أغرى جريتا أخيراً على أن تُبالغ في تجسيم الرعب الذي تعكسه ظروف شقيقتها؛ كي يتسنى لها أكثر أن تضطلع بأداء كل ما قد يتطلبه من أعباء! ففي حجرة يستقل جريجور وحده، وحتى بجدرانها العارية لم يكن سواها، ثمة من يحق له أن يضع قدميه مطلقاً!

وعلى هذا، لم تكن لتتزعزع عن تصميمها أمام والدتها، التي بدت فوق ذلك متعجلة في داخل حجرة جريجور، وغير واثقة لهذا من تماسكها.. وسرعان ما لجأت إلى الصمت، وعاونت ابنتها بأقصى ما في وسعها، لنقل الصندوق إلى الخارج. ولقد كان في مقدور جريجور أن يعيش الآن بدون الصندوق، لو اضطره الأمر إلى ذلك، لكنه كان يجب أن يحتفظ بمائدة الكتابة. وما أن فرغت المرأتان من دفع الصندوق إلى خارج حجرتها، حتى أخرج جريجور رأسه من تحت الكنبه لكي يرى كيف يسعه أن يتدخل برفق وحذر، بقدر الإمكان! لكن كانت أمه -لسوء الحظ- هي التي رجعت أولاً، تاركة جريتا تطوق الصندوق بذراعيها في الحجرة المجاورة، حيث كانت تحاول زحزحته بمفردها دون أن يتحرك أمامها -بالطبع- من مكانه. ولم تكن أمه معتادة مع ذلك على رؤيته -ربما أحزنتها رؤيته- لكن لم يسعه أن يمنع اهتزاز الملاء قليلاً من الأمام. وقد كان ذلك كافياً لجذب انتباهها،

لكنها توقفت وظلت ساكنة للحظة، ومن ثم عادت إلى جريتها.

وعلى الرغم من أن جريجور ظل يؤكد لنفسه أن شيئاً لم يكن قد وقع خلافا للعادة، وأن قليلاً فقط من قطع الأثاث كان يجري استبدالها إذ ذاك، إلا أنه كان عليه في الحال أن يقر بأن اندفاع كلتا المرأتين هنا وهناك ونداءاتها الخافتة، وأصوات جرجرة الأثاث فوق الأرض فقد كان عليه أن يعترف بأنه لم يكن ليحتملها طويلاً! كانت المرأتان تقومان بإخلاء حجرته تماماً، دافعتين بكل شيء كان قد أحبه إلى الخارج.. الصندوق الذي كان يحتفظ فيه بمنشار الحلية، وبعض الأدوات الأخرى، كان قد تم سحبه بالفعل إلى الخارج.. وكانت الآن تزيحان المائدة التي كان قد قام بأداء واجباته المنزلية فوقها عندما كان طالبا بكلية التجارة، وعندما كان تلميذا بالمدرسة الابتدائية! لم يعد لديه مزيد من الوقت لإضاعته في تقدير النوايا الطيبة لهاتين المرأتين اللتين كان قد نسى الآن وجودهما على الأغلب، فلقد كانتا متعبتين للغاية حتى أنهما كانتا تعملان في صمت، ولم يكن ليسمع فقط سوى وقع أقدامهما!.

ولهذا اندفع خارجا - كانت المرأتان تنحيان إلى مائدة الكتابة في الحجرة المجاورة، حتى تتمكنوا من التقاط أنفاسهما- ولقد غير اتجاهه أربع مرات، حيث لم يكن يدري ما الذي كان ينبغي عليه أن ينقذه أولاً، ثم.. اصطدم على الحائط المقابل الذي كان قد أصبح عارياً تماماً بالفعل خلافا لما كان يتوقعه- بصورة تلك السيدة التي كانت ترتدي كل ذلك الفراء، فزحف صاعداً نحوها على الفور، وضغط جسمه على الزجاج الذي بدا سطحه مناسباً تماماً للثبات فوقه.. وأراح بطنه الملتهبة! لن يمكن

لأحد أن يرفع تلك الصورة التي كانت تختفي تحته على الأقل! أدار وجهه ناحية الباب المؤدي إلى حجرة الجلوس، حتى يمكنه أن يرقب المرأتين عند عودتهما!

لم تسمحا لنفسيهما بفترة طويلة من الراحة، بل رجعتا لتوهما، وكانت جريتا قد لفت ذراعها حول أمها، تسندها، قائلة وهي تلتفت حولها: حسناً ما الذي سوف نأخذه الآن؟ فالتقت عينها بجريجور فوق الحائط إلا أنها احتفظت بهدوئها.. ربما من أجل والدتها، وأحت رأسها نحو أمها إلى أسفل، حتى تبعدها عن التطلع إلى أعلى، ثم قالت في غير تكلف، على الرغم من اضطراب صوتها: هيا، أليس من الأفضل أن نعود إلى حجرة الجلوس. كانت نواياها واضحة غاية الوضوح بالنسبة لجريجور، فلقد أرادت أن تشيع أمها إلى الداخل بسلام، ومن ثم تطارده، لكي يهبط من على الحائط: حسناً، دعها تفعل ذلك! فلقد تعلق بصورته، ولن يتركها، ولسوف يطير مندفعاً في وجه جريتا.

إلا أن كلمات جريتا كانت قد نجحت في إزعاج أمها التي كانت قد انحرفت خطوة إلى جانب، ولمحت الكتلة البنية الضخمة، فوق ورق الحائط المنقوش بالزهور، وقبل أن تعي حقاً أن ما رأيته كان هو جريجور، صاحت في صوت خشن مدوّ: آه يا إلهي، يا إلهي! وتهاوت مفرودة الذراعين فوق الكنبه كما لو كانت أسلمت الروح. ولم تحرك ساكناً!

صاحت شقيقته، وهي تهز قبضتها متطلعة نحوه: جريجور! كانت هذه المرة الأولى التي خاطبته فيها مباشرة، منذ تحوله، واندفعت إلى داخل الحجرة المجاورة بحثاً عن إحدى زجاجات العطور؛ لكي تساعد أمها على

أن تفيق من إغمائها، ورغب جريجور كذلك في تقديم المساعدة، فلقد كانت هناك ثمة فسحة من الوقت لإنقاذ الصورة، لكنه كان ملتصقاً جداً بالصورة، وكان عليه أن ينزع نفسه منها انتزاعاً، ومن ثم اندفع يعدو خلف شقيقته إلى داخل الحجرة الأخرى، كما لو كان يمكنه أن ينصحها بما ينبغي عليها عمله، وكانت قد بحثت في تلك الأثناء بين عديد من الزجاجات الصغيرة، وعندما استدارت خلفها اضطربت في فزع عند رؤيته، وسقطت إحدى الزجاجات من يدها، وتحطمت فوق الأرض، وجرحت إحدى الشظايا وجه جريجور، وطرطشت فوقه قطرات من مادة طبية قارضة، وجمعت جريتا كل الزجاجات التي تمكنت من حملها، وأسرعت بها إلى أمها دون أن تترث لحظة واحدة، ثم دفعت الباب بقدمها، فانصفق بفرقة مدوية، وأصبح جريجور الآن معزولاً عن أمه، التي ربما كانت توشك الآن على الموت بسببه، إلا أنه لم يجرؤ على فتح الباب خوفاً من إفزع شقيقته التي كان عليها أن تبقى إلى جوار أمها، ولم يكن أمامه أي شيء آخر ليفعله سوى الانتظار متكدراً بسبب تأنيبه لنفسه، وقد بدأ - لخوفه - يزحف هنا وهناك فوق كل شيء.. فوق الجدران والأثاث والسقف، وفي غمرة يأسه أخيراً عندما أخذت الحجرة بكاملها تدور حوله، سقط منحطاً في وسط المائدة الكبيرة.

وانقضت فترة قصيرة من الوقت، وكان جريجور لا يزال مستلقياً هناك في وهن، بينما كان الهدوء يلف كل شيء حوله. وربما كان هذا فألاً حسناً. ثم دق جرس الباب وكانت الخادمة بالطبع محبوسة في داخل المطبخ المغلق عليها. وكان على جريتا أن تفتح الباب. كان والده هو القادم.

وكانت الكلمات الأولى التي تفوه بها هي: ما الذي حدث؟ فلا بد أن وجه جريتا كان قد أوضح له كل شيء!

وأجابته جريتا في صوت خفيض، مخبئة رأسها لا شك في صدره: كان قد أغمى على أمي، ولكنها تحسنت الآن!.. وقد شرد جريجور خارجاً من حجرته!

فقال والده: هذا بالضبط هو ما توقعته.. هذا هو ما كنت أقوله لك بالضبط. إلا أنك لا تستمعن إلى شيء، أيتها النسوة! بدا واضحا لجريجور أن والده كان قد تلقى أسوأ تفسير من تقرير جريتا المقتضب للغاية، وتوهم أن جريجور قد أذنب بارتكابه جرماً رهيباً، لهذا يجب على جريجور أن يحاول استعطاف والده بما أنه لا يتيسر له الوقت، وهي الوسيلة لمحاولة شرح الأمر! وعلى هذا فقد انطلق هارباً نحو باب حجرته، ثم ربض أمامه، لكي يتيح لوأله أن يرى عندما يدخل قادماً من الصالة أن لدى ابنه نية طيبة للدخول ثانية إلى حجرته على الفور وأنه من غير الضروري دفعه على الدخول مرغماً.. ولو أن الباب فقط كان مفتوحاً لكان قد اختفى إذن لتوه!

إلا أن والده لم يكن في حالة يمكنه فيها إدراك مثل تلك التوضيحات، بل صاح قائلاً فور ظهوره، في صوت بدأ الغضب في زمته والانتصار معاً لأول وهلة: آه.. فحسب المسلم به أنه كان قد استغرق للغاية أخيراً في تسليته الجديدة، في الزحف فوق الجدران، فلم يعد لديه نفس الاهتمام السابق بما كان يحدث في أي مكان آخر من الشقة، ويجب عليه حقاً أن يعد نفسه لمواجهة بعض التغييرات. لكن على الرغم من هذا كله، هل يمكنه أن يكون هذا هو أبوه؟ ذلك الرجل الذي اعتاد أن يستلقي في سأم، غارقاً في

الفراش عندما كان جريجور يخرج في إحدى رحلات عمله، والذي كان يستقبله عند عودته ليلاً مستلقياً فوق مقعد مستطيل، مرتدياً روبه المنزلي، والذي لم يكن يمكنه بالفعل أن ينهض على قدميه، وإنما يرفع ذراعيه فقط للتحية، والذي كان إذا خرج في بعض المناسبات النادرة مع أسرته مرة أو مرتين في العام.. في أيام الآحاد.. في مناسبات الأعياد، سار بين جريجور وبين أمه، اللذين كانا يسيران في بطء على نحو ما- أكثر بطئاً حتى من سيرهما ذاك البطيء وقد ارتدى معطفه العتيق، دافعاً نفسه إلى الأمام بمجهود، مستنداً إلى عصاه ذات المقبض الملتوي، التي كان يتلمس بها الأرض في حذر عند كل خطوة، والذي حينما كان يريد أن يقول شيئاً ما، توقف تماماً عن السير وجمع حراسه من حوله؟ لقد كان يقف هناك الآن في هيئة ثابتة مرتدياً بدلة أنيقة زرقاء اللون ذات أزوار مذهبة، كتلك التي يلبسها سعاة البنوك، وقد انتفخت ذقنه القوية المقسمة إلى شطرين فوق ياقة سترته العالية المنشأة، وتحت حاجبيه المنفوشين تلمع عيناه السوداوان في يقظة، ونظرات نافذة وشعره الأبيض الذي كان أشعث ذات مرة، كان ممشطاً الآن، منبسطاً على جانبي مفرق يتألق مستقيماً في عناية. وخلع الكاب الذي يحمل شارة مذهبة- ربما كانت شارة أحد البنوك- طوحه في رمية واسعة عبر الحجرة كلها.. إلى الكنية، وبأطراف أذبال سترته الملقاة خلفه، ويدها غارقتان في جيبي سرواله، تقدم نحو جريجور بوجه متجههم، وقد كان واضحاً للغاية أنه لم يكن يدري هو نفسه ما الذي كان ينوي أن يفعله، ورفع قدمه مع ذلك إلى أعلى، على نحو غير عادي، وكان جريجور مندهشاً لضخامة كعبي حذائه.. إلا أن جريجور لم يجرو

على أن يخاطر بمواصلة الوقوف أمامه، مدركا، كما أدرك منذ اليوم الأول في حياته الجديدة، أن والده كان معتقدا فقط أن الأساليب الخشنة هي ما يلزم للتعامل معه. وعلى هذا، فقد انطلق يجرى أمام والده.. ويتوقف عندما يقف، ويندفع إلى الأمام ثانية عندما يشعر بأية حركة تند عن والده، وبهذه الطريقة دارا في داخل الحجرة عدة دورات دون أن ينتهي ذلك إلى نهاية حاسمة. ولم تكن العملية كلها في الحقيقة تبدو في صورة مطاردة؛ لأنها كانت قد تمت بغاية البطء! وهكذا لم يغادر جريجور الأرض، لأنه كان قد خشي أن يعتبر أبوه أية جولة له على الجدران، أو فوق السقف، شرا لعينا، إلا أنه في نفس الوقت لم يحتمل مواصلة ذلك الشوط إلى أبعد من ذلك؛ لأنه بينما كان أبوه يخطو خطوة واحدة كان هو يقوم في مقابلها بسلسلة كاملة من التحركات! وكان قد بدأ يشعر الآن بتقطع أنفاسه تماما كما لم تكن رثاه تقومون بنشاطهما تلقائيا، في حياته السابقة. بينما كان مندفعاً إلى الأمام، محاولاً أن يركز طاقته كلها في الجري، فاتحا عينيه في صعوبة، لم يكن جريجور ليفكر في أي مهرّب آخر أكثر من مجرد التقدم إلى الأمام، ولما كان قد أوشك غالباً على أن ينسى، أن في مقدوره أن يتحرك فوق الجدران، التي كانت قد انقسمت في تلك الغرفة إلى قطع من الأثاث منحوتة في فخامة، وممتلئة بالعقد والفجوات، استقر شيء ما فجأة مرتطما بالأرض إلى جواره، وتدحرج أمامه! كانت تفاحة.. وتبعثها تفاحة أخرى على الفور! وتوقف جريجور في ذعر! لم يكن ثمة سبيل الآن لمواصلة الجري إلى الأمام؛ لأن والده كان قد صمم على إطلاق تلك القذائف نحوه! كان قد ملأ جيوبه بتلك الثمار من أحد الأطباق الممتلئة فوق البوفيه، وراح

الآن يسدد التفاحة بعد الأخرى دون أدنى اهتمام بإحكام التسديد في حينه، وتدحرجت التفاحات الصغيرة الحمراء، كما لو كانت كل منها مشدودة بمغناطيس ومسددة نحو الأخرى.. وتدحرجت تفاحة لم تكن قد سددت بقوة كافية، فوق ظهر جريجور، ثم انزلت دون أن تلحق به أي أذى إلا أن واحدة أخرى تبعتها على الفور، استقرت في ظهره وغاصت فيه، وأراد جريجور أن يجر نفسه إلى الأمام، كما لو كان في الإمكان ترك ذلك الألم المفزع، الذي لا يحتمل خلفه، لكنه أحس به في البقعة نفسها، كما لو كان قد ثبت فيها مسامير.. ومدد جسمه وتعطلت حواسه كلها.

وبآخر نظرة أمكنه أن يعيها، رأى باب حجرته وقد انفتح، واندفعت أمه خارجة منها، وخلفها شقيقته تطلق صرخاتها- في قميصها الداخلي - لأن ابنتها كانت قد خلعت عنها ملابسها، حتى يسهل عليها التنفس بسهولة أكثر، ويمكنها أن تفيق من إغمائها! رأى أمه تندفع متجهة نحو والده.. واحتضنته، متحدة به في وحدة كاملة- إلا أن عيني جريجور أطرقتا عند هذا الحد نحو الأرض- ويدها تلتفتان حول عنق والده، كما لو كانت تستعطفه أن يبقى على حياة ابنها!

بدأت الإصابة التي أصابت جريجور خطيرة، وأقعدته عن الحركة لأكثر من شهر - فقد كانت التفاحة قد انغrust في جسمه كذكرى مرئية.. طالما أن أحداً لم يغامر بإزالتها، وكأنها قد دفعت حتى والده نفسه إلى أن يتذكر أن جريجور كان واحداً من أفراد الأسرة، على الرغم من تعاسته الراهنة، وهيئته البشعة، ولا تجب معاملته باعتباره عدواً، وأن واجب الأسرة، على العكس من ذلك يقتضيها نبذ القرف، ومعالجة الصبر ولا شيء غير الصبر.

وعلى الرغم من أن إصابته تلك كانت قد شلت قواه عن الحركة - ربما إلى الأبد- وأصبح زحفه عبر حجرته بمرور الوقت، يستغرقه دقائق طويلة، وكأنه جريح عجوز -ولم يعد ثمة مجال الآن للتساؤل عن الزحف فوق الجدران- لأنه كان يرى أنه قد استعاض، إلى حد كاف، عن ذلك الضرر الذي ألم به، بحقيقة أن باب حجرة الجلوس - الذي كان قد اعتاد على مراقبته باعتباره لمدة ساعة أو ساعتين مقدما- كان يترك مفتوحا دائما كل ساعة، حتى كان يمكنه- بينما كان يستلقي مختبئا عن الأنظار وسط ظلام حجرته- أن يراهم جميعا بجوار المائدة، التي كانت تستقر فوقها لمبة مضاءة، وأن يستمع إلى حديثهم بغاية الرضا؛ لأنه كان يختلف تماما عما كان قد تسمع إليه منهم من قبل، من أحاديث.

كان حديثهم يفتقر حقا إلى طابع الحياة الذي كان يطبعه في الأوقات السابقة، والذي كان يتذكره دائما في شوق زائد، في حجرات نوم الفنادق الضيقة، التي كان يتردد عليها ليستلقي مرهقا فوق الأسرة الرطبة، وكانوا يلجأون في أغلب الأحيان إلى الصمت، وسرعان ما كان والده يستغرق نائما في مقعده ذي المسند، وكانت والدته وشقيقته تنبهان بعضهما إلى التزام الصمت. وقد كانت والدته تنحني نحو اللبة.. منكبة على بعض أشغال التطريز الفاخرة لأحد محلات بيع الملابس الداخلية، أما شقيقته التي كانت قد حصلت على وظيفة بائعة في أحد المحلات فقد كانت تدرس الاختزال واللغة الفرنسية في أثناء تلك الأمسيات، كمحاولة لتحسين وضعها، وكان والده يستيقظ أحيانا.. فيقول لوالدته، متجاهلا تماما أنه كان نائما: يا للكمية الهائلة من التطريز التي أنجزتها اليوم! ومن

ثم يستغرق ثانية في النعاس مرة أخرى على الفور، بينما تتبادل المرأتان ابتسامة متعبة.

وكان والده قد تشبث في نوع من العناد بالبقاء مرتديا زي العمل حتى في داخل المنزل. وظل روبه المنزلي معلقا بإهمال فوق شماغته. وكان ينام بملابسه كاملة حيث كان يجلس كما لو كان على أتم استعداد في أية لحظة حتى وهو في منزله إلى تلبية إشارة أو نداء من رئيسه. وكتيجة لذلك، بدأ زيه الذي لم يكن قد تسلمه جديدا تمامًا عند بدء عمله في الاتساخ، على الرغم من العناية الزائدة التي كانت توليه إياها الأم والأخت.. حتى يظل نظيفًا. وكان جريجور ينفق الأمسيات الطويلة محققا في بقع الشحم العديدة التي كانت تتناثر على ذلك الرداء الذي تلمع فوقه الأزرار المذهبة دائمًا في غاية اللمعان، والذي يرتديه الرجل العجوز في أثناء نومه مرهقا للغاية، لكن في سلام تام.

وعندما دقت الساعة معلنة العاشرة، حاولت أمه أن توقظ أباه ببعض الكلمات الرقيقة، وأن تدفعه بعد ذلك إلى الذهاب إلى فراشه. فلم يكن ليرتاح في نومه وفي جلسته تلك فوق المقعد وقد كان النوم المريح هو كل ما يحتاجه. حيث كان يذهب إلى عمله في الساعة السادسة صباحا.. إلا أنه كان يصبر بالعناد- الذي كان قد استولى عليه منذ أن أصبح ساعيا بالبنك- على البقاء أطول مدة ممكنة بجوار المائدة، على الرغم من أنه كان يغرق ثانية في النعاس عادة، وفي النهاية وبعد أقصى إلحاح ممكن كان ينهض من على المقعد ذي المساند ويتجه نحو فراشه.

ومهما كانت أمه وشقيقته تلحان على ملاحظته باستعجالتهما الرقيقة،

فقد كان يهز رأسه ما يقرب من ربع الساعة مغلقا عينيه رافضا النهوض على قدميه. وكانت الأم تجذبه من كمه، هامسة في أذنه بتردد. وكانت الأخت تترك دروسها لتعاون أمها في مهمتها تلك. إلا أن والد جريجور لم يكن ليستجيب. بل كان يهبط غاطسا في مقعده أكثر من ذي قبل. ولم يكن ليفتح عينيه حتى ترفعه المرأتان من تحت إبطيه فينظر إليهما واحدة بعد الأخرى معلقا عادة بقوله: هذه هي حياتي.. وتلك هي سكينه وهدوء شيخوختي! ومن ثم ينهض متساندا عليهما في ثاقل كما لو كان عبئا ثقيلا بالنسبة لنفسه. ويدفعهما إلى أن توصلاه حتى الباب. وحينئذ يدفعهما بعيدا عنه ليواصل السير وحده. بينما كانت الأم تترك إبر تطريزها وكانت الابنة تترك قلمها لتلحقا به، وتسنداه ثانية.

فمن أفراد تلك الأسرة المكافحة المرهقة كان يجد الوقت ليهتم بشئون جريجور، أكثر مما تتطلبه الضرورة القصوى؟ كان الاهتمام بشئون المنزل قد هبط أكثر فأكثر. وكانت الخادمة قد رحلت. وكانت تحضر في الصباح وفي المساء غسالة ضخمة شرسة يتطاير شعرها الأبيض حول رأسها للقيام بالأعمال المنزلية المرهقة، وكانت والد جريجور تقوم بأداء كل شيء آخر بالإضافة إلى الأكوام الهائلة من أعمال التطريز. أما حُلَيّ الأسرة ومقتنياتها جميعا، تلك التي اعتادت أمه وشقيقته أن ترتديها بخيلاء في الحفلات والسهرات، فكان عليها أن تباع. كما اكتشف جريجور ذات مساء عندما سمعهم جميعا يتناقشون حول الأثمان التي كانوا ينتظرونها. إلا أن أشد ما كان يسخطهم، هي حقيقة أنهم لم يكن يمكنهم إخلاء الشقة التي كانت قد أصبحت متسعة الآن جدا، بالنسبة لظروفهم الراهنة لأنهم لم

يكن يمكنهم أن يهتدوا إلى وسيلة ينقلون بها جريجور.

مع أن جريجور كان يرى بوضوح تام، أن ما يتعلق به من اعتبارات لم يكن هو اللعبة الأساسية التي تمنعهم من الانتقال. لأنه كان يمكنهم بسهولة أن يعوقهم حقيقة عن الانتقال إلى شقة أخرى. فقد كان تقريباً هو يأسهم التام، اعتقادهم أن الأقدار قد اختصتهم بمصيبة، لن يحدث لها مثل قط لأي من أقربائهم أو معارفهم. فلقد كانوا قد بلغوا أقصى ما يمكن أن تبلغه الرؤساء من الناس تحت ضغط الأقدار. كان الأب يحضر الفطور لصغار الكتبة في البنك. وكانت الأم قد نذرت كل قواها في تطريز الملابس للغرباء، أما الأخت فكانت تتراكم هنا وهناك خلف منضدة البيع، تلبية لرغبة الزبائن. أما ما عدا ذلك فلم يكن لديهم من الجهد ما يغريهم على أدائه. وكان الجرح الذي في ظهر جريجور قد بدأ يؤلمه من جديد حينما كانت أمه وشقيقته، بعد أن رافقتا والده إلى الفراش، وقد عادتا ثانية وتركتا عملهما واقتربتا من بعضهما وجلستا متلاقيتين.. ثم أشارت والدته عندئذ إلى حجرته قائلة: أغلقي ذلك الباب يا جريتا.. وغرق جريجور ثانية في ظلام حجرته، بينما اختلطت دموع المرأتين في الحجرة الأخرى، أو لعلهما جلستا بلا دموع تحدقان في المائدة!

وأصبح من النادر أن ينام جريجور بطول الليل أو النهار، وكانت تستبد به على الأغلب فكرة أنه ما إن يفتح الباب ثانية، حتى ينهض للقيام بكل أعباء الأسرة مرة أخرى. كما اعتاد أن يفعل من قبل. وظهر شبح الرئيس والباشكاتب في مخيلته مرة أخرى بعد تلك الفترة الطويلة والتجار المتجولون والمستخدمون.. والعمال الذين بدوا بذلك الحمق.. واثنان أو

ثلاثة من أصدقائه الذين يعملون في مؤسسات أخرى. وخادمة في إحدى الفنادق الريفية ذكرى جميلة عابرة. وعاملة خزينة في أحد محال بيع القبعات، كان قد تودد إليها بإخلاص. لكن بغاية البطء ظهر كل هؤلاء. وبالإضافة إليهم غرباء أو أناس كان قد نسيهم تمامًا، إلا أنهم جميعًا بدلًا من أن يساعدوه أو يعينوا أسرته لم يعثر المرء على أي أثر لهم قط. ولقد كان سعيدًا باختفائهم. وفي أحيان أخرى، لم تكن حالته تسمح له بالتفكير في أسرته. وإنما كان مفعماً فقط بالغضب لإهمالهم له إلى ذلك الحد.. وعلى الرغم من أنه لم يكن لديه فكرة محددة عما كان يمكن أن يأكله، فقد كان يفكر في الدخول إلى حجرة الكرار ليحصل على الطعام الذي كان فوق كل شيء حقًا مشروعًا له، حتى ولو لم يكن جائعًا. ولم تلبث شقيقته حتى اهتمت بأن تحضر له ما كان يرضيه. لكن فقط في الصباح، أمّا في المساء فقد كانت تدفع بقدمها قبل أن تذهب إلى عملها. كانت ترفع بقاياها في المساء، بضربة واحدة من المكنسة غير عابئة بما إذا كان الطعام قد راق له. إنه - كما كان يحدث في أغلب الأحيان - قد ظل كما هو دون أن يهتمس. لم يكن لتنظيف حجراته الذي كانت تقوم بأدائه في المساء أن يتم بصورة أسرع مما كانت تؤديه بها. وكانت لطشات من القذارة قد امتدت على طول الجدران وكانت تتناثر هنا وهناك كتل من الأتربة والقذارة، وكان جريجور قد اعتاد في بداية الأمر أن يقع في أحد الأركان والقذارة عندما تدخل شقيقته حتى يلومها في قرارته على ما يبدو، إلا أنه ظل قابعا هناك في ركنه ذاك لعدة أسابيع دون أن يتمكن من أن يدفعها إلى القيام بتنظيفه، وكان في وسعها أن ترى الأتربة كمان كان يراها. إلا أنها ببساطة قررت أن

تركها على حالها. لكنها دافعت في حماس في الوقت نفسه عن حقها، في أن تنفرد برعاية شئون جريجور، في حساسية كانت جديدة عليها. وكانت تبدو كما لو كانت قد انتقلت عدواها إلى باقي الأسرة، وكانت أمه قد قامت في إحدى المرات لتنظيف حجرته تنظيفاً شاملاً. وقد استخدمت لذلك عدة جرادل من الماء، وقد ضايق تلك الرطوبة كلها جريجور بالطبع هو أيضاً فاستلقى متمدداً في استياء دون حراك فوق الكنبه - إلا أنها نالت عقابها على ما جنت يداها. فما إن لمحت شقيقته منظر حجرته المتغير في تلك الليلة، حتى اندفعت محنقة غاية الحنق إلى حجرة الجلوس. وعلى الرغم من ذراعي أمها المرفوعتين في توسل انفجرت في عاصفة من البكاء.. بينما تطلع والدها.. قام والدها في فزع بالطبع ناهضاً من فوق مقعده في حيرة عاجزة في بداية الأمر، ثم خرجا عن الصمت أخيراً فلام الأب الأم إلى يمينه لعدم تركها تنظيف حجرة جريجور لشقيقته. وصرخ في الأخت على يساره بأنه ليس لها بعد الآن أن تقوم بتنظيف حجرة جريجور.

بينما حاولت الأم أن تجذب الأب إلى حجرة نومه بما أنه كان متجهماً فوق طاقتة. وكانت الأخت تنشج بشهقاتها، ثم راحت تدق المائدة بقبضتيها الصغيرتين. وأطلق جريجور صفيراً مرتفعاً معلناً غضبه؛ لأن أحداً منهم لم يفكر في إغلاق الباب حتى يجنبه رؤية مثل ذلك المشهد وتلك الضجة الهائلة.

ولم تعد هناك حاجة بعد ذلك إلى تدخل الأم، حتى بعد أن تعبت الأخت من مواصلة العناية بجريجور لإرهاق قواها في عملها اليومي. كما لم يعد ما يدعو إلى إهمال جريجور تماماً؛ فلقد كانت الغسالة هناك

تلك الأرملة العجوز التي ساعدتها بنيتها الضخمة المتينة على أن تبعث في جريجور أسوأ ما أمكنها أن تبعثه فيه إلى الحياة. كانت قد فتحت باب حجرته ذات مرة دون قصد.. وعند رؤيتها لجريجور الذي اندفع مضطرباً هنا وهناك لمفاجأته رغم أن أحداً لم يكن يطارده، توقفت فحسب في مكانها عاقدة ذراعيها، ومنذ ذلك الحين لم تترك مناسبة لفتح حجرته قليلاً لمدة دقيقة في الصباح وفي المساء لتلقي نظرة عليه. وكانت قد اعتادت في البداية أن تناديه بكلمات ربما كانت تظنها ودية.. كقولها له: والآن تعال هنا يا خنفس الفضلات العجوز! أو انظروا الآن إلى خنفس الفضلات العجوز!. لم يكن جريجور يستجيب مطلقاً لمثل تلك النداءات، وإنما كان يظل قابعا في مكانه بلا حراك. كما لو لم يكن الباب قد فتح بالمرة. ربما كان عليهم أن يأمرؤا تلك الغسالة بتنظيف حجرته يومياً، بدلاً من السماح لها بإزعاجه باستهتار إلى ذلك الحد كلما راق لها أن تفعل. وذات مرة في الصباح الباكر -وكانت الأمطار الغزيرة تصفع زجاج النافذة ربما إيذاناً بقرب حلول الربيع- كان جريجور ساخطاً غاية السخط، حتى أنه اندفع نحوها. كما لو كان ينوي مهاجمتها. على الرغم من بطء حركته، وعجزه الشديد. عندما بدأت تخاطبه ثانية على ذلك النحو، لكن بدلاً من أن يبدو الخوف على الغسالة.. كانت فقط قد رفعت مقعداً تصادف وجوده بجوار الباب. وكان واضحاً، عندما انتصبت هناك بفمها المغمور على اتساعه، أنها لم تكن تنوى إغلاق الباب إلا بعد أن ينزل المقعد فوق ظهر جريجور تساءلت قائلة له: أنت إذن لن تقترب؟.. بينما كان جريجور قد استدار مبتعداً، فوضعت المقعد ثانية بهدوء في أحد الأركان.

لم يعد جريجور يأكل الآن أي شيء تقريباً. وحينما كان يمر فقط بجوار الطعام الذي كان يوضع من أجله.. كان يتناول جزءاً صغيراً من أي شيء على سبيل التسلية، فيبقى في فمه حوالي الساعة. ثم يبصقه مرة أخرى عادة، وكان قد ظن في بداية الأمر أن حزنه على سوء حال حجرته هو ما كان يمنعه عن الطعام، إلا أنه سرعان ما اعتاد كل ما كان يطرأ على حجرته، قد اكتظت أخيراً بالعديد من هذه الأشياء. حيث كانت إحدى الحجرات قد أخليت لثلاثة من السكان.

وقد كان لدى هؤلاء الشبان الثلاثة الجادين - كان ثلاثتهم ذوى لحى كثيفة، كما لاحظ جريجور من خلال شقوق الباب - ولع شديد بالنظام لا في داخل حجرتهم فقط، وإنما في كل مكان بالمنزل. طالما أنهم قد أصبحوا الآن من سكانه وخاصة في داخل المطبخ. وقد استغنوا عن عديد من الأشياء - لا لقدارتها - بل لأنهم لم يكونوا يحتملون وجودها بداخله، كما أنهم كانوا علاوة على ذلك قد أحضروا معهم بعض الأثاث الذي كانوا بحاجة إليه. ولهذا السبب أمكن الاستغناء عن عديد من الأشياء التي لم تكن ذات نفع حتى يمكن بيعها، ولم تكن لتلقى بعيداً أيضاً. ولقد وجدت كل تلك الأشياء طريقها بالطبع إلى حجرة جريجور، كما وجدت صفيحة الرماد، وكذلك صفيحة القمامة هي أيضاً طريقها إلى حجرته. وكل ما لم يكن يلزم استعماله في حينه. كانت الغسالة التي كانت تؤدي كل شيء في سرعة بالغة تطوح به ببساطة إلى داخل حجرة جريجور. إلا أن جريجور لحسن حظه لم يكن يرى فقط سوى الأشياء التي كانت تطوحها إلى داخل حجرته ويدها التي كانت تطوح بها تلك الأشياء فقط. وربما كانت قد

انتوت أن تخرج كل تلك الأشياء ثانية عندما تسمح الفرصة والوقت، أو ربما كانت تجمعها في كومة، حتى تُلقِي بها في النهاية إلى الخارج.

إلا أن تلك الأشياء بقيت فقط في الحقيقة حيث اتفق أن ألقتها الغسالة، إلا عندما كان جريجور يشق لنفسه طريقا وسط أكوام تلك البقايا.. فيبعثرها على نحو ما، مضطرا في بداية الأمر، حيث لم يكن أمامه متسع من الفراغ لكي يزحف فيه، ثم بسعادة متزايدة فيما بعد، على الرغم من أنه كان يشعر بالحزن بعد تلك الرياضة فكان يتمدد بلا حراك، متعبا لدرجة الموت، عدة ساعات.

ولما كان السكان الجدد غالبًا ما يتناولون عشاءهم بالمنزل في حجرة الجلوس المعهودة نفسها، فقد ظل باب الحجرة مغلقا دائما كل مساء، إلا أن جريجور كان قد اعتاد بسهولة تامة على إغلاق الباب، حتى أنه عندما كان يفتح في كثير من الأحيان في بعض الليالي لم يكن جريجور يلحظ ذلك مطلقا. وكان يبقى متمددا في مكانه، في أقصى ركن مظلم من حجراته مختبئا تماما عن أنظار الأسرة.

إلا أن الغسالة، تركت الباب مفتوحا قليلا ذات مرة، وظل الباب موروبًا على ذلك النحو، حتى بعد أن أُضيء المصباح، وقدم السكان الثلاثة لتناول العشاء. كانوا قد جلسوا عند رأس المائدة، حيث كان يجلس جريجور ووالده وأمه في الماضي لتناول وجباتهم. فرد كل منهم فوطته، وأمسك بالشوكة والسكين، وظهرت أمه في الحال في مدخل الباب المقابل، وبين يديها طبق ممتلئ باللحم، وخلفها مباشرة شقيقته تحمل طبقا ممتلئا بكومة عالية من البطاطس. كان البخار الكثيف يتصاعد من الطعام. وانحنى

السكان على الطعام الذي وُضع أمامهم، كما لو كانوا يتفحصونه قبل أن يشرعوا في تناوله. وقطع الرجل الذي كان يتوسطهم، والذي كان يبدو مسيطراً على رفيقيه الآخرين إلى حد ما، قطعة صغيرة من اللحم الموضوع أمامه في الطبق، ليرى إن كان قد تم نضجه أم يجب أن يعود إلى المطبخ مرة أخرى.. ولقد أبدى ارتياحه. وتنفست والدته جريجور وشقيقته - اللتان كانتا ترقبانه قلقتين - في ارتياح وشرعتا بتسيمان.

كانت الأسرة نفسها تتناول وجباتها في المطبخ، وعند دخول والد جريجور إلى حجرة الجلوس، قبل أن يتجه إلى المطبخ، كان يدور حول المائدة، في انحناء طويلة، والكاب في يده.. فكان السكان الثلاثة يقفون مهمهمين بشيء ما، في داخل لحاهم. وعندما يخلون ثانية إلى أنفسهم، كانوا يلتهمون طعامهم في صمت تام، وقد بدا واضحاً لجريجور - من بين الأصوات العديدة التي كانت تصدر عن المائدة - أنه كان يميز صوت أسنانهم أثناء مضغ الطعام، كما لو كان هذا إشارة لجريجور بأن المرء بحاجة إلى الأسنان، حتى يمكنه أن يتناول طعامه، وأن الفكين - مهما بلغت قوتهما لا يفيدان شيئاً - بلا أسنان.

قال جريجور لنفسه في حزن: إنني جائع للغاية، لكن ليس هذا هو الطعام الذي أريده، كيف يملأ هؤلاء السكان بطونهم، بينما أكاد أنا أتضور هنا جوعاً؟.

في ذلك المساء، لم يكن جريجور يذكر طوال فترة وجوده هناك في داخل حجرته أنه قد استمع قط إلى صوت الكمان، انبعث صوت العزف على الكمان صادراً من المطبخ، وكان السكان قد فرغوا للتو من تناول العشاء.

وأحضر الرجل الأوسط إحدى الصحف، وأعطى واحدة من أوراقها لكل من الساكنين الآخرين. وقد كانوا يضطجعون الآن على ظهورهم بارتياح.. يقرأون، ويدخنون. عندما بدأ العزف على الكمان أرهفوا أسماعهم، وهبوا واقفين على أقدامهم، ثم تسربوا على أطراف أصابعهم إلى الباب المؤدي إلى الردهة، حيث توقفوا متلاصقين بعضهم ببعض. ولا بد أن حركتهم كانت مسموعة داخل المطبخ؛ لأن والد جريجور كان قد صاح قائلاً: هل أزعجكم صوت العزف على الكمان، يا أيها السادة؟. يمكننا أن نوقفه على الفور. فرد الساكن الأوسط قائلاً: يمكننا ذلك بالتأكيد، كما لو كان هو نفسه عازف الكمان. وعاد السكان الثلاثة إلى حجرة الجلوس، وجلسوا في الانتظار، ووصل والد جريجور ومعه حامل النوتة، والنوتة في يد الأم، والكمان تحمله شقيقته. وأعدت شقيقته كل شيء في هدوء للبدء في العزف. ولم يخاطر والداه اللذان لم يسبق لهما من قبل تأجير غرفهما.. فكانت لديهما لهذا فكرة متضخمة من المجاملة اللاتقة بالسكان، لم يخاطر والداه بالجلوس لهذا في مقعديهما الخصوصيين، بل استند والده بظهره إلى الباب. وقد دس يده اليمنى بين زرارين من أزرار سترة عمله، التي كان قد زررها بطريقة رسمية محكمة. وتقبلت والدته مقعدا.. قدمه إليها أحد السكان. ولما كانت قد تركت المقعد كما هو حيث تصادف أن وضعه لها الساكن، فقد جاءت جلستها في أحد الأركان الجانبية.

وبدأت شقيقة جريجور في العزف.. وراح الأب والأم من كلا الركنتين الجانبين يتابعان تحركات يديها باهتمام. واندفع جريجور بتأثير العزف قليلاً إلى الأمام، حتى أصبح رأسه بالفعل في داخل حجرة الجلوس.. ولقد

كانت قد مرت به فترة ما - كان يفخر فيها بتعقله، إلا أنه كان لديه، في تلك المناسبة بالذات.. ما يدفعه إلى الاختباء، لوجود تلك الكميات الهائلة من الأتربة التي كانت تتراكم داخل حجرته، وتثور في الهواء لأقل حركة، كما أنه هو نفسه معفرٌ بالأتربة، وكان الزغب والشعر وبقايا الطعام ينجر خلفه، ملتصقا بظهره، وبكل من جانبيه. وكان شعوره بالغربة الشديدة بالنسبة للجميع، أكبر من أن يسمح له بأن ينقلب على ظهره، وأن يحك جسمه فوق السجادة.. حتى يبدو نظيفاً إلى حد ما. كما اتفق له أن فعل ذلك، ذات يوم عديدا من المرات.. لكن لم يمنعه أي ظل من الحرج، على الرغم من حالته تلك، من أن يتقدم قليلاً فوق أرضية الحجرة النظيفة.

ولقد لاحظ، من باب الاحتياط، أن أحداً لم يكن متتبهاً لوجوده.. فقد كانت الأسرة كلها قد استغرقت في الاستماع إلى العزف على الكمان. أما السكان، الذين كانوا قد جلسوا بأيديهم مدسوسة في داخل جيوبهم ملتصقين بحامل النوتة الموسيقية.. بحيث كان يمكنهم جميعاً أن يقرأوا الموسيقى - ولا بد أن هذا قد ضايق شقيقته - فقد تراجعوا، مع ذلك، نحو النافذة. وراحوا يتحدثون فيما يشبه الهمس برؤوسهم المطرقة إلى أسفل. وظلوا هناك، بينما تابعهم والده بنظراته القلقة. ولقد أوضح سلوكهم هذا حقاً إلى أبعد الحدود أن أملهم كان قد خاب في الاستماع إلى عزف جيد أو مسلٍّ على الكمان.. وأنهم كانوا قد اكتفوا من المقطوعة بهذا القدر. وأصبحوا الآن يعانون من مواصلة ذلك الإزعاج البعيد عن اللياقة. وكان باستطاعة المرء أن يتكهن بانزعاجهم من الطريقة التي ينفخون بها دخان سجائرهم عالياً في الهواء من خلال أنوفهم وأفواههم. إلا أن شقيقته كانت

تعزف بغاية الروعة، وكان وجهها مائلاً في انفعال إلى جانب، وعيناها تتابعان النوتة الموسيقية في حزن.

وتقدم جريجور زاحقاً مسافة أخرى قصيرة إلى الأمام، وخفض رأسه نحو الأرض؛ فربما أمكن أن تلتقي عيناه بعينيها. فهل كان حيواناً، إذا كان للموسيقى كل هذا التأثير عليه؟ لقد كان يحس كما لو كان الطريق قد انفتح أمامه إلى الغداء المجهول الذي كان يشتهي. ولقد صمم على مواصلة زحفه حتى يبلغ مكان شقيقته، ليجذب طرف جونيلتها، لعلها تدرك أن عليها أن تجيء بكمانها إلى داخل حجرته، ذلك أن أحداً لا يتذوق عزفها. كما يمكنه هو أن يتذوقه، ولن يدعها تخرج من حجرته.. على الأقل، طالما بقي على قيد الحياة. ولسوف يصبح منظره المرعب ذا فائدة له للمرة الأولى. فلسوف يرقب كل أبواب غرفته في يقظة ويصق على المتطفلين. ولن تحتاج شقيقته إلى أي شكل من أشكال الضغط، فلسوف تبقى إلى جواره، بدافع من رغبتها الخاصة، وسوف تجلس بجواره على الكنب، وتميل عليها بأذنها لتسمعه وهو يمر إليها. وقد كان حزم أمره نهائياً على إرسالها إلى الكونسرفتوار. وأنه -لولا نكبته- كان سيعلم ذلك على الجميع في عيد الميلاد -هل مر عيد الميلاد حقاً منذ وقت طويل؟- ولم يكن يستمع إلى اعتراض قط في هذا الشأن. ولسوف تتأثر شقيقته جداً لاعترافه هذا، حتى أن دموعها ستنهمر، ليرفع جريجور نفسه حينئذ حتى يبلغ كتفها، ومن ثم يطبع قبلة فوق عنقها الذي كانت قد تركته عارياً الآن بلا شريط، ولا ياقة، بما إنها كانت تخرج للعمل.

صاح الساكن الأوسط قائلاً لوالد جريجور: مستر سامسا!.. وأشار

بيده دون إضافة المزيد من الكلمات، نحو جريجور الذي كان يتقدم حينئذ ببطء نحو الأمام.

صمت صوت الكمان، وابتسم الساكن الأوسط لصديقيه في البداية بهزة من رأسه، ثم تطلع مرة أخرى إلى جريجور. وبدلاً من دفع جريجور إلى خارج الحجرة، بدأ والده بتهدئة السكان، على الرغم من أنهم لم يكونوا قد فزعوا للرؤية جريجور بالمرة. بل ربما كانوا قد وجدوا في التطلع إليه - على ما يبدو - تسلية أكثر إمتاعاً من الاستماع إلى العزف على الكمان. وأسرع والد جريجور نحوهم ناشراً ذراعيه، محاولات أن يحملهم على العودة إلى حجرتهم. وأن يحجب رؤية جريجور عن أنظارهم في الوقت نفسه.. إلا أن قليلاً من الغضب كان قد بدأ يتملقهم الآن بالفعل. ولم يكن يسع المرء أن يدرك هل كان غضبهم قد ثار لسلوك الرجل العجوز، أم أنهم كانوا قد غضبوا فقط حين ظهر لهم فجأة. إن جاراً كجريجور كان يشغل الحجرة المجاورة لهم دون أن ينتبهوا إلى ذلك. ولقد طلبوا تفسيراً لذلك الأمر من والده، ولو حواله بأذرعهم، كما لوح لهم، وراحوا يجذبون شعر لحاهم في عصبية.. ولم يقفلوا راجعين إلى حجرتهم مرغمين.

وعادت شقيقة جريجور إلى وعيها في تلك الأثناء، بعد أن كانت قد ظلت واقفة هناك في مكانها، كما لو كانت غابت عن الوعي، عندما قوطع عزفها على تلك الصورة، وجمعت شتات نفسها على الفور، بعد أن تجمدت لحظة ممسكة بالكمان والقوس بيدين مرتعشتين معلقتين في الهواء، محمقة في نوتتها الموسيقية، دفعت الكمان إلى حضن والدتها التي كانت جالسة في نفس مكانها، تجاهد إحدى نوبات الربو، في سبيل

التقاط أنفاسها، واندفعت إلى داخل حجرة السكان، الذين كانوا في اتجاهها الآن أمام تقدم والدها على نحو أسرع من ذي قبل. وكان في إمكان المرء أن يرى الوسائد والأغطية وهي تتطاير في الهواء تحت أصابعها المدربة. لتستقر مرتبة غاية الترتيب في أماكنها. وكانت قد فرغت كذلك من ترتيب الأسرة، وانسلت خارجة قبل أن يصل السكان بالفعل إلى غرفتهم. وكانت قد انتابت الرجل العجوز نوبة أخرى من نوبات عناده لتأكيد ذاته، حتى أنه كان نسي كل ما كان يجب عليه أن يديه من الاحترام لسكانه، فلقد ظل يدفعهم أمامه ويدفعهم، حتى دق الساكن الأوسط الأرض بقدمه في عنف عند مدخل حجرة النوم؛ لكي يجبره على التوقف. ثم قال الساكن رافعاً إحدى يديه، متطلعاً نحو والده جريجور، وشقيقته هي أيضاً: اسمح لي أن أعلن لك، أنني بسبب تلك الأوضاع المقررة التي تسود هذا البيت، وهذه الأسرة- وهنا بصق فوق الأرض باقتضاب صارم- ألقت نظرك إلى هذا.. فلن أدفع لك طبعاً، حتى ولا أجر الأيام التي قضيتها هنا، بل على العكس، سأرفع دعوى ضدك، أتهمك فيها بالتخريب صدقني- وسأبنيها على حيثيات سأتمكن من إثبات قوة أثرها في سهولة. ثم توقف وحقق أمامه في الهواء مباشرة، كما لو كان يتوقع شيئاً ما.. ولقد اندفع صديقه في الواقع من خلال تلك الثغرة نفسها، بتلك الكلمات: ونحن نلفت نظرك إلى هذا، وعند هذا الحد أمسك الساكن الأوسط بمقبض الباب وصفعه، فانغلق بفرقة مدوئية.

ترنح والد جريجور متلمساً الهواء بأصابع يديه في طريقه إلى الأمام، ثم انحط فوق مقعده. ولقد بدا كما لو أنه مدد نفسه في جلسته المعهودة

تلك لإغفاءة مسائية من تلك الإغفاءات التي كان قد اعتادها. إلا أن اهتزازات رأسه المتتابعة، التي بدت وكأنه قد فقد سيطرته عليها، أوضحت أنه كان أبعد ما يكون عن النعاس. وكان جريجور قد ظل طوال الوقت واقفاً في هدوء في نفس البقعة التي كان السكان قد لمحوه عندها. وقد كانت خيبة أمله تفشل خطته، وربما أيضاً ضعفه الذي كان ناتجا عن شدة جوعه. وقد تسببا في انعدام قدرته على الحركة. ولقد خاف - بتوقع بالغ - من أن يتحول ذلك التوتر الشامل، ولم يكن يمكنه أن يقاوم حتى الأصوات التي كانت قد انبعثت من الكمان، عندما سقط من حجر أمه.. منزلقاً من بين أصابعها المرتعشة إلى الأرض، مطلقاً صوتاً مدوياً.

وقالت أخته وهي تضرب المائدة بيدها، كمقدمة لحديثها: لا يمكن أن تظل الأمور تجري على هذا النحو يا والديّ العزيزين، ربما لا يمكنكما أن تدركا هذا، إلا أنني أدركه، إنني لا يمكنني أن أتفوه باسم أخي في وجود ذلك المخلوق، على هذا فإن كل ما لديّ لأقوله هو: يجب أن نحاول التخلص منه، فلقد حاولنا أن نعني به، وأن نحتمله بقدر ما وسعنا أن نفعل ذلك، إنسانياً، إلا أنني لا أظن أن أحداً سيلومنا أقل اللوم.

قال والد جريجور في نفسه: إنها محقة إلى أبعد الحدود!

أما أمه التي كانت قد اختفت لعجزها عن التنفس، فقد راحت تسعل في راحة يدها، وعيناها تشعان بنظرة وحشية.

واندفعت أخته نحوها، وأخذت جبهتها بين راحتيها. أما أفكار والده فقد بدت وكأنها كانت قد تخطت كل ما أحاط بكلمات جريتا من غموض. فاعتدل في جلسته، وراح يعبث بأصابعه في كاب الخدمة الذي

كان موضوعاً وسط الأطباق التي تبقت مكانها بعد انتهاء عشاء السكان.
وراح يتطلع من وقت لآخر إلى هيكل جريجور الثابت في مكانه.

وقالت شقيقته أخيراً لوالدتها في صراحة، بينما كانت أمها تسعل
في تلاحق حتى أنها لم تكن تسمع كلمة واحدة مما يقال: يجب علينا أن
نحاول التخلص منه. فلسوف ينتهي هذا الحال بكليكما إلى الهلاك. إنني
أرى هذه النهاية. فعندما يكون للمرء أن يفعل مثل تلك المشقة التي نعانيتها
جميعاً، فإنه لا يمكنه أن يحتمل مشقة هذا العذاب المستمر في البيت، فوق
مشقته. إنني على الأقل لم أعد أحتملها أكثر من ذلك.

ثم انخرطت في نهبتها تلك المفعمة، حتى أن دموعها انهمرت فوق
وجه أمها، حيث جففتها بطريقة آلية.

قال الرجل العجوز بتعاطف وإدراك واضح: لكن ما الذي يمكننا أن
نفعله يا عزيزتي؟

هزت شقيقة جريجور كتفها فقط لتعلن شعورها بالعجز، الذي كان
قد سيطر الآن عليها، أثناء بكائها على النقيض من ثقتها السابقة.

فقال والد جريجور فيما يشبه التساؤل: لو أمكنه أن يدرك حالنا؟

وشوحت جريتا- التي كانت لا تزال تبكي في حدة بيدها- حتى
توضح له إلى أي مدى يستحيل التفكير في ذلك!

وعاد الرجل إلى تكرار قوله: لو أمكنه أن يدرك حالنا؟ مغلقاً عينيه،
لكي يتدبر إقناع ابنته بأن ذلك الإدراك كان مستحيلاً: فلعلنا أن نصل معه
حينئذ إلى حل ما، إلا أنه لما كانت...

صرخت شقيقة جريجور قائلة: يجب عليه أن يذهب، هذا هو الحل الوحيد يا أبي. يجب عليك فقط أن تحاول التخلص من فكرة أن هذا هو جريجور. إن اعتقادنا في ذلك طوال تلك المدة هو أصل كل متاعبنا. لكن كيف يمكن أن يكون هو جريجور؟ لو أن هذا هو جريجور لكان قد أدرك منذ وقت طويل أن البشر لا يمكنهم أن يعيشوا مع مثل هذا المخلوق، ولكان قد رحل بعيداً من نفسه. ولن يكون لنا أخ حيثئذ... إلا أننا ستمكن من مواصلة الحب، وسيمكننا أن نحتفظ بذكره في إغزاز، لكن في حالتنا هذه، فإن وجود هذا المخلوق يعذبنا، ويدفع سكاننا إلى الهرب، فتأمل هذا يا أبي! ثم صرخت قائلة فجأة: ها هو ذا يعود ثانية إلى إزعاجنا!

وبانتفاضة رعب لم يتمكن جريجور مطلقاً من أن يفهمها، حتى لقد أفرغت أمها أيضاً، دفعت المقعد بعيداً عنها.. كما لو كانت على استعداد للتضحية بأمها، بدلاً من أن تبقى قريبة إلى هذا الحد من جريجور. ثم اندفعت مختفية خلف والدها، الذي انتصب واقفاً بدوره، وقد تملكه الغضب لفرعها. فمد ذراعيه أمامه للذود عنها.

لكن لم تكن لدى جريجور أدنى نية في إفزع أي شخص فضلاً عن شقيقته، كان فقط قد بدأ يستدير لكي يزحف راجعاً إلى حجرته، ولكنها كانت عملية تدفع من يشاهدها دون شك إلى أن ينتفض من الرعب. فلم يكن يمكنه أن يأتي بأغلب الحركات المعقدة اللازمة لدوراتها، فيما عدا رفع رأسه، ثم حكها في الأرض مرة بعد الأخرى، ثم توقف وتطلع حوله.. وبدا أن من الممكن إدراك نواياه الطيبة. كان فرعهم مؤقتاً، وكانوا الآن يرقبونه في صمت مطبق. استلقت أمه فوق مقعدها، وقد امتدت ساقها.

والتصقتا ببعضهما. وكانت عيناها مغلقتين تقريباً، في حالة من الرعب. أما والده وشقيقته.. فقد ظلّا جالسين بجوار بعضهما. وكانت ذراع شقيقته قد التفت حول عنق الرجل العجوز.

وفكر جريجور قائلاً في نفسه: ربما أمكنني أن أمضى الآن محاولاً الدوران. وبدأ مرة أخرى في محاولته. لم يكن في وسعه أن يمنع نفسه من اللهاث تحت وطأة المجهود. وكان يتوقف من حين لآخر حتى يلتقط أنفاسه. كما أن أحداً لم يزعجه، بل كان قد ترك لنفسه.. وعندما أتم دورته زحف على الفور راجعاً إلى حجرته مباشرة. ولقد أدهشته تلك المسافة الطويلة التي كانت تفصله عن الحجرة. ولم يستطيع أن يتذكر كيف استطاع أن يقطع هذه المسافة نفسها، بمثل تلك السرعة التي كان قد قطعها بها، في تلك الحالة من الضعف التي كان يبدو عليها، وكان قد لاحظ أنهم لم يتفوهوا بكلمة واحدة، ولا كانت صيحة قد تدخلت في محاولته الناجحة، عندما كان قد صمم على أن يزحف بأقصى سرعة ممكنة.

لكنه فقط كان قد أدار رأسه إلى الخلف، عندما كان قد أصبح أمام باب حجرته، لم يكن قد أدارها تماماً.. ذلك أن عضلات رقبتة قد تصلبت أخيراً بشدة. إلا أنه كان قد تمكن من إدارتها إلى حد كان كافياً؛ لكي يرى أن شيئاً لم يتغير من خلفه. فيما عدا أن شقيقته كانت قد انتصبت واقفة على قدميها. وسقطت نظرتة الأخيرة على أمه التي كانت قد استغرقت تماماً في النوم.

وما إن أصبح في داخل حجرته، حتى انغلق الباب خلفه في سرعة وأحكم رتاجه، ثم دار المفتاح أيضاً دورتين داخل الكالون. ولقد أزعجته تلك الضجة المفاجئة غاية الإزعاج، حتى أن سيقانه الدقيقة قد تهاوت

من تحته. لقد كانت شقيقته هي التي بدأت كل ذلك التسرع. كانت قد انتصبت واقفة على أهبة الاستعداد، ثم وثبت وثبة خفيفة إلى الأمام، حتى أن جريجور لم يكن قد سمع وقع خطواتها عندما تبعته. ثم صاحت قائلة لوالديها: أخيراً! بينما كانت تدير المفتاح داخل القفل!

قال جريجور لنفسه -وهو يلتفت في الظلام من حوله-: ماذا بعد؟.. وسرعان ما اكتشف أنه لم يكن قادراً أن يحرك الآن أي طرف من أطرافه، ولم يدهش لذلك، إلا أنه ما بدا له غير طبيعي هو عجزه التام عن أن يتحرك زاحفاً فوق تلك السيقان الدقيقة الواهنة. لكنه كان قد أحس رغم ذلك بالراحة التامة. ولقد كان جسمه كله يؤلمه حقاً، إلا أنه أحس بأن ذلك الألم قد بدأ يتناقص تدريجياً. وبدا له أن سيزول في نهاية الأمر وقد كانت النفاحة المتعفنة المغروسة في ظهره والجراح الملتهبة التي تحيطها والغطاء كله بالأتربة الناعمة لا يسبب أي نوع من الألم. وراح يفكر في أسرته في رقة وحب. أما القرار الذي كان يقضي عليه بأن يختفي، فقد كان واحداً من الأفكار التي كان متشبثاً بها على نحو أشد عنفاً من تشبث شقيقته بذلك - لو أمكن له أن يكون أشد عنفاً منها، ولقد ظل في وحدته تلك، وحيرته الصامتة حتى رنت ساعة البرج معلنة الثالثة صباحاً.. وجذبه هذا مرة أخرى إلى وعيه. أول شعاع من الضوء يصله من العالم الخارجي، ثم تهاوت رأسه تلقائياً. فسقطت فوق الأرض. ومن منخاريه خفقت آخر أنفاسه اللاهثة!

وعندما وصلت الغسالة في الصباح الباكر - تلك الغسالة التي كانت لفرط رعونتها ولفرط تعجلها تفتح كل الأبواب، بكل تلك الضجة.. دون أن تعباً بتوسلاتهم إليها بأن تقلع عن ذلك، حتى أن أحداً في الشقة

كلها، لم يكن ينعم فيها بأية ذرة من النوم الهادئ بعد وصولها- لم تكن قد لاحظت شيئاً مخالفاً للعادة عندما استرقت النظر كعادتها إلى داخل حجرة جريجور. ولقد ظنت أنه كان مستلقياً عن عمد بلا حراك. متظاهراً بالاستغراق في أحزانه، ولقد دفعها بكاؤها إلى الاقتناع التام بتظاهره بمنع الحركة، ولما كان قد تصادف وجود المكنسة ذات اليد الخشبية الطويلة في يدها، فقد حاولت أن تداعبه بها من خلال فتحة الباب. وعندما لم يفلح هذا أيضاً في حمله على الحركة أحست بالغيط، ووخزته بطرف المكنسة في عنف، وعندما دفعته فوق أرض الحجرة دون أن تتلقى أي مقاومة، كان إدراكها قد استيقظ حينذاك، ولم يستغرقها ذلك وقت طويل حتى تدرك حقيقة الأمر، واتسعت عيناها ثم أطلقت صغيراً مرتفعاً. إلا أنها لم تضع وقتها في تأمل الأمر أكثر من ذلك، بل فتحت باب حجرة نوم مستر سامسا وزوجته، وهتفت في ظلامها بأعلى صوتها، قائلة: انظروا إلى ذلك الآن. لقد مات. إنه ملقى هنالك ميتاً!

ونهض مستر سامسا وزوجته في فراشهما المشترك، وقبل أن يتمكنوا من إدراك كنه ما أعلنته الغسالة، كانت قد استولت عليهما المفاجأة، التي لم يستوعباها سوى بصعوبة، إلا أنهما نهضا بسرعة من فراشهما، كل منهما من جانب، وألقى مستر سامسا ببطانية فوق كتفه. وكانت مسز سامسا فقط في قميص نومها، وبتلك الملابس دخلا حجرة جريجور. وانفتح في تلك الأثناء باب حجرة الجلوس أيضاً. حيث كانت جريتا تنام منذ مجيء السكان. وقد كانت ترتدي ملابسها كاملة، كما لو لم تكن قد استلقت مطلقاً في فراشها، وقد أكد هذا شحوب وجهها أيضاً.

تطلعت مسز سامسا نحو الغسالة متسائلة: هل مات؟ على الرغم من أنها كانت قد حدثت فيه بنفسها، كما أن الحقيقة كانت واضحة بدرجة كافية دون حاجة إلى أي بحث.

وقالت الغسالة: يمكنني أن أقول ذلك! بينما كانت تدفع جثة جريجور بعيداً إلى أحد الجوانب بطرف المكنسة تأكيداً لكلامها، وبدأت حركة ما عن مسز سامسا، كأنما لتمنعها عن أن تفعل ذلك، لكنها تراجع.

وقال مستر سامسا: حسناً. والآن شكراً للرب!.. ورسم على صدره علامة الصليب، وحذت النسوة الثلاثة حذوه.

وقالت جريتا التي لم ترتفع عينها عن الجثة: انظروا إلى أي حد قد صار هزيلًا. لقد مر وقت طويل ولم يكن قد تناول فيه أي شيء، فلقد كان الطعام يخرج ثانية من حجرته كما دخلها!

ولقد كان جسم جريجور مسطحاً حقاً، وجافاً للغاية. كما بدأ الآن عندما لم يعد مرفوعاً بعد فوق سيقانه.. ولم يكن ثمة ما يمنع المرء من التطلع إليه عن كثب.

قلت مسز سامسا، بابتسامة مهزوزة: تعالي الآن إلى جوارنا لحظة قصيرة يا جريتا.

وتبعت جريتا والديها إلى حجرة نومها دون أن تقاوم النظر خلفها إلى الجثة، وأغلقت الغسالة باب الحجرة، وفتحت النافذة على مصراعيها، وعلى الرغم من أن الوقت كان مبكراً جداً في الصباح، فقد كان هنالك ثمة رقة كان من الممكن الإحساس بها في الهواء الطلق، وكان شهر مارس

فوق هذا قد أوشك على نهايته.

وخرج السكان الثلاثة من حجرتهم، وقد ظهرت على وجوههم الدهشة عندما لم يجدوا طعام الإفطار. كانوا قد غابوا عن البال. صاح الساكن الأوسط قائلاً للغسالة في تبرم: أين إفطاري؟

إلا أنها وضعت إصبعها فوق شفثيها، وأشارت لهم في سرعة دون أن تنفوه بكلمة أن يتوجهوا إلى مستر سامسا وزوجته. وظهر أن مستر سامسا كان قد توجه إلى حجرة جريجور، فاتجهوا إليها، وتوقفوا هناك، وأيديهم مدسوسة في داخل جيوب معاطفهم المتهدلة بداخل الحجرة التي كان الضوء يغمرها الآن.

وعند ذلك فتح باب حجرة نوم سامسا في زيه، بينما تعلقت زوجته بذراعه وتعلقت ابنته بذراعه الآخر. ولقد بدا ثلاثتهم كما لو كانوا قد بكوا طويلاً، وكانت جريتا تخفي وجهها من وقت لآخر في ذراع والدها.

صاح المستر سامسا قائلاً، وهو يوميء نحو باب الشقة، دون أن يخلص ذراعيه من ذراعي المرأتين: غادروا منزلي حالا!

ورد الساكن الأوسط متراجعا قليلاً إلى الخلف بابتسامة باهتة: ما الذي تقصده بهذا؟

بينما وضع كل من الساكنين الآخرين يديه خلف ظهره. راح يفر كهما ببعضهما، كما لو كانوا يتأهبان في مرح لخوض معركة مرتقبة كانا يتوقعان خروجهما فائزين.

فقال المستر سامسا وهو يتقدم بصحبة المرأتين نحو الساكن مباشرة:

إنني أقصد ما قد قلته!

فتوقف هذا في مكانه بهدوء مطرقاً إلى الأرض. كما لو كانت أفكاره قد بدأت تتشكل في داخل رأسه، فهي أشكال جديدة، ثم قال: لنذهب إذن، على أية حال! ثم تطلع إلى مستر سامسا، كما لو كان يتوقع بمزيد من الإذعان المفاجئ تغييراً ما في قراره.

إلا أن مستر سامسا كان قد أوماً فقط باقتضاب مرة أو مرتين بعينين ثابتتين. وعند ذلك راح الساكن يتمشى بالفعل في خطوات واسعة في الردهة. وكان رفيقاه يستمعان فقط، واقفين في هدوء، يواصلان فرك أيديهما بضع لحظات أخرى، ثم أسرعاً يهرولان خلفه، كما لو كانا قد خافا أن يبلغ مستر سامسا الردهة قبلهما، وأن يفصلهما عن زعيمهما. وفي الردهة تناول ثلاثتهم قبعاتهم من المشجب. كما تناولوا عصيهم من الحامل، وانحنوا في صمت، ثم غادروا الشقة. وتبعهم مستر سامسا والمرأتان في ارتياب لم يكن له ما يبرره إلى بسطة السلم.. وانحنوا فوق الدرابزين يرقبون الأشخاص الثلاثة الذين كانوا يهبطون السلالم في بضع محتجبين عن الأنظار، عند أحد منحنيات السلم في كل طابق، ليعاودوا الظهور ثانية بعد دقيقة أو نحوها، وكلما هبطوا كلما ازداد اهتمام مستر سامسا بهبوطهم. وعندما التقى بهم أحد صبية الجزارين، وتخطاهم صاعداً السلم في خيلاء بصينية فوق رأسه، ترك مستر سامسا والمرأتان بسطة السلم إذ ذاك، كما لو كان عبثاً قد انزاح عن كاهلهم، وعادوا ثانية إلى داخل شقتهم.

وقرروا قضاء اليوم في راحة، والخروج من المنزل، فلم يكونوا يستحقون فقط تلك العطلة من العمل، بل لقد كانوا في أشد الحاجة إليها

أيضًا. وهكذا جلس ثلاثتهم على المائدة ليكتبوا ثلاثة خطابات للاعتذار عن العمل.

فقد كتب مستر سامسا اعتذارًا للإدارة التي يعمل بها، وكتبت مسز سامسا اعتذارها لعميلها، وكتبت جريتا لرئيس المؤسسة التي تتبعها، وبينما كانوا منهمكين في الكتابة دخلت الغسالة لتخبرهم بذهابها بعد أن فرغت من القيام بعملها الصباحي. ولقد أومأوا لها في البداية دون أن يرفعوا رؤوسهم نحوها.. لكن حين بدا أنها كانت قد ظلت تحوم حولها فقد تطلعوا إليها بأنفعال.

صاح مستر سامسا: حسنًا! وظلت المرأة في وقفتها عند مدخل الباب متجهمة كما لو كان لديها ثمة أخبار سارة تود أن تنهيها إلى الأسرة.. لكنها كانت قد قررت ألا تتفوه بكلمة ما لم يطلب إليها ذلك. وقد كانت ريشة النعامة المثبتة فوق قمة قبعتها في اعتدال، والتي كان وجودها يضايق مستر سامسا منذ أن تمت خطوبة الغسالة، كانت تتمايل في سعادة في كل اتجاه. تساءل مستر سامسا الذي كان يطلب من الغسالة أن تبدي احترامها له أكثر من الآخرين: حسنًا، ثم ماذا بعد ذلك؟

ردت الغسالة قائلة: آه!.. كانت تضحك باستخفاف وتظرف، حتى أنها لم تتمكن من مواصلة حديثها على الفور: هذا هو الأمر، لا تشغلوا بالكم بكيفية التخلص من ذلك الشيء الذي في الحجرة المجاورة.. فلقد تدبرت أمره بنفسى منذ قليل.

انحنى مسز سامسا، وجريتا ثانية على خطابيهما كما لو كانت قد

توقعنا حدوث ذلك. أما مستر سامسا، الذي أدرك أن الغسالة كانت تتوق إلى أن تبدأ في وصف ذلك الأمر بالتفصيل. فقد صدها على الفور بإشارة حاسمة من يده. وعندما اكتشفت أنهم لم يسمحوا لها بسردها الحكاية، تذكرت ما كان ينتظرها على وجه السرعة. وقد كان غيظها قد ثار في حدة بالغة، فاندفعت في عنف وهي تقول: إلى اللقاء جميعاً! وانصرفت بعد أن صفقت الأبواب خلفها في ضجة هائلة.

قال مستر سامسا: سوف ألفت نظرها هذا المساء.

إلا أنه لم يتلق ردّاً لا من زوجته ولا من ابنته، فلقد كانت الغسالة على ما يبدو قد أهدرت السكينة التي كانت قد أوشتت المرأتان على بلوغها. قامتا متجهتين نحو النافذة، وبقيتا هناك، وقد احتضنتا بعضهما البعض في عنف.

واستدار مستر سامسا في مقعده لينظر إليهما. وفي هدوء تطلع إليهما لحظة. ثم صاح قائلاً: هيا.. تعاليا الآن. أقبلا. وليكن ما قد كان. ولعلكما أن تهتما بى قليلاً أنا أيضاً.

فامثلتا على الفور وأسرعنا نحوه.. فاحتضنتاه. ثم أسرعنا بإكمال كتابة خطابيهما، ثم غادر ثلاثتهم الشقة معاً، وهو ما لم يفعلوه منذ عدة شهور مضت، واستقلوا الترام، متجهين صوب الخلاء الفسيح، في خارج المدينة. وكانت أشعة الشمس الدافئة قد فرشت الترام الذي لم يكن به سواهم. وعندما استندوا بظهورهم في راحة على مقاعدهم، راحوا يتفحصون الصور التي تخيلوها للمستقبل.. وقد تبدت لهم عند فحصها

عن كذب، غير مظلمة على الإطلاق. ذلك أن الأعمال التي كانوا قد حصلوا عليها والتي لم يكونوا قد بحثوا أمرها معاً من قبل، كانت ثلاثاً من الوظائف الرائعة، كما أنها كانت جميعاً كفيلة بأن تتمخض عن نتائج طيبة فيما بعد.. كما أن أكبر تقدم محسوس في وضعهم، كان سيحققه بالطبع انتقالهم إلى شقة أخرى. وقد كانوا يريدون الحصول على شقة أصغر وأرخص. وتتميز إلى جانب هذا بحسن موقعها، وبسهولة القيام بأعبائها، على عكس شقتهم الحالية التي كان جريجور قد اختارها.

وبينما كانوا يتشوقون على هذا النحو، فوجئ المستر سامسا وزوجته كلاهما، في نفس اللحظة تقريباً، وهما يلحظان حيوية ابنتهما المتزايدة، أنه على الرغم من كل أسى أيامهما الحاضرة، تلك الأيام التي كانت قد صبغت خدي ابنتهما بذلك الشحوب، إلا أنها كانت قد تفتحت.. وأصبحت شابة جميلة، فاتنة القوام فشرعت السكنينة حينئذ تهددهما، وتبادلا فيما يشبه الغيوبة شعوراً مفعماً بالرضا، عندها انتبها إلى أن الوقت لن يلبث حتى يدفعهما إلى البحث لها عن عريس طيب.

وكانما كان تأييداً لأحلامهما الطارئة، ونواياهما الرقيقة، فقد قفزت ابنتهما على قدميها أولاً، فور انتهاء رحلتهم، ثم تمطت بجسدها الغض!

سور الصين العظيم

كان قد تم بناء الركن الشمالي لسور الصين العظيم، حيث تقدم السور في شطرين من الجنوب الشرقي والجنوب الغربي حتى التقيا أخيراً هناك. وكانت هذه الطريقة للبناء المنفصل قد اضطلع بها- على نطاق ضيق- جيشان عظيمان من العمال هما: الجيش الشرقي والجيش الغربي.. وقد قام العمل على النحو التالي: تكونت فرق تضم كل منهما حوالي عشرين عاملاً، وألقي على عاتق كل فرقة إنجاز ما طوله خمسمائة ياردة من السور بينما قامت فرق مماثلة ببناء امتداد آخر بنفس الطول ليلتقي بالأول.. إلا أنه بعد أن تم هذا الاتصال لم يتقدم السور أبعد من تلك النقطة.. التي باستطاعتنا أن نقول إن تلك الياردات الألف قد انتهت عندها، بل.. انتقل كلا الجانبين من فرق العمال، على عكس المتوقع؛ ليواصل البناء من جديد في أماكن أخرى بعيدة تمامًا عن بعضها بعضًا.

و.. كانت قد تركت بالطبع والحال هكذا فجوات عديدة واسعة، كان سدها يتم تدريجيًا، وشيئًا فشيئًا لم يعد يحدث ذلك بالمرة، حتى أنه بقيت- في الحقيقة- بعض الثغرات كما هي في مكانها، حتى بعد أن تم صدور الإعلان الرسمي بالانتهاء من بناء السور. ولقد ذكروا في الحقيقة أنه قد كانت هناك بضعة فتحات لم يكن سدها تم نهائيًا.. تصریح!! ربما لم يكن-رغم ذلك- أكثر من واحد هو أيضًا من تلك الخرافات العديدة التي تسببت بناء السور في انتشارها، والتي لم يكن ثمة شخص واحد على

الأقل وقد رأى البناء الممتد أمامه بعينه وتفحصه بنفسه قد كلف نفسه مشقة مراجعتها. وفي إمكان المرء أن يدرك الآن للوهلة الأولى أنه كان من اللازم مهما كانت الأحوال أن يتم بناء السور بطريقة متصلة -على الأقل- بمجهود الجانبين الرئيسين! فلقد كان السور شيئاً مدبراً فوق كل شيء.. وكانت قد ذاعت أنباؤه في أنحاء العالم، وأصبح معروفاً بأنه حصن ضد شعوب الشمال، إلا أنه.. كيف يتسنى للسور أن يضطلع بعبء حماية ما دام لم يصبح بعد بناء متكاملًا؟! ليست فقط عدم قدرة السور على أن يحقق حماية من أي نوع هي المشكلة ولكن.. المشكلة كانت تكمن في كونه بالإضافة إلى افتقاره إلى أي من المميزات كان يشكل في حد ذاته خطراً دائماً! فتلك الكتل المهجورة من أجزاء السور المنتصبة في المناطق الصحراوية كان باستطاعة الشماليين أن يقوموا بهدمها في سهولة المرة بعد الأخرى خاصة وأن هذه القبائل التي كانت منذ البداية قد توجست شراً عند رؤيتها لعمليات البناء كانت قد أخذت تغير مضارب خيامها بسرعة لا تصدق، وكأنها فصائل من الجراد، وتبعاً لهذا فربما تكون ثمة فكرة عامة قد تكونت لديهم من التقدم في بناء السور أفضل مما تكون لدينا عنه نحو بنائيه.

إلا أنه ربما لم يكن ممكناً أبداً إنجاز مهمة البناء بطريقة أخرى، ولكي نتفهم هذا، ينبغي علينا أن نضع في اعتبارنا ما يلي: أن الغرض من البناء كان التحصن لعدة قرون! وعلى هذا، فإن الاهتمام بعرض كل حيل الأجيال، والشعوب التي عرفت حتى الآن، والإحساس الذي لا يهدأ بالمسؤولية الشخصية لدى البنائين، كان ضرورة لا غنى عنها للعمل! حقاً، لقد كان

عمال وردية النهار الجهلة، من عامة الشعب الذين يقومون بأداء الأعمال اليومية البحتة، من الرجال والنساء والأطفال، كانوا يعرضون خدماتهم مقابل لقمة العيش... إلا أنه للإشراف حتى ولو على أربعة من عمال وردية النهار، كان الأمر يتطلب خبيراً متمرساً بفن البناء، رجلاً في مقدوره أن يستوعب، و... في وسع قلبه أن يفيض بالحساسية لكل ما يؤديه، وكلما ارتفع شأن العمل، كلما ازدادت المسؤولية. وكان أمثال هؤلاء الرجال يتواجدون من وقت لآخر، ولو أنهم لم يكونوا في الحقيقة بالكثرة التي كان باستطاعة العمل أن يمتصها، إلا أنهم كانوا يوجدون بأعداد كبيرة على كل حال.

ولما لم يكن العمل قد بدأ بلا تفكير. فقد انقضت خمسون عاماً قبل أن يتم وضع حجر الأساس، تأكدت خلالها أهمية فن العمارة، وخاصة العمارة الحرة، باعتبارها أهم فروع المعرفة في كل أنحاء المساحة التي كان على السور أن يحوطها، وقد كانت كل الفنون الأخرى، تحظى بمكان ما، بتفاوت في الأهمية تبعاً لدرجة ارتباطه، وعلاقته بفن العمارة... وما زالت تحضرني القدرة على أن أتذكر بغاية الوضوح كيف كنا نقف ونحن بعد أطفال صغار لا نكاد نؤمر ببناء سور -على نحو ما- من الحصى، وعندئذ كان الأستاذ يجذب طرف رداءه، ويندفع ساخطاً نحو السور وبالطبع كان يهدمه، ويعنفنا في قسوة على تفاهة عملنا، حتى أننا كنا نجري إلى آبائنا باكين، في كل الاتجاهات! مجرد حادث عارض، ولكنه كاف للدلالة على روح العصر!

لقد كنت محظوظاً؛ فقد كان بناء السور قد بدأ عندما كنت في

العشرين، وكنت قد اجتزت آخر امتحانات المدرسة المتوسطة، وأنا أقول إنني سعيد الحظ؛ لأن الكثيرين ممن سبقوني في الحصول على أعلى درجات الدراسة العليا، التي كان في وسعهم أن يحصلوا عليها، لم يتمكنوا عاما بعد عام من العثور على أي عمل يتطلب خبرتهم، وضاعوا سدى، بكل ما في رؤوسهم من التصميمات الهندسية البارعة، وغرقوا بالآلاف في حضيض اليأس. لكن هؤلاء الذين أتيح لهم أن يعملوا كمشرفين في المشروع حتى ولو اضطهرهم الأمر ربما إلى أن يعملوا في أدنى مرتبة كانوا جديرين حقًا بعملهم، فقد كانوا بنائين من ذلك الطراز الذي انفعَل طويلاً، ثم.. لم يتوقف عن الانفعال ببناء السور.. رجال من ذلك الطراز الذي كان قد أحس منذ أن تم وضع الحجر الأول، بأنه قد أصبح جزءا من السور.. بتأؤون بالطبع من هذا الطراز، لم تكن فقط تملكهم الرغبة في تأدية عملهم بأكثر الأساليب شمولا، بل لقد كانوا أيضًا لا يقوون على مغالبة الصبر، لرؤية السور منتهيا، في تمام كماله! لم يكن لدى عمال النهار مثل هذا الصبر النافذ، لأنهم كانوا مشغولين فقط بأعبائهم، وتطوَّحهم، أما المستويات العليا من المشرفين، وحتى المشرفين المساعدين، فقد كان في وسعهم -في الحقيقة- أن يلمسوا من الاطراد المتضاعف للبناء ما يكفي لرفع روحهم المعنوية، وملئها بالثقة. إلا أن اعتبارات أخرى كان لابد منها لتشجيع الملاحظين الذين يتميزون -إلى حد بعيد- بالوعي بقيمة عملهم، الذي يبدو متواضعا في ظاهره.

فليس في مقدور أي إنسان -على سبيل المثال- سواهم أن يواصل وضع الحجر فوق الآخر لشهور وربما لسنين بلا توقف، في تلك المناطق

الجبلية الخالية من السكان، على بعد مئات الأميال من بيوتهم. إن فقدان الأمل في مثل هذا العمل الشاق الذي ربما، لا يشرف على الانتهاء، حتى مع نهاية رحلة العمر الطويلة، من شأنه أن يغرقهم في اليأس ويجعلهم فوق كل هذا، أقل قدرة على العمل. لهذا السبب كانت قد تقرر طريقة البناء المنفصل، وقد أمكن إنجاز خمسمائة ياردة في خمس سنوات. وفي ذلك الحين كان المشرفون قد أصبحوا في غاية الإجهاد كقاعدة عامة، وكانوا قد فقدوا كل الثقة بأنفسهم وبالسور، وبالعالم! وتبعاً لذلك، فقد أرسلوا بعيداً، بعيداً جداً، ولما تكبد بعد تنقضي تلك الاحتفالات المبتهجة التي أقيمت لتكريمهم بمناسبة إنهاء الباردات الألف من السور، ولقد شاهدوا خلال رحلتهم قطاعات تامة من السور، ارتفعت هنا، وهناك، حتى بلغوا جناح القائد الأعلى، حيث أنعم عليهم بشارة الشرف، واستمعوا إلى هدير صيحات جيوش العمال الجديدة المبتهجة تدوي في طريقها إلى الأمام، متجمعة من جوف الأراضي، وشاهدوا الغابات التي قطعت لكي تتحول إلى سقالات من أجل السور، والجبال التي نحتت، وتحولت إلى أحجار لبناء السور، وتسمعوا إلى الترانيم المقدسة، والدعوات التي كانت ترتفع في صلوات الصالحين، من أجل إتمام السور. لقد هدأ ذلك كله قلقهم، وكانت الحياة الهادئة في بيوتهم، حيث أتيح لهم أن يستريحوا لبعض الوقت، قد أعادت إليهم عافيتهم وتقريراتهم التي تم التصديق عليها في تواضع! وثقة نائب مقاطعتهم، البسيط المسالم، في حتمية إنجاز السور، لملم هذا كله مرة أخرى خيوط الأرواح الموزعة، وأحكم رباطها، فقالوا كالأطفال المتفائلين أبداً عندئذ لبيوتهم: وداعاً! فقد كانت الرغبة

في العمل من جديد في بناء سور الوطن، قد أصبحت لا تقاوم، ورحلوا مبكرين عما كان ينبغي لهم، وشيعة نصف أهالي القرية إلى مسافات بعيدة، وكانت تجمعات الناس الذين تتقدمهم البيارق والسواعد الملوحة المضطربة في الهواء تملأ كل الطرقات، على نحو لم يسبق لهم من قبل أن شاهدوا من خلاله -إلى هذا الحد- كم كان وطنهم عظيمًا، وغنيًا، ورائعًا، وجديرًا بالحب. لم يكن أي فرد من هؤلاء الريفيين سوى شقيق، كان هناك ثمة من كان يبني من أجله سورًا لحمايته، ومن سيعود ممتنًا طوال حياته، وشاكرًا للسور ما أخذه منه، وما أعطاه. الوحدة! الوحدة! جنبا إلى جنب، حلقة مترابطة من الأشقاء، تيار من الدم لم يعد بعد حبسًا في حدود دورة دموية ضيقة، داخل جسد مفرد، ولكنه يدور في جهد، بلا عودة.. عبر ترابط الصين الذي لا يحد!

وعلى هذا إذن، يصبح نظام البناء المنفصل أمرًا مفهوميًا، إلا أنه كانت هناك لا تزال بعض الأسباب التي تبرره، وإلا فسوف يكون هناك ثمة غرابة في توقفي أمام هذه المسألة كل هذا التوقف، فهي أحد المسائل المتعارضة في بناء السور عامة، مع أنها قد تبدو غير ذات أهمية عند النظرة الأولى إليها، فإذا أمكنني أن أنقل وأوضح الأفكار والأحاسيس التي كانت سائدة في ذلك الوقت، فإنني لا يمكنني أن أذهب إلى أبعد من ذلك، في بحث أمر تلك المسألة بالذات.

عندئذ يجب أن يقال أولاً إنه في تلك الأيام كان يتم إنجاز الأشياء بأسلوب غريب إلى حد ما بالنسبة لبناء برج بابل، على الرغم من اتباع تعليمات السماء، في حدود إمكانيات الاستتاج البشرية على الأقل مع

التباين الشديد فيما يتعلق بهذا الأمر. أقول هذا؛ لأنه في أثناء المرحلة الأولى للعمل في البناء، كتب أحد الباحثين كتاباً عقد فيه المقارنة، بأسلوب غاية في الاستفاضة، وقد حاول في كتابه أن يثبت أن برج بابل قد فشل في أن يحقق الغاية من بنائه، ليس بسبب الوسائل التي تقدمت عالمياً، أو.. أنه على الأقل، بين تلك الوسائل المتميزة، لم يتحقق وجود أكثر هذه الأسباب أهمية. لم تكن براهينه تستند فقط إلى مجرد الوثائق والتقارير المكتوبة، فلقد ادعى أنه قد قام أيضاً بتحريرات حول الموضوع، وأنه قد اكتشف أن البرج قد فشل، وكان مقدراً له أن يفشل بسبب ضعف الأساس. في هذا المقام كان عصرنا غاية في التفوق، بالنسبة لذلك الزمن القديم. وفي زمننا كان كل رجل متعلم، هو في الغالب، بناءً محترفاً، ومنزهاً عن الخطأ فيما يختص بإرساء الأساسات. إلا أن هذا -رغم كل شيء- لم يكن هو ما كان باحثنا مهتماً بإثباته، فقد أكد أن السور العظيم وحده، سوف يقدم للمرة الأولى في تاريخ البشرية أساساً راسخاً لبرج بابل جديد! وعلى هذا فالسور أولاً، ومن ثم البرج!.. وقد كانت كل الأيدي تتناول كتابه في ذلك الوقت، إلا أنني أعترف بأنه حتى في أيامنا هذه ليس في استطاعتي أن أستنتج كيف كان يمكن تصور ذلك البرج، كيف يتسنى للسور الذي لم يكن يشكل حتى دائرة، وإنما فقط نصف مربع أو نصف دائرة، أن يقدم أساساً لبرج؟ بالإمكان أن يتحقق معنى لهذا، فقط في الإحساس الروحي، إلا أنه في تلك الحالة.. لماذا بُني السور الأصلي؟ الذي كان -باعتباره شيئاً ثابتاً- هو نتيجة العمل مدى الحياة، لجماهير الناس؟ ولماذا وجدت في الكتاب تصميمات غامضة على نحو ما كان لا بد من تقبلها على أنها

تصميمات البرج ومشاريع موضحة تفصيليًا، لتجديد طاقات الناس للعمل الجديد الهائل .

كان هناك كثير من الأفكار الفجة في رؤوس الناس في ذلك الوقت، وقد كان كتاب ذلك الباحث مجرد مثل لتلك الأفكار، ربما كان سببها ببساطة أن الكل كانوا يحاولون أن ينضموا على قدر طاقتهم إلى القوى المجندة من أجل إنجاز هدف وحيد. والطبيعة البشرية متغيرة في جوهرها، متحركة كالتراب، لا تستطيع أن تكبح طويلًا، فإذا ما قيدت نفسها، فإنها سرعان ما تمزق قيودها في جنون، حتى تشق كل شيء إلى شطرين، تمزق السور والقيود، وتمزق نفسها أيضًا!

ولم تكن تلك الاعتبارات بالذات التي كانت تناضل أصلاً ضد بناء السور قد سقطت -في الواقع- من حساب القائد الأعلى، عندما كان قد تقرر نظام البناء المنفصل!

إننا.. وأنا أتحدث هنا بالنيابة عن الكثيرين لم نكن قد أدركنا تلك الاعتبارات حقيقة بأنفسنا، إلى أن تفحصنا اللوائح التي أصدرها القائد الأعلى، عندما اكتشفنا أنه بدون القائد الأعلى لم تكن دراسة كتابنا ولا خبرتنا الإنسانية لتغنيانا عن القيام بواجباتنا المتواضعة التي أدينها في إطار الخطة الهائلة. وفي مكتب القائد، حيث كانت الخطة، وحيث لم يكن يعلم لحظتها أي شخص ممن سألتهم من الذين كانوا يجلسون هنا ولا هم حتى، علموا الآن! في ذلك المكتب.. كان في مقدور المرء أن يثق من أن كل الأفكار البشرية وكل الرغبات كانت قد انعقدت، وفي مواجهتها كل الأهداف والمنجزات ومن خلال النافذة.. كان بهاء العوالم السماوية

المنعكسة تسقط فوق أيدي القادة، بينما هم يتعقبون خططهم.

ولهذا السبب كان لا بد للمراقب اليقظ أن يدرك أن القائد، لو أنه أراد فعلاً، لكان في استطاعته أن يتغلب على تلك الصعاب التي كانت تقف في طريق نظام البناء المتواصل. وعلى هذا فلا يبقى شيء سوى النتيجة، وهي أن القائد قد اختار عامداً نظام البناء المنفصل. إلا أن طريقة البناء المنفصل لم تكن فقط سوى خدعة متعمدة، وهي لهذا لم تكن مناسبة، وتبقى النتيجة، وهي أن القائد قد اختار شيئاً غير مناسب، نتيجة غريبة!! حقاً! إلا أنها في نفس الوقت في حاجة إلى كثير من النقاش حولها، وربما كان باستطاعة المرء أن يناقشها الآن في أمان، وفي تلك الأيام كان لكثير من الناس وللصفوة من بينهم حكمة سرية تقول ما يلي: حاول بكل ما أوتيت من قوة أن تتفهم أوامر القائد الأعلى، لكن فقط... إلى حد معين، ثم تجنب التفكير فيما هو أبعد من ذلك الحد!

قول حكيم جداً، لم يلبث أن دخلت عليه التعديلات ليصبح مثلاً سائراً كان يقتبس منه غالباً فيما بعد: تجنب التفكير فيما هو أبعد من الحد، ليس لأن ذلك قد يكون ضاراً، فليس مؤكداً أبداً أنه سيجلب ضرراً ما! لم يكن ما هو ضار وما هو غير ضار ذا علاقة بالمشكلة، ولننظر إلى النهر مثلاً، في الربيع.. إنه يرتفع حتى يصبح أعظم مما كان، ويغذي التربة في سخاء، على طول امتداد ضفتيه، ويظل محتفظاً بمجره الأصلي حتى يصل إلى البحر، حيث يلقي هناك صدرًا رحباً بلا حد، لأنه هو الطريق الذي يستحقه! إلى هذا الحد يمكنك أن تناقش أفكارك حول أوامر القائد الأعلى، إلا أن النهر يفيض بعد ذلك على الضفتين، ويفقد حدود مجراه وشكله الخارجي،

وتهبط سرعة تياره، ويحاول أن يتجاهل هدفه بتكوين بحار صغيرة، داخل الأراضي ويغرق الحقول، ولا يعود في مقدوره أن يحتفظ طويلاً بمجره الأصلي، ولا أن يواصل امتداده من جديد، بل يضطر إلى التراجع ثانية بين ضفتيه، ويضطر إلى أن يجف في بؤس في فصل الجفاف، الذي لا يلبث أن يأتي.. إلى هذا الحد، ربما لا يسعك أن تناقش أفكارك عن لوائح القائد الأعلى.

والآن، على الرغم من أن تلك الحكمة ربما كان في وسعها أن تصل إلى حدود وإلى قوة غير عاديتين في أثناء بناء السور، إلا أن لها فقط في الغالب أهمية محدودة بالنسبة لدراستي الحالية، فتحرياتي تاريخية بحتة، وليس ثمة أضواء كاشفة بعد.. منذ ذلك الأمد الطويل الذي انقضى على اختفاء العواصف الرعدية، وعلى هذا فربما أخطر بالبحث عن تفسير لنظام البناء المنفصل، الذي تجاوز ذلك النظام الذي اقتنع به الناس حينذاك! إن الحدود التي تفرضها على قدرتي على التفكير، هي حدود ضيقة للغاية، ولكن المساحة التي يجب اجتيازها هنا مساحة غير محدودة! ضد من كان على السور العظيم أن يقوم بدور الحماية؟ ضد شعوب الشمال! والآن.. لقد أتيت من جنوب شرقي الصين، وليس في مقدور أي شماليين أن يهددونا هناك. إننا نقرأ عنهم في كتب القدماء، وإن الفظائع التي ارتكبوها انسياقا مع طبائعهم، قد دفعتنا إلى أن نتنهد خلف أشجار أمننا، وأن الإنتاج المخلص للفنان قد كشف لنا عن وجوههم اللعينة وأفواههم المفغورة، وأشدقهم المزودة بتلك الأنياب الرهيبة المشرعة، وعيونهم نصف المغمضة التي تبدو للتو واللحظة كأنها تبحث عن الضحية التي سوف

تمزقها أنيابهم وتلتهمها.. وعندما يتماذى أطفالنا في رعونتهم، فإننا نلوح لهم بتلك الصور، فيهرعون باكين لتوهم إلى أذرعتنا.. إلا أننا لا نعرف عن هؤلاء الشماليين شيئاً آخر أكثر من ذلك. إننا لم نرهم، ولو أننا بقينا في قرانا، فسوف لا نراهم، حتى لو أنهم امتطوا ظهور خيولهم البرية، بأقصى ما يستطيعون من سرعة متجهين مباشرة نحونا، فإن الأراضي الواسعة بلا حد لن تمكنهم من أن يبلغونا، وسوف تنتهي رحلتهم في الفراغ.

فلماذا إذن نترك بيوتنا، ما دام الأمر كذلك، ونترك القناة والقناطر التي تنتصب فوقها، ونترك آبائنا وأمهاتنا وزوجاتنا الباقيات وأطفالنا الذين يحتاجون إلى رعايتنا، ونرحل قاصدين إلى تلك المدينة النائية، لكي نتدرب هناك، بينما أفكارنا تواصل الرحلة - لا تزال - بعيداً.. إلى السور في الشمال؟ لماذا؟ سؤال للقائد الأعلى.

إن قادتنا يعرفوننا، رغم غرقهم في الهموم الهائلة، يعرفوننا. يعرفون مطالبنا الصغيرة، ويروننا ونحن نجلس معاً في أكواخنا المتواضعة. يقررون، أو لا يقررون، صلاة المساء التي يتلوها رب البيت وسط أفراد أسرته، وإذا كان مسموحاً لي أن أعرب عن بعض هذه الأفكار التي تناولها القائد الأعلى، فإن عليّ أن أقول إن القائد الأعلى - فيما أعتقد - قد وُجد منذ قديم الزمان! ولم يكن قد استدعى، ولنقل، كما يجتمع الحكام الصينيون الذين يستدعون على عجل ليناقشوا حلماً خطيراً، رآه شخص ما في اجتماع ينعقد بالسرعة نفسها، وعلى هذا تفرع الطبول للناس في تلك الليلة نفسها؛ لكي يغادروا فراشهم ويتأهبوا لتنفيذ ما استقر عليه الرأي، حتى ولو لم يكن الأمر سوى مجرد إشعال شعلة، قربانا لأحد الآلهة، الذي لعله يكون قد أسدى

معروفا ملحوظا لسادتهم في اليوم السابق، فقط.. لمجرد محاصرتهم في أحد الأركان المظلمة بهراوة، قد يكون مقدرًا لها أن ترفع في وجوههم في اليوم التالي، قبل أن تخدم نيران الشعلة! أكثر من هذا أعتقد أن وجود القائد الأعلى كوجود الأبدية نفسها. كذلك القرار بأن يبني السور، هو أيضًا. وبغض النظر عن شعوب الشمال، الذين يتصورون أنهم هم السبب في بنائه، وللأمانة أيضًا نقول، بغض النظر عن الإمبراطور الذي توهم أنه قد أصدر مرسومًا ببنائه! نعلم نحن - بنائي السور - أن الأمر لم يكن كذلك، ومع ذلك، أمسكنا ألسنتنا.

* * *

في أثناء بناء السور، ومنذ ذلك الحين إلى يومنا هذا، كنت قد انشغلت كلية على وجه الخصوص بتاريخ الأجناس المقارن وثمة أسئلة معينة باستطاعة المرء أن يسبر بها غور الأعماق؛ بما أنها كانت فقط تنهج هذا النهج. ولقد اكتشفت أننا - نحن الصينيين - نمتلك طرازًا معينًا من المؤسسات الشعبية والسياسية فريدة في وضوحها، وأن لنا مؤسسات أخرى فريدة في غموضها، وأن الرغبة في تعقب دوافع هذه المظاهر وخاصة الأخيرة منها قد راودتني، وأن بناء السور نفسه، مرتبط جوهريًا بتلك المسائل. وأن واحدة من أكثر هذه المؤسسات غموضًا الآن، هي الإمبراطورية نفسها.. في بكين - بالطبع - في البلاط الإمبراطوري، ثمة بعض من الوضوح باستطاعة المرء أن يضع يده عليه. فيما يتعلق بهذا الموضوع، إنه وضوح أقرب إلى الوهم منه إلى الحقيقة، وكذلك أساتذة القانون السياسي والتاريخ في المدارس العليا يزعمون أنهم على علم تام

فيما يتعلق بهذه الأمور، وأن في وسعهم أن ينقلوا معلوماتهم تلك إلى طلبتهم، وكلما هبط المرء أكثر بين أوساط المدارس المتوسطة كلما أمكنه أكثر -بالطبع- أن يجد مدرسين وتلاميذ يشكون في معلوماتهم الشخصية الزائفة، وكلما وجدت ثقافة سطحية، تتحلق السماء عالياً ببعض النواميس القليلة التي حفرت في رؤوس الناس منذ قرون، نواميس على الرغم من كونها لم تفقد شيئاً من صدقها الأبدي، إلا أنها بقيت مطموسة إلى الأبد وسط ضباب هذا الاختلاط والتشوش الذي آلت إليه.

إلا أنه بالتحديد هو ذلك السؤال عن الإمبراطورية الذي يلزم في رأيي أن يطرح على عامة الناس؛ لكي يجيبوا عليه، بما أنهم في نهاية الأمر هم الدعامة الأخيرة للإمبراطورية. وهنا يجب أن أعترف بأنه في مقدوري أن أتحدث مرة أخرى، فقط من أجل الوطن، وفيما عدا آلهة الطبيعة وطقوسها التي تملأ العالم كله، بتلك التغيرات الجميلة الغنية، فإننا نفكر فقط في الإمبراطور الحالي. فقط لو أننا كنا قد عرفنا من هو، ولو أننا عرفنا عنه أي شيء محدد حقاً، -وليس بسبب مجرد الفضول الذي يملؤنا- لقد حاولنا أن نحصل على معلومات عن هذا الأمر، إلا أنه -كما يبدو غريباً- كان مستحيلاً تماماً اكتشاف أي شيء، سواء من الحجاج على الرغم من كونهم قد طافوا ببلاد كثيرة، أو من القرى القريبة أو البعيدة، أو... من البحارة، رغم أنهم قد أبحروا، ليس فقط في قناتنا الضيقة، وإنما في الأنهار المقدسة أيضاً. وإنَّ المرء ليسمع حقاً ما لا حصر له من الأشياء، لكن في غير استطاعته أن يجمع شيئاً ثابتاً.

فسبيحة إلى هذا الحد كانت أراضينا، لدرجة أنه لم تكن ثمة حكاية

واحدة في مقدورها أن تثبت أمام اتساعها الذي لم تكن سوى السماء تقريباً هي من يسعها أن تقدر مساحتها، ولم تكن بكين في وسطها سوى نقطة، وأما القصر الإمبراطوري، فأقل من نقطة والإمبراطور بالتالي، من ناحية أخرى يستمد عظمته من خلال كل السلطات الدنيوية! لا جدال في ذلك، ولكن الإمبراطور الحالي ليس سوى رجل مثلنا، يستلقي مثلما نفعل نحن على أريكة ربما تكون ذات نسب نبيلة، إلا أنها من الممكن جداً أن تكون ضيقة للغاية وقصيرة. ومثلنا، أحياناً ما يمدد نفسه، وعندما يكون متعباً جداً، فإنه يتشاءب بفمه الرقيق الصغير. إلا أنه كيف يتسنى لنا أن نعلم أي شيء من هذا كله من مكاننا، في الجنوب على بعد آلاف الأميال، فوق أطراف مرتفعات التبت غالباً؟ وبالإضافة إلى هذا، فإن أية أخبار، حتى ولو قدر لها أن تصلنا، فإنها تصلنا متأخرة للغاية، وتكون قد استهلكت وابتذلت طويلاً قبل أن تصلنا. فالإمبراطور محاط دائماً بحشد متألق، مختلط من النبلاء والندماء-الحقد والعداء، في زي الخدم والأصدقاء- الذين يشكلون قوة مضادة للقوة الإمبراطورية، ويعملون على الدوام من أجل خلع الحاكم من مكانه بالحرب المسمومة! إن الإمبراطورية خالدة، ولكن الإمبراطور نفسه يترنح ويسقط من على عرشه.. نعم، لقد هوت أسر إمبراطورية بأسرها في النهاية، ولفظت أنفاسها الأخيرة وسط قعقة الموت! عن هذه الصراعات والآلام، سوف لا يعلم الناس شيئاً بالمرة، وكأنما هم قد وصلوا متأخرين، أو كأنهم غرباء في مدينة يقفون على حافة أحد الأطراف المكتظة المزدحمة لشارع جانبي، يمشغون الطعام الذي أحضره معهم بينما يتلو ذلك- على البعد- أمامهم في ميدان السوق، في قلب المدينة ذبح حاكمهم!

وثمة حكاية تصف هذا الموقف جيداً، فتقول إن الإمبراطور قد أرسل رسالة إليك، أنت أيها الشيء المتواضع، أيها الظل الذي لا معنى له، القابع في أقصى مكان خلف الشمس الإمبراطورية، قد أرسل إليك الإمبراطور من على فراش موته رسالة لك وحدك.. لقد أمر رسوله أن يركع بجوار الفراش، وهمس بالرسالة إليه.. كم من الوقت قضاه الإمبراطور مستلقياً يهمس برسائلته تلك. وما إن انتهى منها، حتى أمر رسوله أن يهمس بها ثانية في أذنه، ثم.. بهزة من رأسه أكد أنها صحيحة! نعم، قبل أن يحتشد شهود وفاته، تهاوت كل الجدران المنيعة، وعلى الدرج الشاهق الفسيح الموشى بالزخارف كان يقف على هيئة حلقة كل أمراء الإمبراطورية العظماء، قبل أن يحدث هذا كله، كان قد سلم الرسالة، وبدأ الرسول رحلته على الفور! رجل قوي، لا يكل، يتدافع الآن بيده اليسرى، ويشق لنفسه طريقاً وسط الحشد، فإذا لاقى مقاومة أشار إلى صدره حيث يشع رمز الشمس، فيصبح الطريق أمامه مفتوحاً كما لا يمكن أن يفسح لأي شخص آخر سواه، ولكن الحشود تتجمع في سرعة لا نهاية لأعدادهم، فلو أنه تمكن أن يبلغ الحقول المفتوحة، فأية سرعة تلك التي سوف ينطلق بها طائرًا، وستسمع على الفور.. بلا شك، بترحاب، دقائق قبضاته على بابك، لكنه.. بدلاً من ذلك، كم أهدر قواه عبثاً، ولا يزال يشق طريقه فقط عبر حجرات القصر الداخلي، وكأنه لن يبلغ نهايتها أبداً، وحتى لو أنه نجح في ذلك، فلن يكون قد جنى شيئاً، فلا بد له أن يقاتل ليشق لنفسه طريقاً ليهبط السلالم، ولو أنه نجح في هذا، لما جنى شيئاً، فسوف تبقى الردهات أمامه ليعبرها، وبعد الردهات القصر الخارجي الثاني، ثم مزيد من السلالم، والردهات وقصر آخر أيضاً،

وهكذا لآلاف من السنين، فإذا قدر له في نهاية الأمر أن يبلغ البوابة الخارجية -ولن يحدث ذلك أبدا- فسوف تربض العاصمة الإمبراطورية أمامه، مركز العالم، متحفزة في نهم لتتنقض عليه برفضها الخاص. لا أحد يمكنه أن يقاتل ليشق لنفسه طريقا عبر هذا المكان، حتى ولو كان مزودا برسالة من رجل ميت، لكن يمكنك أن تجلس إلى نافذتك عند هبوط المساء، وتحلم بما في هذه الرسالة بنفسك.

هكذا، على هذا النحو، يمثل هذا اليأس، وبمثل هذا الأمل، يتطلع شعبنا إلى الإمبراطور! إنهم لا يعرفون ما الذي يملكه إمبراطور، وتوجد ثمة نظرات متشككة تتطلع حتى إلى.. اسم الأسرة الإمبراطورية، وفي المدارس تلقن كثير من المعلومات عن الأسرات، مع تواريخ تعاقبها. إلا أن انعدام الثقة العالمية في هذا الأمر، يعد من الفداحة لدرجة أن أفضل الباحثين يختلط عليهم أمرها، والأباطرة الذين توفوا من أزمان بعيدة، لا يزالون في قريتنا يرتقون العرش، وإمبراطور لا يعيش سوى في أغنية قد نودي به أخيراً في خطبة الكاهن أمام الهيكل، ومعارك التاريخ القديم، حديثة بالنسبة لنا. ويتدافع أحد الجيران داخلا متهلل الوجه ليحكي أنباءها، وزوجات الأباطرة المرفهات، الشهيات يغريهن جريا على عادة النبلاء، ذوو الدهاء من رجال البلاط، الذين يملؤهم الطموح وهم متوقدون في شراحتهم، مندفعون في شهوتهم، يمارسون أنانيتهم دائماً من جديد، وكلما أوغلوا بعيداً في أغوار الزمن، كلما شعشع ألح الألوان التي صورت بها أفعالهم، وأحياناً ما تسمع قريتنا، وهي تطلق صرخة تفجع مدوية، كيف شربت إمبراطورة دم زوجها في جرعات طويلة منذ آلاف مضت من

السنين!

على هذا النحو إذن، كانت علاقة قومنا بالأباطرة الراحلين، ولكنهم يحسبون الحاكم الحالي هو أيضًا ضمن الموتى، فلو قدر ولو لمرة واحدة في عمر المرء كله أن وصل بالصدفة إلى قريتنا أحد موظفي الإمبراطورية أثناء مروره على المقاطعات، وألقى بعض التصريحات باسم الحكومة، وتفحص قوائم الضرائب، وتفقد مدارس الأطفال، واستفسر الكاهن عن أعمالنا وشئوننا، ثم بعد ذلك إذا قدر له قبل أن يرتقي محفّته، أن يجمل انطباعاته في عدة تنبيهات يوجهها إلى حشود الشعب، فسوف ترف حينئذ ابتسامة فوق كل وجه، وسوف يسترق كل شخص نظرة إلى جاره، ومن ثم ينحني على أطفاله، كي لا يراه الموظف، لماذا؟ لأنهم يظنون بينهم وبين أنفسهم أنه يتحدث باسم رجل ميت، كما لو كان على قيد الحياة، فإمبراطوره ذاك قد رحل منذ زمن بعيد، بل إن الأسرة كلها قد بادت تمامًا، والموظف الطيب إنما يمزح فقط معهم، إلا أننا سوف نبدو كأننا لم ندرك شيئًا، فقط لكي لا نضايقه. إلا أننا لن نطيع مطلقًا بإخلاص سوى حاكمنا الحاضر، لأننا نكون قد ارتكبنا جريمة إن لم نفعل!

ويتفق بعد رحيل محفة الموظف مباشرة أن ينتفض شخص ما فجأة، قائما في وقار كحاكم للقرية، وكأنه قد انطلق لتوه خارجا من جوف قمقم ممتلئ بالرماد.

إن قومنا فيما يبدو لا يتأثرون بالثورات التي تنشب في المقاطعة، ولا بالحروب المعاصرة، وإنني لأذكر حادثا قد وقع أثناء شبابي، فقد نشبت ثورة بجوارنا، إلا أنها وقعت في مقاطعة بعيدة جدا، ولست أذكر بعد ماذا

كان سبب نشوبها، كما أنه لا أهمية لأن أتذكر ذلك الآن، فالمناسبات التي تهيج لنشوب ثورة، من الممكن أن توجد هناك كل يوم، ذلك أن نفوس الناس متهيجة للغاية في تلك المقاطعة.

وذاث يوم وصلت إلى منزلنا نسخة من منشور كان قد أصدره الثوار، وقد أحضر معه تلك النسخة متسول، كان قد عبر تلك المقاطعة، وتصادف أن كان اليوم، يوم عيد، وكانت حجرات منزلنا ممتلئة بالضيوف، وجلس الكاهن في صدر المكان، وشرع في قراءة ذلك المنشور، وفجأة انفجر كل شخص في إطلاق الضحكات، وفرق المنشور وسط تلك الفوضى، أما المتسول الذي كان قد جمع رغم كل شيء كثيرًا من الصدقات، فقد طرد إلى خارج الحجرة مشيعا بالصفعات، ومن ثم تفرق الضيوف ليستمتعوا بذلك اليوم السعيد، لماذا؟ لقد كان منطق تلك المقاطعة المجاورة يختلف في بعض النواحي، اختلافًا جوهريًا عن منطقنا، ولقد تحقق هذا الاختلاف كذلك في بعض الفقرات المكتوبة في المنشور، والتي كانت تتخذ بالنسبة لنا طابعًا قديمًا، ولم يكن الكاهن قد تمكن بصعوبة سوى من قراءة سطرين فقط، حتى كنا قد اتخذنا قرارنا تَوًّا.

إن التاريخ القديم قد تحدث منذ قديم عن مأس قديمة، قد اندملت منذ ذلك الحين، ورغم -هكذا يبدو لي الأمر على قدر ما تسعفني ذاكرتي- أن بشاعة حياتنا الحاضرة، كانت قد صورت على نحو لا يدحض، بكلمات المتسول، فقد ضحكنا وهزنا رؤوسنا، ورفضنا أن نستمع إلى أكثر مما استمعنا إليه، كم كان قومنا يتوقون إلى أن يطمسوا بشاعة الحاضر!

فإذا تمكن شخص ما من أن يخرج من مثل هذه الظواهر، بأنه لم يكن

لنا ثمة إمبراطور في الواقع، فلن يكون قد ابتعد كثيراً عن الحقيقة، ويجب أن يقال المرة بعد المرة، أنه ربما لا يوجد شعب أشد إخلاصاً للإمبراطور من شعبنا في الجنوب، إلا أن الإمبراطور لا يجني شيئاً ذا أهمية من وفائنا هذا.

لذلك، فإن التين المقدس يتصب فوق العمود الصغير الذي في نهاية قرينتنا، ومنذ بداية وعي البشرية، وهو يطلق من فمه أنفاسه المشتعلة في اتجاه بكين كرمز للولاء، إلا أن بكين نفسها تعد أكثر غرابة في أذهان الناس في قرينتنا من العالم الآخر. هل من الممكن حقيقة أن توجد قرية تصطف البيوت فيها بعضها بجوار بعض لتغطي كل الحقول لمسافة شاسعة عما يمكن أن يراه المرء من فوق تلالنا؟ وهل يوجد ثمة مثل تلك الحشود الكثيفة من الناس الذين يتكدسون داخل هذه البيوت ليلاً ونهاراً؟ إن في مقدورنا أن نتصور وجود مثل هذه المدينة، أكثر مما في مقدورنا أن نعتقد أن بكين وإمبراطورها، هي إحدى هذه المدن! ولعلنا أن نقول إنها تبدو لنا كما لو كانت سحابة، ترحل تحت الشمس في سلام عبر الأزمان!

إن النتيجة التي يسفر عنها اعتناق مثل هذه الآراء هي حياة مطلقة الحرية مطلقة من كل قيد، إنها حياة متحررة بطبيعتها، إلا أنه لم يتسن لي رغم ذلك أن أعثر سوى بصعوبة بالغة خلال أسفاري على أخلاقيات تمثل ذلك النقاء الذي عهدته في قريني، مع أنها حياة لا شأن لأي قانون معاصر بها، ولا تلتزم فقط سوى بالوصايا والتحذيرات التي انحدرت إلينا من الأزمان القديمة.

إنني أعارض التعميمات المطلقة، وليس في استطاعتي أن أوكد أنه

ليس هناك مثل تلك التعميمات في كل تلك القرى التي لا حصر لها في مقاطعتنا على الأقل، إن لم نقل في كل مقاطعات الصين الخمسمائة. إلا أنني قد أجدني مضطراً إلى أن أجازف بتأكيد تلك الأسس التي تكمن خلف كل تلك الكتابات التي كتبت حول هذا الموضوع، والتي أتيح لي أن أقرأها، كما أضيف كذلك -بناءً على ملاحظاتي الخاصة- أن بناء السور بصفة خاصة بغزارة إمكانية البشرية يتيح الفرصة للشخص الحساس لمعارضة سكان كل المقاطعات تقريباً -وبناءً على هذا كله، ربما أمكنني بعد ذلك أن أجازف مصرحاً بأن السخط المتفشي ضد الإمبراطور يظهر دائماً، وبصفة عامة شيئاً ما متفقاً في أساسه مع ما تراه قريتنا. وليست لدى الآن أية رغبة رغم ذلك في أن أجعل ذلك السخط يبدو وكأنه فضيلة بدلاً من ذلك. حقاً، إن المسؤولية الجوهرية في هذا الشأن إنما تقع على عاتق الحكومة التي لم يسعها أبداً رغم كونها حكومة لأكثر الإمبراطوريات عراقية، أن تتطور، أو لعلها أهملت الرغبة في تطوير مؤسسات الإمبراطورية إلى ذلك الحد، حتى أن أعمالها قد امتدت مباشرة، وبلا توقف إلى أقصى حدود البلاد. ومن ناحية أخرى، مع ذلك، كان أيضاً ثمة ضعف في الثقة على نحو ما، وقدرة على التوهم تضطرب في جانب الجماهير، وقد عاقهم ذلك عن إنهاض الإمبراطورية من عثرتها في بكين وضمها في كل مظاهر حياتها الواقعية الملموسة إلى صدورهم. تلك الجماهير التي لا ترغب في شيء آخر أروع من أن تشعر مرة واحدة فقط بذلك الالتصاق، ومن ثم تقضى!

ذلك السخط إذن ليس فضيلة بالتأكيد، إلا أنه كلما تزايد وضوحه، كلما بدا وكأن ذلك الضعف واحداً من أعظم الروابط التي تعمل على

توحيد شعبنا، الذي هو حقاً لو أن المرء جرؤ على أن يعبر عنه، فيقول: إنه هو الأرض الفعلية التي نقف عليها.

و.. أن نشرع في إقامة أساس مختل هنا، سيكون معناه أننا نزرع الألغام، ليس فقط تحت ضمائنا، وإنما -أكثر من هذا سوءاً- تحت أقدامنا! ولهذا السبب، سوف لا أتعق أكثر من ذلك في هذا الشأن بتحرياتي عن هذه المسائل!

أبحاث كلب

كم من التغيرات قد طرأت على حياتي، وكم بقيت حياتي تلك كما هي في القاع دون أدنى تغيير. وعندما أعود بذاكرتي إلى الماضي، وأتذكر ذلك العهد، عندما كنت لا أزال عضوًا في مجتمع الكلاب، أشارك في كل آماله، كلب ضمن باقي الكلاب؛ فإنني أكتشف من تجربتي المباشرة أنني كنت قد أحسست منذ البداية بنوع من التشتت، وبشيء من الفوضى، كان يبعث فيّ نوعًا من الشعور بالقلق الذي لم يكن يزيله حتى أكثر الاهتمامات العامة انسياقًا مع العرف. وبالإضافة إلى ذلك فأحيانًا، لا.. ليس أحيانًا، بل غالبًا ما كانت مجرد النظرة إلى رفيق من كلاب طبقتي، كلب كنت أحبه، إلا أن مجرد رؤيته، كما لو كنت أراه للمرة الأولى، كانت تكفي لكي تملأني بالحيرة العاجزة والخوف، بل لقد كانت تملؤني باليأس، ولقد حاولت أن أنغلب على مخاوفي ما وسعني ذلك. ولقد ساعدني أصدقاؤني الذين بُحت لهم بما في نفسي، وجاءت عهود من السلام، عهود لم تكن بالفعل تفتقر إلى مثل تلك التحيرات المفاجئة. لكن مثل تلك التحيرات كانت تستقبل خلالها بمزيد من التفلسف، وبمزيد من التفلسف تفاعلت مع حياتي، وجنحت بي ربما نحو نوع من الخبل والفتور. إلا أنها قد أتاحت لي رغم ذلك أن أمضي في حياتي ككائن هادئ على نحو ما، ومتحفظ، وخجول، وحذر، لكن كلبًا عاديًا تمامًا، رغم كل ذلك. فكيف كان يتسنى لي حقًا دون أن أمر بتلك الفترات من النقاهة، أن أبلغ العهد الذي أجني متعته في الوقت الحاضر. وكيف كان يتسنى لي أن أجاهد؛ لكي أشق طريقًا إلى الهدوء

الذي يتيح لي أن أتأمل رعب شبابي، وأحتمل من خلاله رعب العصر؟! وكيف تسنى لي أن أبلغ الدرجة التي تمكنت فيها من أن أخط نتائج تعاستي المسلم بها، أو أن أقرر على نحو أكثر موضوعية، أنها لم تكن حالة سعيدة للغاية، وأن أحيا على الأغلب، تبعا لتلك النتائج؟ حياة الوحدة والسلبية، بلا شيء يشغلني سوى بعض الأبحاث القليلة اليائسة، التي لا غنى لي عنها. تلك هي الطريقة التي أعيش عليها، إلا أنني في عزلي البعيدة لم أفقد الرؤية للناس، فأخبرهم تتطرق إليّ، وإنني لأسمح لأخباري هي أيضًا بأن تبلغهم من حين لآخر. إن الآخرين يعاملونني باحترام، لكنهم لا يفهمون أسلوب حياتي، ومع ذلك فهم لا يحملون لي أي ضغينة، وحتى الجراء الصغيرة التي أراها تمر أحيانًا على البعد، والتي لا أذكر طفولتها سوى ذكرى غامضة، لا تضمن عليّ هي أيضًا بتحيات التوقير.

وليس لي أن أدعي لكل غرابة أطواري التي لا تزال باقية إلى يومنا هذا. أنني حر على الإطلاق من قيود جنسي. وإنني في الحقيقة عندما أتأمل ذلك- وإنني لأمتلك الوقت والميل والمقدرة على ذلك- فإنني أرى أن مملكة الكلاب هي هيئة رائعة من كل الوجوه. وتوجد فيما عدانا نحن الكلاب، كل أنواع المخلوقات في العالم، مخلوقات دنيئة وقاصرة وخرساء، لا لغة لها، بل صيحات آلية: وقد قام كثير منا نحن الكلاب بدراستها، وإطلاق الأسماء عليها، وحاولوا أن يمدوا لها يد المساعدة، وعلموها، ورفعوا مستواها، وهكذا. أما من ناحيتي فإنني لم أبال بها مطلقًا إلا حين تحاول إزعاجي، وإنني لأخلط بين أي جنس منها وبين الجنس الآخر. إنني أجهلها، إلا أن شيئًا واحدًا كان من الواضح، حتى لم يخطئني

أن أعرفه، وهو على وجه التحديد، كيف تميل هذه المخلوقات بعض الميل، بخلافنا نحن الكلاب إلى أن تلتصق ببعضها البعض، وكيف يمر بعضها ببعض بمثل ذلك الصمت، ومثل ذلك النفور، وبمثل ذلك العداء الغريب. وكم هي وضیعة تلك الاهتمامات التي يمكنها أن تربط بينها لفترة قصيرة في وحدة ظاهرية، وإلى أي حد تثير فهم تلك الاهتمامات نفسها الحقد والتطاحن، لكن في مقدور المرء أن يقول عنا نحن الكلاب من ناحية أخرى باطمئنان أننا نعيش جميعاً معاً في حشد فعلي، كلنا رغم اختلاف كل منا عن الآخر، بسبب التحولات العميقة التي لا حصر لها، والتي قامت بمرور الأزمان جميعاً في حشد واحد، مشدودين إلى بعضنا البعض، دون أن يفلح شيء في أن يعوقنا عن إشباع ذلك الدافع النزاع إلى المشاركة. وإن كل قوانيننا، وكل مؤسساتنا، القليل الذي ما زلت أذكره منها، والكثير الذي نسيته لنتتهي كلها إلى تلك الأمنية بالسعادة القصوى التي يسعنا تحقيقها، وبالرضا الدافئ لكوننا معاً. ولنتأمل الآن الجانب الآخر من الصورة، فعلى قدر علمي لا توجد مخلوقات تعيش ذلك التشتت الشديد الذي نعيشه نحن الكلاب، ولا يوجد جنس له مثل تفاوتنا في الطبقة والفصيلة والمهنة.. فوارق عديدة جداً حتى ليسعك تمييزها بنظرة، وإننا لنجدنا نحن الذين لا رغبة لنا سوى أن نلتصق معاً -ولقد حدث أن نجحنا في تحقيق تلك الرغبة مرة بعد مرة، في لحظات سامية، رغم كل شيء- نجدنا مجبرين دون جميع الآخرين إلى أن نحيا منفصلين أحداً عن الآخر بدعاوى غريبة، غالباً ما لا تكون مفهومة حتى لجيراننا من الكلاب، ونجدنا متمسكين غاية التمسك بقوانين تخالف قوانين الكلاب، بل تعارضها بالفعل معارضة صريحة.

كم تبدو هذه المسائل باعثة على الحيرة، مسائل من الأفضل ألا يتناولها المرء- وإنني لأدرك أيضًا هذا الموقف، بل إن إدراكي له لأقوى من إدراكي لموقفي نفسه- إلا أنها مسائل لا يسعني سوى التسليم بها تسليمًا مطلقًا، فلماذا لا أفعل كما يفعل الآخرون، فأعيش في انسجام مع عشيرتي، وأتقبل في صمت كل ما قد يكدر صفو هذا الانسجام، متخطيًا إياه كزلة بسيطة في المدى الهائل، واضعًا نصب عيني دائمًا الأشياء التي تربطنا معًا في هناء، لا تلك الأشياء التي تدفعنا المرة بعد المرة، ولو بالقوة، إلى خارج نطاق دائرتنا الاجتماعية.

ويمكنني أن أذكر حادثة وقعت أثناء شبابي، وكنت إذ ذاك أعيش في حالة من حالات التدليل الغامضة الهائلة، التي لا بد أن مارسها كل امرئ عندما كان طفلًا، كنت ما زلت جروًا صغيرًا جدًّا، وكان كل شيء يبعث السرور في نفسي، وكنت متعلقًا بكل شيء، وكنت قد اعتقدت بأن أشياء رائعة مجيدة تجري من حولي، وأنني كنت رائدها، وأنه كان يتوجب على أن أهبها صوتي، أشياء لا بد أن كان سيلقي بها جانبًا في إهمال لو لم أسع أنا لأجلها، وأهز لها ذيلي. خيالات طفولية، انتهت مع سنوات النضج، إلا أن قوتها كانت بالغة للغاية في ذلك الحين، وقد كنت واقعا تمامًا تحت تأثير سحرها، ثم حدث شيء ما بالفعل حينذاك، شيء شاذ غاية الشذوذ، حتى أنه قد بدا كما لو كان قد حقق توقعات البدائية. لم يكن في حد ذاته أمرًا شاذًا للغاية، ذلك أنني كنت قد رأيت الكثير من مثل تلك الأمور، والمزيد من جلائل الأمور كذلك، كنت قد رأيت ما يكفيني رؤيته منذ ذلك الحين. إلا أنه في ذلك الحين كان ذلك الأمر قد صدمني عندما شهدته بكل قوة

الانطباع الأول، انطباع من تلك الانطباعات التي لا يسع المرء أن يمحو أثرها، والتي تلقي ظلالها على سلوك المرء فيما بعد. فلقد كنت قد واجهت - باختصار - جمعًا قليل العدد من الكلاب، أولم أكن بالأحرى قد واجهتهم، وإنما كانوا هم قد ظهرُوا أمامي. وكنت قبل أن يحدث ذلك، أعدو في الظلمة لبعض الوقت، وقد امتلأت بنذير يندرنى بوقوع بعض الأحداث الجسام، نذير قد يكون وهما خالصا، لأنني كثيرًا ما توهمت مثل تلك النذر. كنت قد عدوت في الظلمة لوقت طويل ذهابا وجيئة، أعمى وأصم عن كل شيء، لا تقودني سوى رغبة غامضة، وأخيرا توقفت فجأة، وقد أحسست بأنني قد أصبحت في المكان المناسب. وعندما تطلعت إلى أعلى، اكتشفت أن النهار كان قد أشرق، وأن شروقه كان مشوبا فقط بعمة خفيفة. وفي كل مكان، كان هناك مزيج وأخلاق من الروائح شديدة التخدير، ولقد حييت الصباح بنباح متردد، عندما اندفع - كما لو كنت قد أطلقت لهم تعويذة سحرية ما - سبعة كلاب، خارجين من مكان ما من الظلام، مصحوبين بأصوات مزعجة لم يحدث لي أن سمعت لها مثيلاً من قبل، نحو الضوء. فلو لم أكن قد لاحظت بيقين أنهم كانوا كلاباً، وأنهم هم الذين كانوا قد أصدرُوا ذلك الصوت، رغم أنني لم أكن قد تبينت كيف كانوا قد أصدروه، لكنت قد انطلقت هارباً من فوري، لكن لما كانوا كذلك، فلقد بقيت. وكنت في ذلك الحين لا أزال أجهل كل شيء تقريباً عن الموهبة الخالقة للموسيقى التي كانت قد وهبت فقط لجنس الكلاب وحده، ولقد كانت تلك الموهبة تنقصني بالطبع كلية، لكنني قمت شيئاً فشيئاً بتطوير قواي على الملاحظة، ذلك أن الموسيقى كانت تحوطني

كظاهرة طبيعية تمامًا، وكعنصر لا غنى عنه من عناصر الوجود، منذ أن كنت رضيعاً، عنصر لم يكن ثمة دافع قد دفعني إلى تمييزه من بين باقي مظاهر الوجود المحيطة بي، ولقد لفت الكبار من ذويي، نحوه أنظاري، بمثل تلك التلميحات التي كانت تناسب الإدراك الطفولي، إلا أن أكثر ما بدا لي مدهشاً، بعدئذ، ومخرباً بالنسبة لي في الحقيقة، كانوا هم هؤلاء الموسيقيون السبعة العظام. فهم لم يتحدثوا، ولم يطلقوا عقيرتهم بالغناء، بل ظلوا جميعهم صامتين، صامتين عن عمد على الأغلب، لكنهم خلال الهواء الطلق كانوا قد عزفوا موسيقاهم. كل شيء كان موسيقى! رفع سيقانهم، ووضعها ثانية على الأرض، لفتات ما من الرأس، وعدوهم، وسكناتهم، والأوضاع التي كانوا يتخذونها بالاشتراك بعضهم مع بعض والأشكال المتماثلة التي كانوا يؤلفونها بواسطة أحدهم عندما كان يضع ساقية الأماميتين فوق ظهر آخر، ويحذو الباقون حذوه، حتى يضجر الأول من احتمال ثقل الكلاب الستة الآخرين، أو.. يستلقون منبطحين فوق الأرض، ثم يزحفون بواسطة حركات معقدة مقصودة، دون أن يأتي أحدهم بحركة خاطئة، ولا حتى الكلب الأخير، رغم أنه لم يكن واثقاً في نفسه تمام الثقة، ولم يكن يجاري الآخرين في براعتهم، فيتصل بهم فوراً، كان يتردد أحياناً، كما حدث بالفعل في إحكام إيقاعه، إلا أن تردده كان ملحوظاً فقط بنسبته إلى الثقة الزائدة التي كان يتمتع بها الآخرون، وحتى لو أنه كان متردداً إلى حد أبعد كثيراً من ذلك الحد، فلم يكن تردده البالغ ذاك، بقادر حقاً على أن يتسبب في ضرر ما، فلقد كان الأساتذة العظام الآخرون جميعهم يضبطون الإيقاع بغاية الرسوخ. إلا أنه من المبالغة البالغة أن أقول إنني قد رأيتهم

بوضوح، أو حتى قد رأيتهم بالفعل بصورة ما. فلقد خرجوا من مكان ما، ولقد حييتهم قلبيا باعتبارهم كلابًا، ورغم أنني كنت مضطربًا أشد الاضطراب بسبب الأصوات التي واكبتهم، إلا أنهم كانوا كلابًا على كل حال، كلابًا مثلي ومثلك. ولقد تبينتهم بقوة العادة، ككلاب ببساطة اتفق لي أن التقيت بهم في طريقي، وأحسست برغبة في أن أقرب منهم، وأن أبادلهم التحيات، فلقد كانوا قريبين من مكاني أيضًا غاية القرب، كانوا كلابًا أكبر كثيرًا مني دون شك، لكنهم لم يكونوا من فصيلتي المغطاة بالشعر الصوفي الكثيف، ولم يكونوا مختلفين كذلك غاية الاختلاف في الحجم أو الشكل، وكانوا في الحقيقة مألوفين لي تمامًا، لأنني قد رأيت كثيرًا من أمثال أو أشباه تلك الكلاب، لكنني فيما كنت مستغرقًا في تلك التأملات، كانت الموسيقى قد سيطرت تمامًا على الموقف دون أن أشعر بذلك، حتى تقطعت لها أنفاسي بالفعل، وطوحت بي بعيدًا جدًا عن تلك الكلاب الصغيرة على غير إرادتي، بينما كنت قد انطلقت في النباح كما لو كنت قد أصبت بآلم ما، ولم يكن عقلي يتعقب شيئًا سوى تلك العاصفة من الموسيقى. التي بدت وكأنها قد هبت من كل الجهات، من الأعالي، ومن الأعماق، ومن كل مكان، ممسكة بتلابيب السامع، محدقة به، تسحقه، وفوق جسده فاقد الوعي، تهب بلا توقف نفخات أبواق قرية جدا، حتى لتبدو من فرط قربها بعيدة جدًا؟ وغير مسموعة على الأغلب، ثم جاءت فترة من الراحة، فقد كان المرء قد استنفد قواه جميعًا، كان قد همد تمامًا، وأصبح من الوهن بحيث لا يمكنه أن يحتمل الاستماع إلى المزيد. جاءت فترة راحة، ثم شاهدت الكلاب السبعة الصغيرة مرة أخرى، تواصل

تحركاتها، وتتابع قفزاتها، ووددت أن أصبح منادياً إياهم على الرغم من تباعدهم، وأن أستعطفهم لكي يعلموني، وأن أسألهم عن معنى ما كانوا يأتونه من حركات، فقد كنت طفلاً، وكنت قد اعتقدت أن في وسعي أن أسأل أي كائن عن أي شيء، لكنني ما كدت أبدأ، وما كدت أمارس الشعور بقدرتي على التخاطب الكليبي السليم المؤلف مع الكلاب السبعة، حتى بدأت الموسيقى تعزف ثانية، فسلبتني وعيي، ودارت بي في دوامتها، كما لو أنني كنت أنا نفسي واحداً من ضمن العازفين، لا مجرد ضحية لهم فحسب، فقد ألقوا بي هنا وهناك. ولم ينجدني كم توسلت إليهم طالبا الرحمة، حتى أنقذوني في النهاية من قسوتهم، بأن زجوا بي في داخل متاهة من القضبان الخشبية كانت قد قامت حول المكان، على الرغم من أنني لم أكن قد لاحظت وجودها من قبل، لكنها كانت قد اقتنصتني أخيراً في عنف، ضاغطة رأسي إلى الأرض، ورغم أن الموسيقى كانت لا تزال مسموعة خلفي، في المساحة المفتوحة، فإنهم لم يسمحوا لي بفسحة من الوقت لالتقاط أنفاسي. ولا بد لي من أن أعترف بأنني لم أكن معجباً بمهارة الكلاب السبعة في العزف، فلم أكن أفهمه، ولقد كان عزفهم علاوة على ذلك أعلى من مستوى كل طاقاتي بصورة تامة، مثل إعجابي بشجاعتهم في مواجهة الموسيقى التي كانوا يعزفونها بأنفسهم، هذه المواجهة الصريحة، وإعجابي بطاقتهم على احتمالها في هدوء، دونما انهيار. لكنني لاحظت أخيراً من مخبأ، عندما تطلعت من مكان أكثر اقتراباً، أن ذلك البرود كله لم يكن أقصى ما كان يتميز به استعراضهم من انفعال، فقد كانت أطرافهم التي كانت تبدو واثقة إلى ذلك الحد في حركاتها، كانت تلك الأطراف

ترتعد مع كل خطوة بانتفاضات متواصلة خائفة، وكان الكلاب قد ثبتوا نظراتهم أحدهم على الآخر، كما لو كانت عيونهم قد تحجرت من اليأس، وكانت ألسنتهم تتدلى عندما كان التوتر يضعف للحظة في إرهاق أسفل ذقونهم! ولا يمكن أن يكون الخوف من الفشل هو ما كان قد بعث فيهم الاضطراب إلى ذلك الحد. فالكلاب التي يسعها أن تجرؤ على الإنيان بمثل تلك الأمور، لم تكن بحاجة إلى أن تخشى الفشل. فلماذا إذن كان الخوف قد تملك تلك الكلاب؟ ومن أجبرهم على أن يفعلوا ما كانوا يفعلونه؟ لم أتمكن من أن أضبط نفسي طويلاً بعد ذلك، خاصة عندما تبين لي أخيراً، على نحو غير مفهوم، أنهم كانوا في أشد الحاجة إلى العون، ولهذا، وفوق كل ضوضاء الموسيقى، هتفت بتساؤلاتي في صخب وتحد. إلا أنهم - لا يمكن تصديق ذلك، لا يمكن تصديقه! - لم يجيبوني، وتابعوا ما كانوا يفعلونه كما لو لم أكن هناك. إن الكلاب التي لا تجيب على مبادرات الكلاب الأخرى، هي كلاب مذنبه بإساءتها إلى الأخلاق السامية، ولا يمكن أبداً أن يصفح عن ذنب كهذا أكثر الكلاب تواضعاً، إلا إذا أمكن أن يتجاوز عنه أرقى الكلاب، فلعلهم إذن ألا يكونوا كلاباً على الإطلاق! لكن، كيف يمكن لهم ألا يكونوا كلاباً؟ ألسنتهم أسمع بالفعل - بوجودي على مسافة جد قريبة - صيحاتهم المتسلطة التي يشجعون بها أحدهم الآخر؟ ويلفت بها أحدهم أنظار الآخر إلى المصاعب، ويحذره من الأخطاء، ألا يمكنني أن أرى الكلب الأخير والأصغر الذي وجهت له أغلب صيحاتي، وهو يختلس النظرات نحوي، كما لو كان يود من أعماقه لو يجيبني، لكن يمنعه عن ذلك فقط، أن الرد لم يكن مسموحاً به؟ فلماذا

لم يكن مسموحاً به؟ لماذا يصبح الشيء الذي تأمر به قوانيننا وتحض عليه بلا قيد ولا شرط أمراً غير مسموح به في تلك الحالة الغريبة؟ لقد امتلأت سخطا على تلك الفكرة، حتى لقد نسيت الموسيقى تقريبا! لقد كان هؤلاء الكلاب ينتهكون القانون، ربما كانوا سحرة عظاما، إلا أن القانون يسري عليهم هم أيضاً، وإنني لأعلم هذا تمام العلم، رغم أنني ما زلت طفلاً! وتحققت الآن من أنني كنت قد أدركت شيئاً آخر، هو أن ثمة أسباب قوية كانت تدفعهم إلى أن يبقوا صامتين، فلقد كانوا يحسبون أنهم إنما يصمتون لإحساسهم بالخجل. فكم كانوا يتذلون أنفسهم؟ إنني بسبب كل تلك الموسيقى لم أكن قد لاحظت ابتذالهم ذاك من قبل، إلا أنهم كانوا قد أطاحوا بعيداً بكل أثر للخجل. لقد كانت تلك المخلوقات الوضيعة تفعل الشيء نفسه الذي يبدو مؤسفاً غاية الأسف وشائناً في نظرنا! لقد كانوا يسرون على سيقانهم الخلفية! سحقاً لهم! لقد كانوا يكشفون عن عريهم، بل لقد كانوا يستعرضون عريهم بصورة فاضحة، ولقد كانوا يفعلون ذلك كما لو كانوا بالفعل يفعلون أمراً يستحق التقدير، وعندما اتفق لهم أن يتبعوا أفضل ما في فطرتهم للحظة من اللحظات، فقد حدث أن تركوا مخالبتهم الأمامية تسقط إلى الأرض، أصيبوا لتوهم بالرعب كما لو كانوا وقعوا في خطيئة ما، كما لو أن الطبيعة كانت خطيئة في نظرهم. وبسرعة رفعوا سيقانهم ثانية، وبدت عيونهم وكأنها تستجدي الصفح، لكونهم قد اضطروا إلى أن يضعوا حداً لشانتهم في التو واللحظة. فهل كانت الدنيا تقف فوق رأسها؟ وأين عساني أن أكون؟ وماذا عساه أن يحدث؟ فلو أنني جرؤت فقط على أن أضع الآن حداً لترددي! خلصت نفسي من تشابك تلك

القضبان، وقفزت قفزة واحدة نحو الفضاء، واتجهت صوت الكلاب! إن عليّ أنا التلميذ الأغر أن أقوم الآن بدور الأستاذ، ولا بد لي من أن أجعلهم يفهمون ما الذي كانوا يأتونه، ولا بد لي من أن أمنعهم من ارتكاب أية خطيئة أخرى. ظللت أقول في نفسي: وكلاب كبيرة أيضا؟! وكلاب كبيرة أيضا؟! إلا أنني ما كدت أتححرر، ولم يكد يفصلني عن الكلاب سوى قفزة أو قفرتين، حتى تملكنتي الموسيقى ثانية بكل قوتها، ولعلني لن أتمكن من احتمالها، في غمرة حماسي؛ لأنني قد خبرتها الآن بصورة أفضل، لو لم ترن نغمة واضحة متواصلة حادة منبثقة في عنف من أقصى الأماكن النائية، وسط انتشار النغم المهيّب، الذي كان يبدو مخيفًا، لكنه لا يزال غير مستعصٍ على أن يقهر، لعلها كانت هي اللحن الأساسي في المعزوفة كلها، ولعلني ما كنت أضطر إلى أن أجثو على ركبتي، لو لم تنبثق تلك النغمة أخيرا! إن الموسيقى التي يعزفها هؤلاء الكلاب تنتزع مني تقريبًا حواسي كلها!

لم أتمكن من أن أخطو خطوة واحدة أبعد من ذلك، ولم تعد لدي الرغبة بعد في أن أرشدهم، وفي وسعهم أن يواصلوا رفع سيقانهم الأمامية، وأن يرتكبوا الخطيئة، وأن يغووا الآخرين إلى ارتكابها، من مجرد النظر إليهم في صمت؛ لقد كنت كلبا صغيرا إلى ذلك الحد، فمن ذا الذي كان يمكنه أن يطلب إلى القيام بمثل ذلك الواجب الصعب؟ لقد أثبت لنفسي بنفسني أنني ما زلت شيئًا لا يعتد به الآن أكثر من أي وقت مضى، وانخرطت في البكاء. ولو سألني الكلاب في هذه اللحظة عن رأيي في استعراضهم، فلعلني لا أجد كلمة واحدة لأقولها ضده! وعلاوة على ذلك فلم يكن قد

مر وقت طويل قبل أن تختفي الكلاب بموسيقاها عن الأنظار، وقبل أن يتلعمهم الظلام الذي كانوا قد خرجوا منه.

إن تلك الحادثة لا تتضمن شيئاً بالغ الأهمية، كما قد قلت لتوي، ففي مجرى الحياة الطويل يلقي المرء كل أنواع الأمور التي إذا انتزعت من سياقاتها، ونظر إليها بعيني طفل، قد تبدو مدهشة غاية الدهشة. وبالإضافة إلى ذلك، فلعل المرء أن يكون بالفعل - كما يقول المثل الشعبي اللاذع - قد فهم كل شيء بصورة خاطئة، تماماً كما قد يفهم كل شيء يتصل بذلك. ثم إنه من الممكن إثبات أن تلك الحادثة ببساطة كانت حالة اجتمع فيها سبعة من الموسيقيين ليمارسوا فنهم في سكون الصباح، وأن كلباً صغيراً جداً قد ضل طريقه إلى مكانهم. دخیل ثقیل، كانوا قد حاولوا طرده بوسيلة تخويف خاصة، أو بموسيقى مرتفعة عن طاقته، دون أن يتسنى لهم أن ينجحوا في ذلك لسوء الحظ، وأنه قد أزعجهم بتساؤلاته، فهل كانوا - وقد أزعجوا غاية الإزعاج بمجرد وجود ذلك الغريب - ليتوقفوا بالإضافة إلى ذلك أن يستمعوا إلى مقاطعاته المعوقة؟ وأن يساهموا في زيادة حالهم سوءاً على سوء بالرد عليها؟ وحتى لو كان القانون قد أمرنا بأن نرد على كل فرد، فهل كان مثل ذلك الكلب الضال - ضئيل الحجم في الحقيقة - فرداً يستحق الاعتبار؟ وربما لم يكونوا حتى قد فهموه، ذلك أنه كان ينبج متسائلاً على نحو غاية في الغموض، أو أنهم كانوا قد فهموا تساؤلاته تلك، وبغاية ضبط النفس أجابوه عليها، لكنه لم يتمكن - لكونه جرواً غير معتاد على سماع الموسيقى - من تمييز الإجابة وسط موسيقاهم. أما بخصوص سيرهم فوق سيقانهم الخلفية، فلعلمهم - بخلاف باقي الكلاب الأخرى - كانوا قد اعتادوا

على اتباع هذه الطريقة وحدها للسير، فلو كانت تعد خطيئة، حسنًا.. فلنقل إنها كانت خطيئة، إلا أنهم كانوا وحدهم! سبعة من الأصدقاء معا، أو لنقل إنهم كانوا جمعا متآلفا بين جدرانهم الأربعة، أو كانوا في وضع خاص غاية الخصوصية، ذلك أن أصدقاء المرء شيء، والجمهور شيء آخر، وما دام لم يوجد الجمهور بالفعل، فليس من شأن مجرد كلب صغير لحوح من كلاب الشارع - دون شك - أن ينظم الكون! لكن لو أننا سلمنا بذلك، فهل لا يبدو الأمر مختلفا عما لو أن شيئًا لم يكن قد حدث على الإطلاق؟ لا يبدو الأمر بالمرة، وكأن شيئًا لم يحدث، ومع ذلك فإنه ل يبدو بالفعل قريباً منه في حالة عدم وقوع أي شيء، ويجب على الآباء ألا يتركوا أبناءهم يهرولون بحرية، ويحسن بهم أن يعلموهم أن يضبطوا ألسنتهم، ويحترموا من يكبرونهم!

فلو أننا وافقنا على كل ذلك، لأمكن حينئذ التخلص من القضية كلها. إلا أن كثيراً من الأشياء التي أمكن طردها من عقول الكبار، لم تكن بعد قد استقرت في عقول الصغار. اندفعت متجولا، ورويت قصتي، وتساءلت، ووجهت الاتهامات، وقمت بالأبحاث، وحاولت أن أجذب الآخرين إلى حيث كان يجري ذلك كله، وكادت تقتلني الرغبة في أن أدل كل فرد على المكان الذي كنت أقف فيه، والمكان الذي كان يحتله الكلاب السبعة، وبين وكيف كانوا قد رقصوا، وعزفوا موسيقاهم، ولو كان أي فرد قد صحبني بدلاً من أن يركلني ويسخر مني، فلعلني كنت قد ضحيت ببراءتي، وحاولت أن أقف بنفسي على ساقي الخلفيتين، حتى يمكنني أن أعيد تمثيل المشهد بوضوح. إن الأطفال ليوبخون الآن على كل ما يأتونه من أفعال،

لكن يُصنّف عنهم في النهاية بسبب أفعالهم هذه نفسها. ولقد احتفظت بخصائص طفولتي، ونموت على الرغم من ذلك، لأغدو كلبا كبيرا. حسناً، إنني ما زلت مستمراً، كما كنت في ذلك الحين، في مناقشة تلك الحادثة السابقة، نقاشاً لا يقف عند حد،- تلك الحادثة، التي يتعين على الآن أن أعترف بأنني لا أعلق عليها كبير أهمية- محللاً إياها إلى عناصرها الأصلية، متباحثاً مع من يستمعون إليّ، دون اعتبار للمجموعة التي قد أجد نفسي بينها، ناذراً وقتي كله لتلك القضية، التي أعتبرها، كما يعتبرها كل فرد آخر، قضية مخيفة، لكنني لهذا السبب نفسه -وهذا هو الفارق- كنت قد عزمت على أن أتعبها بلا كلل حتى أقف على حلها. وعلى هذا فلعلني أن أبقى حراً حتى أسترده هدوء وسعادة الحياة اليومية المألوفة، وها أنا قد عملت بجهد على الرغم من وسائل الطفولية القاصرة- ومع ذلك فليس الفارق بالغاً- منذ تلك السنوات، وما زلت أعمل حتى الآن.

إلا أن الأمر قد بدأ بتلك المعزوفة الموسيقية، ولست ألقى اللوم على تلك المعزوفة، ذلك أن طبيعتي الفطرية هي ما دفعتني إلى ذلك، ولا بد أنها كانت ستجد فرصة أخرى لتدفعني، لو لم تكن تلك المقطوعة قد عزفت، لكن حقيقة أنها كانت قد حدثت على هذا النحو المبكر، جعلتني أشعر عادة بالأسف على نفسي، فقد كانت قد استلبت جانبا كبيراً من طفولتي، من تلك الحياة الهائلة لكلب صغير، تلك الحياة التي يتمكن الكثيرون من أن يمدوا أجلها لسنوات طويلة، لكنها في حالتي لم تستمر سوى بضعة شهور قليلة فقط. هذا ما كان. ذلك أنه كانت هناك أمور أكثر أهمية من الطفولة. ولعل الطموح كان قد جنح بي إلى أبعد من مجرد مباحج الطفولة،

إلى أشياء تكتسب عن طريق حياة من العمل الشاق قد تتحملة سنوات شيخوختي بصورة أفضل مما يمكن لطاقات صباي أن تقوى عليه بالفعل، تلك الطاقات التي ستتوفر عندئذ رغم ذلك.

وبدأت تساؤلاني بأبسط الأمور، لم يكن هنالك ثمة نقص في اللوازم، بل لقد كانت الوفرة الفعلية لسوء الحظ، هي ما أصابني باليأس في أشد ساعاتي حلكة. وبدأت التساؤل حول هذه المسألة: ما الذي كان يعتمد عليه جنس الكلاب في غذائه؟ وما هي الإجابة لو شئت، فلقد تصادف أن كان السؤال بسيطاً بالطبع، ولقد كان ذلك التساؤل قد شغلنا منذ فجر التاريخ! وإنه هو الموضوع الرئيس الذي تدور حوله كل أفكارنا، ولقد تم نشر ما لا حصر له من الملاحظات والمقالات، ووجهات النظر حول ذلك الموضوع، حتى لقد أسفر ذلك عن عالم من المعرفة، كان في ضخامته المهولة، ليس فقط فوق متناول إدراك أي دارس فرد، لكن فوق متناول إدراك كل باحثينا مجتمعين! عبء لا يمكن أن يضطلع به سوى مجتمع الكلاب بأسره، وحتى حينئذ فلن يكون الأمر سهلاً، ولن يتحقق إنجازة سوى بصورة جزئية، لأنه يتبدد دائماً وأبداً كميراث قديم مهمل، ولا بد من أن يرد إليه اعتباره دائماً بهمة من جديد، ولا مجال مطلقاً للحديث عن الصعوبات، أو عن النقاط التي لم تستوف غالباً من أبحاثي. ولا حاجة بأحد لأن يلفت نظري إلى كل تلك الأشياء، فإنني أعرفها جميعاً بنفس الدرجة التي يمكن أن يعرفها عليها أي كلب آخر دنيوي عادي، وليس لي أي مطمح يمكنني أن أتوسل إليه عن طريق المسائل العلمية الحقيقية، فإن لدي كل الاحترام للمعرفة، كل الاحترام الذي تستحقه! لكن لكي أزداد

معرفة فإن الإمكانات تنقصني، وتنقصني المثابرة والوقت، ولا يقل عن ذلك، خاصة خلال السنوات القليلة الماضية الرغبة أيضًا. لقد التهمت طعامي، إلا أن أقل ملاحظة نظرية بدائية لذلك من زاوية الاقتصاد السياسي لم تكن تبدو لي جدية بالتوقف لحظة واحدة. وفي هذا الصدد فإن جوهر المعرفة جميعها يكفيني منه تلك القاعدة البسيطة التي تبعها لها ترضع الأم صغارها من ثدييها، وتدفع بهم إلى العالم قائلة لهم: هيا.. قوموا برّي الأرض، بقدر ما يسعكم أن تفعلوا ذلك! أليس كل شيء قد تضمنته على الأغلب تلك القاعدة؟ فما الذي بدأ البحث العلمي منذ آبائنا الأوائل من الأمور ذات الأهمية البالغة حتى يضاف إلى ذلك؟! مجرد تفاصيل! مجرد تفاصيل! وحتى هذه التفاصيل مشكوك في أمرها الآن، لكن ستظل تلك القاعدة باقية طالما بقينا كلابًا. إنها تتعلق بغذائنا الأساسي: حقًا، إن لنا أيضًا مصادر أخرى، لكن فقط عندما تمس الحاجة، فلو لم يكن العام سيئًا غاية السوء، ففي وسعنا أن نحيا على هذا الغذاء الأساسي، وإننا لنجده في الأرض، لكن الأرض تحتاج إلى مياهنا لترتوي بها، وفي مقابل هذا الثمن فقط تمدنا بطعامنا، الذي يمكنه أن يظهر -رغم ذلك، ولا يجب علينا أن ننسى هذا- على وجه السرعة بتعاويز خاصة، وأغان وطقوس دينية. وهذا في رأيي هو كل شيء، وليس ثمة شيء آخر يمكن اعتباره أساسيًا يسعنا أن نذكره في هذا الصدد. وإنني في رأيي هذا -علاوة على ذلك- لمتفق مع الأغلبية الساحقة لمجتمع الكلاب. ويتعين عليّ بشدة أن أفصل نفسي عن كل وجهات النظر الخاطئة حول هذه النقطة، وأعلن بأمانة تامة أنه ليس لي ثمة مطمح حتى أبدو غريبًا فيما أسوقه من أقوال، أو أن أبدو في موقف

صاحب الحق ضد الأغلبية. وإنني أكون سعيدًا فقط إذا أمكنني أن أتفق مع رفاقي، كما أفعل في هذه الحالة، وإن تساؤلاتي مع ذلك تتجه اتجاهها آخر. وتدلني ملاحظاتي الخاصة على أن الأرض حينما تروى، وتحترق تبعاً للقواعد العلمية، فإنها تنبت الطعام، وإنها لتنبت فوق ذلك، بمثل تلك الجودة، وبتلك الوفرة، وتبعاً لتلك الأساليب، وفي مثل تلك الأماكن، وفي تلك الأوقات التي ترجع كلها أو بعضها للقوانين التي أرسيت طبقاً لمقتضيات العلم. إنني أوافق على ذلك كله، وإن تساؤلي على الرغم من ذلك، هو ما يلي:

من أين تأتي الأرض بذلك الطعام؟.

سؤال يدعي الناس عمومًا أنهم لا يفهمونه، وتعد أفضل الإجابات التي يمكن أن يجيبوا بها عنه هي ما يلي: إن لم يكن لديك كفايتك من الطعام، فلسوف نعطيك بعضاً مما لدينا! فلتأمل الآن هذه الإجابة، إنني أعرف أنه ليس من بين خصال مملكة الكلاب أن يشارك الآخرون امرأ في طعامه الذي اتفق له أن حصل عليه! إن الحياة قاسية، والأرض عنيدة، والعلم غني بالافتراضات، لكنه فقير في النتائج العلمية. وكل من يمتلك طعاماً يحتفظ به لنفسه، وليست هذه أنانية، بل إنها على العكس، قانون الكلاب! القرار الذي أجمعت عليه الجماهير، والنتيجة التي نتجت عن انتصارهم على حب الذات، ذلك أن الملاك قلائل دائماً، ولهذا السبب فإن الإجابة بـ «إن لم تجد ما تأكله، فسوف نعطيك بعضاً مما لدينا» ما هي إلا صورة من صور التهكم! إنني لم أنس ذلك. بل إن شدة أهميتها كانت تبدو لي، عندما كنت أندفع في كل مكان بتساؤلاتي خلال تلك الأيام، حين

كانوا يتجاهلون تلك المزحة بنفس الإصرار الذي كنت أنا أتعلق به بتلك المزحة نفسها. حقًا، إنهم لم يقدموا لي بالفعل شيئًا لأكله - فأين كانوا قد حصلوا عليه حينئذ؟ - وحتى لو كان قد تصادف أن امتلك أحدهم شيئًا آخر. إلا أنهم كانوا جميعًا قد قصدوا بغاية الجدية ما كانوا قد قالوه، عندما كانوا قد تقدموا بالدعوة! وكان لي هنا وهناك بالفعل للحقيقة، أن أختطف حينذاك بعض الطعام القليل، لو أنني فقط كنت متمكنًا بما يكفي لي لكي أنجح في اختطافه بغاية السرعة. فكيف حدث أن عاملني الناس على ذلك النحو الغريب؟ ولماذا دللوني؟ ولماذا قدموا لي يد المساعدة؟ هل كان ذلك لأنني كنت كلبًا بائسًا، سيئ التغذية، ومحرومًا من كل الاحتياجات الضرورية؟ لكن يوجد ما لا حصر له من الكلاب سيئ التغذية الذين يتجولون في كل مكان، وإن هذه الكلاب الأخرى لتختطف حتى أقذر الفتات من تحت أنوفها ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، لا بسبب الشراهة، بل بدافع الاضطرار والحاجة عموماً! لا، إنهم يعاملونني برقة خاصة، وليس في استطاعتي أن أدلل على ذلك ببراهين مفصلة، إلا أن لديَّ اعتقادًا ثابتًا على أن الأمر كذلك. فهل كانت أسئتي هي السبب إذن، وهل بعثت فيهم السرور؟ أو اعتبروها دليلًا على ذكاء خارق؟ لا، إن أسئتي لم تجلب لهم السرور، بل لقد كانت تبدو دائمًا على درجة من الغباء. لكن أسئتي تلك، قد تكون تسببت رغم ذلك في لفت أنظارهم إليَّ. لقد بدا الأمر كما لو أنهم كانوا يفضلون أن يفعلوا المستحيل، ليسدوا فمي بالطعام - إنهم لم يفعلوا ذلك، إلا أنهم يتمنون لو يفعلونه - عن أن يحتملوا تساؤلاتي. لكن لعله كان من الأفضل لهم في تلك الحالة أن يطردوني بعيدًا؛ لأنني كنت

بالذات أثير التساؤلات. ولقد كانت تلك الفترة -التي قوبلت فيها بكثير من السخرية، وعوملت في أثنائها على أنني جرو سخيف، ودفعت هنا، ودفعت هناك- هي الفترة التي تمتعت فيها مع ذلك بالفعل بأكبر قدر من التقدير العام، ولن يتسنى لي أن أتمتع ثانية بشيء كهذا، فلقد كانت لي حرية دخول أي مكان، ولم تكن توضع في سبيلي أية عقبات، وكان يكال لي المديح بالفعل، رغم أن ذلك المديح كان يختفي في ثوب من الوقاحة. وقد كان هذا كله في الحقيقة، بسبب تساؤلاتي، وبسبب تضجري، وبسبب تعطشي إلى المعرفة. فهل قصدوا أن يهددوني حتى أستنيم؟ أن يصرفوني بالتودد ودونما عنف عن طريق زائف، لكنه ليس بالغ الزيف إلى أقصى حد، ذلك لأن العنف كان ممكناً؟ ولعل تقديرًا ما، وخوفًا أيضًا قد حال بينهم وبين استخدام العنف معي. ولقد تكهنت في تلك الأيام بشيء من ذلك، لكنني الآن أدركه تمامًا، وأعرفه معرفة تفوق كثيرًا معرفة هؤلاء الذين استخدموا تلك الأساليب بالفعل في ذلك الحين: فما كانوا يقصدونه كان في الحقيقة، أن يصرفوني عن طريقي، لكنهم لم يفلحوا، بل لقد انتهوا إلى عكس ما تمنوا، فقد ازدادت حدة انتباهي، وأصبح واضحًا لي -بالإضافة إلى ذلك- أنني كنت من يحاول إغواء الآخرين، وأنني كنت قد نجحت بالفعل إلى حد ما. ولقد أصبحت قادرًا على فهم تساؤلاتي الشخصية فقط بمعونة عالم الكلاب كله. فمثلاً، عندما تساءلت: من أين جاءت الأرض بهذا الطعام؟ هل كنت مهمومًا بأمر الأرض؟ أو كنت منزعجًا بشأن من يعملون في الأرض؟ لا، مطلقاً، فلقد كان ذلك كما أدركت من فوري بعيداً كل البعيد عما يدور في رأسي، وكل ما كنت مشغولاً بأمره هو جنس الكلاب فقط،

جنس الكلاب ولا شيء سواه. لأنه ماذا هناك بالفعل سوى جنسنا نحن؟ ولأي جنس آخر يلجأ المرء في هذه الدنيا الواسعة الخاوية؟ إن المعرفة كلها، حصيلة كل تساؤلات والأجوبة عليها، إنما يتضمنها وجود الكلب! فلو أمكن للمرء أن يدرك هذه المعرفة، ولو أمكن للمرء أن يتفحصها في ضوء النهار، ولو أننا نحن الكلاب نقر بأننا نعرف إلى حد أبعد مما نسمح به لأنفسنا. فحتى أكثر الكلاب ثرثرة هو أكثر الكلاب تكتما بشأن معرفته بالأماكن التي يمكن أن يوجد بها الطعام الجيد، وإنك لتقترب في حذر من رفيقك الكلب، وأنت ترتعش بالرغبة، وتسوط نفسك بذيلك، وتسال، وترجو، وتنبج، وتعقر، وتحقق، وتحقق ما كان في وسعك تمامًا أن تحققه دون أي مجهود: اهتمام ودود، وصلة صداقة، وتوافق مخلص وتعانق حار، يجمع هذا الخليط في كل واحد. إن كل شيء قد وجه في اتجاه تحقيق متعة ما، مفقودة ومكتشفة مرة أخرى، إلا أن الشيء الوحيد الذي تتوق إلى أن تناله قبل كل شيء آخر هو التسليم بالمعرفة، ذلك التسليم الذي يظل أبدًا ممتنعا عليك، على مثل تلك الصلوات سواء كانت مهموسة أو معلنة جهرا، يكون الرد الوحيد الذي تتلقاه، حتى بعد أن تكون قد استخدمت كل قواك على الإغراء إلى أقصى حدودها، حملقات فارغة، ونظرات زائغة، وعيون مضطربة مطرقة. إن هذا هو نفس ما خبرته، عندما هتفت، وأنا بعد مجرد جرو، إلى الكلاب الموسيقية ولزمت الصمت.

والآن قد يقول قائل: إنك تزعج نفسك بسبب رفاقك الكلاب! بسبب صمتهم أمام الأسئلة الحرجة! وإنك لتزعم، بأنهم يعرفون أكثر مما يسلمون به! يعرفون أكثر مما يتسنى لهم أن يعترفوا بصحته، وأن صمتهم ذاك، ذلك

السبب السحري الذي يرجع إليه أيضًا، بالطبع، وجود السموم، في سرية وتكتم، حتى أنك لا يمكنك أن تحتملها، ويتعين عليك لهذا إما أن تغيرها أو.. أن تقضي بسببها. ربما كان الأمر كذلك، إلا أنك كلب أنت نفسك، وإنك لتمتلك أيضًا معرفة الكلاب، فلتعلنها، لا في صيغة سؤال فحسب، بل في صيغة رد! فلو نطقت به، فمن ذا الذي سيفكر في معارضتك؟ إن جوقة الكلاب سوف تنضم إليك، كما لو أنها كانت تنتظرك، ثم إنك لتحوز الوضوح حينئذ والصدق والمجاهرة، كما يتمناها الكثيرون منهم مثلما يتمناها. ولسوف يفتح سقف هذه الحياة الحقيرة، التي قلت عنها أمثال أقوالك القاسية تلك كلها! وسوف نرتقي جميعا، قمة شعاع الحرية. ولو لم يقدر لنا بلوغ تلك الغاية النهائية، ولو بقيت الأشياء أسوأ مما كانت عليه من قبل، ولو أن الحقيقة الكاملة أصبحت أشد وطأة علينا من بعضها، ولو قدر للصمت أن يثبت أنه كان إلى اليمين كباقي حراس الوجود، ولو أن الأمل الضعيف في أننا ما زلنا نمتلكه قد يمهد السبيل إلى اليأس التام، فإن التجربة ما زالت تستحق المحاولة، طالما أنك لا ترغب في أن تعيش على النحو الذي تجد نفسك مضطرا إلى أن تعيش عليه! حسنا، فلماذا إذن تلوم الآخرين لأنهم صامتون، فيما تظل صامتا أنت نفسك؟ تسهل الإجابة على ذلك: لأنني كلب، محكوم عليّ في جوهرى بالصمت كالآخرين، أقاوم تساؤلاتي الشخصية في عناد بسبب الخوف! وباختصار، هل كنت قد سألت رفاقي الكلاب، منذ سنوات نضجي على الأقل، على أمل أنهم قد يجيبون على تساؤلاتي؟ هل كان لديّ مثل ذلك الأمل الأحمق؟ وهل يمكنني أن أتأمل أسس وجودنا، وأن أكتشف غموضها، وأن أرقب جهود

بناء كل تلك الأسس، تلك الجهود الشاقة، ثم أتوقع أن تهمل تلك الجهود كلها، ولا تنتهي إلى تحقيق غايتها، لأنني ببساطة قد وجهت سؤالاً؟ لا، ذلك ما لم أعد أنتظره في الحقيقة! إنني أفهم رفاقي الكلاب، وإن لحي من لحمهم، من لحمهم البائس، المتجدد دائماً، الراغب دائماً. إلا أنه ليس فقط اللحم والدم ما يوحدنا، لكن توحدنا المعرفة أيضاً، وليست المعرفة فقط، بل المفتاح الموصل إليها كذلك. إنني لا أملك ذلك المفتاح، إلا بالاشتراك مع جميع الآخرين. ولا يمكنني أن أمتلكه دون مساعدتهم، وإن أصلب العظام التي تنطوي على أشهى النخاع، لا يمكن لها أن تتفتت سوى بقرص كل أنياب الكلاب متضامنة بأجمعها. وهذا بالطبع، ليس سوى صورة من صور التعبير، وهي صورة مبالغ فيها، فلو كانت الأنياب جميعاً فقط على أهبة الاستعداد، لما كان عليها حتى أن تعقر عقرة واحدة، ذلك أن العظام ستتشقق عندئذ من نفسها، وسوف يصبح النخاع في متناول أضعف كلب. ولو أنني بقيت مخلصاً لذلك التشبيه، فإن غاية أهدافي حينئذ وتساؤلاتي وتحرياتي تبدو شاذة!، ذلك حق، لأنني أريد أن أجبر كل الكلاب على ذلك، على أن يحتشدوا معاً، وأنني أريد للعظام أن تتشقق، وتنسحق تحت ضغط ذلك الإعداد الجماعي، وحينئذ فإنني أريد أن أصرفهم إلى الحياة العادية التي يرتاحون إليها، وألحق في تلك الأثناء كل النخاع وحدي فحسب، دون كل الآخرين! إن هذا ل يبدو شاذاً، كما لو كنت أريد أن أتغذى على النخاع، ليس نخاع عظمة ما فقط، بل نخاع كل جنس الكلاب نفسه، لكنه ليس سوى مجرد تشبيه. ذلك أن نخاع الذي أتحدث عنه هنا، ليس طعاماً، بل على العكس، إنه سم.

إن تساؤلاتي قد قامت فقط بدور الحافز لي أنا نفسي. لقد أردت أن أتيح للصمت الذي يحيطني بأن يستفزني، باعتباره الرد النهائي. إلى متى ستبقى قادرًا على أن تحتل حقيقة أن عالم الكلاب، كما أوضحت ذلك في بحوثك المرة بعد الأخرى، مرهون بالصمت، ويبقى مرهونا به؟ إلى متى ستبقى قادرًا على أن تحتل تلك الحقيقة؟

هذا هو سؤال حياتي الحقيقي الخطير، الذي تتضاءل أمامه كل الأسئلة الصغيرة، وإنه سؤال قد قام لي وحدي، ولا يهم أحدًا غيري. ويمكنني لسوء الحظ أن أجيب عليه في سهولة لا تتوفر لي عندما تواجهني الأسئلة الصغيرة الواضحة، ولعني سأقاوم حتى نهاية حياتي، كما أن هدوء الشيخوخة سوف يقيم مقاومة أشد فأشد أمام كل الأسئلة المزعجة. ويبدو أنني سأموت بالفعل في صمت، وسأحاط في الواقع بالصمت، في سلام على الأغلب، وإنني لأترقب ذلك في هدوء. لقد رزقنا نحن الكلاب قلبا قويا عجيبا، وراثت من المستحيل أن تهلك قبل أوانها، كما لو كانت كلها مجرد خدعة، فنحن نستبقي كل الأسئلة حتى أسألتنا الشخصية، ولسنا سوى حصون للصمت.

ولقد أخذت أخيرًا على عاتقي أكثر فأكثر أن أتفحص حياتي منقّبًا عن الغلطة الحاسمة الأساسية، التي لا بد أنني دون ريب قد ارتكبتها، لأنني لو لم أكن قد ارتكبتها، وبقيت رغم ذلك غير قادر بالعمل الدءوب، طوال حياة مديدة على أن أحقق رغبتني، فإن ذلك سيثبت أن رغبتني رغبة مستحيلة التحقيق. ولا بد أن يتبع ذلك بأس مطبق. ولننظر بعد ذلك إلى جهود حياة بطولها. قبل كل شيء تقوم تحرياتي عن السؤال: من أين تأتي الأرض

بالغذاء الذي تمدنا به. كجرو صغير، مفهوم في أعماقه إلى الحياة، كنت قد نبذت كل المسرات، وتجنبت في توجس كل المباهج، ودفنت رأسي بين مخليّ الأماميين، عندما كنت أواجه بالمغريات، وكنت أوجه جهدي كله نحو واجبي. لم أكن باحثاً، ولا كانت لديّ النية في أن أكونه. وربما كان هذا خطأ، إلا أنه لا يمكنه أن يكون خطأ خطيراً. وكنت قد تلقيت تعليمًا بسيطاً لأنني كنت قد تركت رعاية أمي في سن مبكرة، وسرعان ما اعتدت على الاستقلال، وعشت حياة حرة، وإن الاستقلال السابق لأوانه ليضر بالتعليم النظامي، إلا أنني قد رأيت الكثير، واستمعت إلى الكثير، وتحدثت مع كلاب من كل الأنواع والأوضاع، وتفهمت كل شيء، وإنني لأدرك الأمور بذكاء لا بأس به، وأربط ملاحظاتي الغريبة بذكاء لا بأس به، ولقد عوضني هذا عن نقص تعليمي، بصرف النظر عن ذلك الاستقلال الذي إذا كان نقيصة في دراسة الأمور، فإنه ميزة فعلية إذا ما كان المرء لا يقوم سوى بتحرياته الخاصة. ولقد كان ضروريا للغاية في حالتي، بما أنني كنت عاجزا عن استخدام الأسلوب العلمي الحقيقي؛ لكي أستفيد من جهود أسلافي، وأن أنشئ علاقة بالبحوث المعاصرة. لقد كنت رافضا كلية لكل مصادري، وبدأت من بداية البداية، وبالوعي الملهم للشباب، والمتعارض كلية مع العمر، الوعي بأن تلك النقطة العارضة التي من أجلها قمت بجهودي كلها، كان لا بد لها أيضًا أن تكون النقطة الأخيرة! فهل كنت حقًا وحيدًا إلى ذلك الحد في تحرياتي، في البداية، ومنذ ذلك الحين حتى الآن؟ نعم، ولا، فلا يمكن تصور أنه لا يجب دائمًا أن يكون هناك، وأنه ليس هناك اليوم كلاب فردية في نفس حالتي، ولا يمكن أن تكون اللعنة

قد لحقتني إلى ذلك الحد. ذلك أنني لم أحذ عن طبيعة الكلاب قيد شعرة، فلدى كل كلب ما يبعثه مثلي على التساؤل، وإلا فكيف أمكن لأسئلي أن تضايق مستمعي أدنى مضايقة - ويجب على أن أعترف بأنهم كانوا غالباً يضيقون بها لسروري المذهل الزائد عن الحد - وإلا فكيف أمكن تعطيلي عن تحقيق أكثر ما أمكنني تحقيقه بالفعل؟ كما أن كوني قد اضطررت إلى أن أبقى صامتاً أمر لا يحتاج لسوء الحظ إلى برهان خاص. إنني في أعماقي إذن لست مختلفاً عن أي كلب آخر، عن كل كلب آخر، بصرف النظر عن احتمال اختلافه معي في الرأي، أو حتى عن رفضه التام لوجهة نظري، فلسوف يوافقني على ذلك في سرور، وسوف أوافق بدوري كأني كلب آخر. لكن ما يختلف هو فقط أسلوب تركيب العناصر، وإنه ل يختلف في حالة الفردي، اختلافاً مهماً، ومتميزاً بقياسه إلى الجنس. وكيف يمكن للمرء أن يثق بأن المركب المكون من تلك العناصر المتاحة لم يحدث أن تصادف وجوده خلال الماضي كله والحاضر، حتى ينتج عنه مركب شبيه بمركبي، والمرء، بالإضافة إلى ذلك، فيما لو نظر إلى مركبي على أنه سوء حظ، يعد سيئ الحظ لا يزال؟ ولو اعتقدت في ذلك، فسوف يكون اعتقادي نقيضاً لخبرتي كلها. وإننا لمتعلقون نحن الكلاب بأغرب المهن، مهن يرفض المرء أن يؤمن بها، لو لم تكن لدى المرء معظم التعليمات التي يركن إليها بخصوصها. وإن أفضل مثال يمكنني أن أقتبسه هو ذلك المثال عن الكلب المحلق. فعندما سمعت عن أحد هذه الكلاب للمرة الأولى، ضحكت، ورفضت ببساطة أن أصدق! لماذا؟ لقد كان مطلوباً من المرء أن يصدق في وجود أنواع ضئيلة من الكلاب، لم يكن الواحد

منها ليزيد عن حجم رأسي، حتى ولو كان الكلب من ذلك النوع قد بلغ من النمو غايته! وهذا الكلب الذي لا بد سيكون مخلوقاً ضعيفاً مرفهاً هشاً مزينا ممشطاً، معقوص الشعر بمختلف الأشكال، عاجزاً عن أن يشب وثبة حقيقية. والكلب من هذا النوع، كان هو الكلب الوحيد المقدر له تبعاً لحكايات الناس أن يبقى في غالب الأحيان مرتفعاً في الهواء، لا يفعل فيما يبدو شيئاً مطلقاً، سوى مجرد الراحة هناك؟ قلت لنفسي لا، إن محاولتك أن تجعلني أبتلع مثل هذه الأشياء إنما هو استغلال غاية في الشناعة لبراءة كلب صغير. إلا أنني سمعت من مصدر آخر بعد ذلك بفترة قصيرة عن كلب محلق آخر، فهل يمكن أن يكون هناك مؤامرة لخداعي؟ لكن أتيح لي بعد ذلك أن أرى الكلاب الموسيقية بعيني رأسي، ومن يومها اقتنعت بإمكان وجود كل شيء، ولم تكن لديّ حينذاك أية آراء متعصبة يمكنها أن تعوق قدراتي على التفكير، فلقد كنت قد تفحصت أكثر الإشاعات ضلالاً، متعقباً إياها إلى أقصى ما يمكنها أن تستدرجني إليه، ولقد بدا لي وجود أكثر من هذه الشائعات ضلالاً في هذا العالم غير المعقول، أكثر احتمالاً من الأمور المعقولة، وقد بدت لي علاوة على ذلك جديرة بالبحث بصفة خاصة. وكذلك كان الأمر فيما يختص بالكلاب المحلقة هي أيضاً. ولقد اكتشفت أشياء كثيرة جداً بشأنها، حقاً إنني لم أفلح إلى اليوم في رؤية واحد من تلك الكلاب، إلا أنني كنت مقتنعة لفترة طويلة، غاية الاقتناع بوجودها، ولقد كانت تحتل مكاناً مهماً من تصوري للعالم. ولم يكن أسلوبهم في الحياة بالطبع هو ما دفعني إلى التفكير كما جرت العادة، وإنه لأمر بالغ الروعة - من ذا الذي يمكنه أن يخالف ذلك؟ - أن تلك الكلاب

كانت قادرة على أن تحلق في الفضاء، وإنني لمتفق في إعجابي الحائر بذلك الأمر مع رفاقي الكلاب. إلا أن اللامعقولية، لا معقولية وجودهم ذاك، هي ما كانت أشد الأمور غرابة في تقديري. فلم تكن تربطهم أية صلة مطلقاً بحياة المجتمع العامة، فقط كانوا يحلقون في الفضاء، وكان هذا هو كل ما في الأمر، بينما كانت الحياة تسير في طريقها المعتاد، وأحياناً ما كان يلمح امرؤ بين الحين والآخر إلى الفن والفنانين، إلا أن كل شيء كان ينتهي عند هذا الحد. لكن لماذا أيها الكلاب الطيبون؟ لماذا بحق الجحيم تحلق تلك الكلاب عاليًا في السماء؟ وما هو الهدف الذي يكمن خلف سلوكهم ذاك؟ ولماذا لا يتمكن المرء من العثور على كلمة واحدة لتفسير وضعهم؟ لماذا يحلقون هنالك في أعلى، مطوحين بسيقانهم التي هي فخر عالم الكلاب، إلى زوايا الإهمال، محتفظين من الأرض المعطاة بسبب حاصدين دون أن يبدروا؟ متمتعين على وجه الخصوص بكفائتهم، على حسب ما بلغني، وعلى حساب مجتمع الكلاب أيضًا. يمكنني أن أزهو بنفسى زعمًا بأن تحرياتي عن كل تلك الأشياء قد أسفرت عن شيء من النشاط، وانشغل الناس بالبحث انسياقاً مع الموضة عن الحقيقة، ولقد كانوا على الأقل قد بدأوا على الرغم من أنهم لم يكونوا فيما يبدو ليذهبوا إلى أبعد من تلك البداية. إلا أن ذلك كان في نهاية الأمر «شيء خيرًا من لا شيء». ورغم أن الحقيقة لم تكن لتكتشف بمثل تلك الوسائل -ولا كان ممكناً حتى بلوغ تلك المرحلة- إلا أن تلك الوسائل قد ألفت بعضها من الضوء على عدد من جذور الزيف الأبعد غورا. ذلك أن أشد ظواهر وجودنا لا معقولية والظاهرة التي تفوق لا معقوليتها كل ما عداها إنما هي

حساسية البحث، لا حساسيته التامة بالطبع -وتلك هي الخدعة الجهنمية- لكن حساسيته الكافية لكي تجنب المرء مشقة التساؤلات المؤلمة. ولتأخذ الكلاب المحلقة مرة أخرى كمثال، فهم غير مترفعين كما يمكن للمرء أن يتصور ذلك للوهلة الأولى، بل يعتمدون على نحو ما على رفاقهم الكلاب بصفة خاصة. ولسوف يدرك المرء ذلك، لو أنه حاول أن يضع نفسه في مكانهم، ذلك أنهم مضطرون إلى أن يبذلوا كل ما في وسعهم لكي يلتمسوا لأنفسهم الأعذار، بطريقة غير مباشرة -وسوف يعد ذلك انتهاكا لطلب التزام الصمت- فلا بد لهم أن يبذلوا كل ما في وسعهم لالتماس العذر لأسلوبهم في الحياة، أو لصرف الأنظار بعيداً عنه، حتى يمكن نسيانه -هذا هو ما يفعلونه، كما بلغني، بأساليب متحذقة لا يمكن احتمالها في أغلب الأحيان، إنهم يتحدثون على الدوام، حيناً، عن تأملاتهم الفلسفية، التي يمكنهم، وقد رفضوا كلية الإجهاد الجسماني، أن يشغلوا بها أنفسهم على الدوام، وحيناً عن الملاحظات التي أمكنهم أن يقوموا بها من مراكزهم الرفيعة، مع أنهم غير معدودين باعتبارهم قوة ثقافية، كما يتضح جيداً من النظر إلى وجودهم الكسول، ومع أن فلسفتهم لا قيمة لها كملاحظاتهم، وأن العالم لا يمكنه غالباً أن يفيد من ثراثهم، وأنه بالإضافة إلى ذلك غير ملزم بأن يستعين بمثل تلك المصادر الوضيعة، بصرف النظر عما قد يتلقاه المرء دائماً كإجابة، لو أنه تساءل عما تقوم بعمله تلك الكلاب بالفعل، من أنهم يسهمون مساهمة كبيرة في المعرفة. وقد يلاحظ امرؤ قائلاً: هذا حق، إلا أن مساهمتهم لا طائل من ورائها، كما أنها مرهقة. وستكون الإجابة على ذلك، هزة الكتفين، أو تغيير الموضوع، أو تبرماً، أو ضحكة، وبعد

فترة قصيرة، لو أنك تساءلت ثانية، فستعرف مرة أخرى أنهم يسهمون في المعرفة، وعندما يوجه إليك السؤال نفسه في النهاية، فسوف تجيب أنت بنفسك، إن لم تكن حريصًا، نفس الإجابة!

وربما يكون من المستحسن حقًا ألا تكون عنيدًا إلى ذلك الحد، وأن تنزل على رأى الأغلبية، وأن تتقبل وجود الكلاب المحلقة، دون أن تتبين حقهم في الوجود، الذي لن يسعك أن تتبينه، إلا أنك ستساهل معهم. لكن لا يجب أن يطلب منك أكثر من ذلك، فذلك سيكون شططًا كبيرًا، ومع ذلك فقد أعلن الطلب! ولقد طلب منا دائمًا أن نحتمل الكلاب الجديدة المحلقة التي كانت تظهر دائمًا. ولم يكن المرء ليُدري حتى من أين كانوا يأتون. فهل تتضاعف هذه الكلاب بالتكاثر؟ وهل لديهم حقًا لمقدرة على ذلك؟ ذلك أنهم لم يكونوا أبدًا سوى فروة من الشعر، وماذا هناك في تلك الفروة حتى يمكنها أن تتكاثر؟ لكن حتى لو كانت تلك الملامسة غير المعقولة، ممكنة الحدوث، فمتى حدثت؟ ذلك أنهم كانوا يشاهدون دائمًا متوحدين، يحلقون عاليًا في الهواء في همة ذاتية، ولو قدر لهم أن هبطوا ذات مرة في وقت من الأوقات ليسيروا قليلًا، فإن ذلك لم يكن ليستمّر سوى دقيقة أو دقيقتين، خطوات قليلة مزهوة، ثم بعدها يعودون ثانية إلى الوحدة التامة، مستغرقين فيما يقال إنه أفكار عميقة، لا يمكنهم أن يخلصوا أنفسهم منها حتى ولو أجهدوا أنفسهم إلى أقصى حد في محاولة الخلاص من أفكارهم تلك، أو.. هذا هو على الأقل ما يقولونه هم. لكن لو أنهم لم يكونوا ليتكاثروا، فهل من المعقول وجود كلاب يمكنها أن تهجر الحياة طوعا فوق الأرض الصلبة، وتصبح كلابًا محلقة عن طيب خاطر، وليس

سوى من أجل الرضا عن النفس، وتحقيق نوع من الإنجاز الذي يتصف بالمهارة، تختار تلك الحياة الفارغة فوق الوسائد هنالك في الأعلى؟ إنها لحماقة، فليس التكاثر معقولا، لا هو ولا التحول الاختياري، ومع ذلك فإن الحقائق توضح أن هناك دائمة كلابا جديدة محلقة مشهودة، وعلى المرء لذلك أن يستنتج أنه على الرغم من العقبات التي تبدو وكأنها لا يمكن أن تذلل بالنسبة لإدراكنا، فإن جنسا من أجناس الكلاب لا يمكنه أن ينقرض مهما كان متطفلا، ما دام قد وجد ذات مرة، أو أنه لا يمكنه على الأقل أن ينقرض دون صراع رهيب، ودون أن يتمكن من أن يحقق لنفسه دفاعا فعلا ينجح في أن يثبت طويلا.

فلو كان ذلك صحيحا بالنسبة لمثل تلك الأجناس الطارئة شديدة الغرابة العاجزة كجنس الكلاب المحلقة، فهل تراني غير مجبر على قبوله باعتباره صحيحا فيما يتعلق بحالتي؟ وبالإضافة إلى ذلك، فلست أبدو غريب الأطوال مطلقا، بل كلبا عاديا من الطبقة المتوسطة، مثلي مثل معظم الكلاب التي تنتشر هنا على الأقل، ولست مستثنى بصفة خاصة، بأي حال من الأحوال، كما أنني لست منفرا كذلك مطلقا، ففي شبابي، وفي مرحلة بلوغي أيضا إلى حد ما، كنت على قدر ما أتيح لي أن أتجول، وأن أحصل على قدر من التجارب، معدودا باعتباري كلبا غاية في الوسامة. فلقد كان منظري من الأمام بديعا على نحو خاص، وكانت سيقاني الرشيقية، وتكوين رأسي الرائع، وفروتي الفضية البيضاء والصفراء، التي كانت تتلوى فقط عند أطراف الشعر، كلها كانت تبعث كذلك على السرور، وفي ذلك كله لم يكن هنالك ثمة ما هو غريب، كان الشيء الغريب الوحيد هو طبيعتي،

لكن حتى ذلك، وهو ما أحرص دائماً على أن أذكره، كان له أساسه في طبيعة عالم الكلاب. والآن فلو لم تكن حتى الكلاب المحلقة في وحدة، بل أمكنها أن تواجه دوماً رفقاءها في مكان أو آخر من عالم الكلاب، وأن تلتمس من العدم أجيالاً من جلدتها، فإنني أيضاً يمكنني إذن أن أعيش مقتنعاً بأنني لست منبوذاً تماماً. ولا شك أن مصير أمثالي من الكلاب لا بد أن يكون مصيراً غريباً، وأن وجود زملائي لا يمكنه أن يكون ذا عون ملحوظ لي لغير سبب آخر سوى أنني لن أتمكن من أن أميزهم عن سواهم. إننا نحن الكلاب الذين سحقهم الصمت، والذين يتوقون إلى أن يتخطوه، فقط من أجل أن نحصل على شيء من الهواء النقي، ويبدو الآخرون وكأنهم قد نجحوا في أن يتغلبوا على الصمت، حقاً، إنهم يبدوون كذلك فقط في ظاهريهم، كما في حالة الكلاب الموسيقية، الذين كانوا هادئين تماماً في ظاهريهم عندما قاموا بعرض لعبتهم، لكنهم كانوا في الحقيقة في حالة من التأثر الشديد، وبصرف النظر عن أن التوهم كان غاية في القوة، فلقد حاول المرء أن يتخطى ذلك التوهم، لكنه سخر من كل محاولة. فأية معونة إذن تلك الذي وجدها زملائي؟ وما هو نوع تلك المحاولات التي قاموا بها حتى يمكنهم أن يستمروا في مواصلة الحياة على الرغم من كل شيء؟ من الممكن أن تكون لتلك المحاولات أنواع عدة. ولقد كانت دوامة تساؤلاتي الخاصة عندما كنت صغيراً واحدة من تلك الأنواع. وعلى هذا فقد فكرت في أنني ربما لو كنت قد اشتركت مع هؤلاء الذين تساءلوا كثيراً من التساؤلات، فلعلني أن أكون قد عثرت فيهم على رفاقي. حسناً، لقد فعلت ذلك لبعض الوقت بغاية ضبط النفس، ضبط النفس الذي قام

بالضرورة تبعاً للضيق الذي أحسسته عندما أزعجت بالأسئلة المتواصلة التي لم أكن أتمكن على الأغلب من أن أجيب عليها فيما بيني وبين نفسي: ذلك أن الشيء الوحيد الذي كان يهمني هو أن أجد الإجابات. وعلاوة على ذلك، فمن ذا الذي لا يشوقه أن يوجه الأسئلة عندما يكون صغيراً، وكيف يمكنك عندما تثار مثل تلك الأسئلة كلها أن تستخلص من بينها الأسئلة الصحيحة، ويبدو كل سؤال شبيهاً بالآخر، والمهم هو القصد، إلا أن ذلك القصد غالباً ما يكون مستغلماً حتى على من يُوجّه السؤال نفسه. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الغريب في أمر الكلاب أن يكونوا متوجهين دائماً بالأسئلة، وإنهم ليوجهونها جميعاً لبعضهم البعض في انفعال، وإنهم ليليدون هم يفعلون ذلك، كما لو كانوا يحاولون أن يطمسوا كل أثر للأسئلة الحقيقية! لا، إن زملائي الحقيقيين لم يكونوا ليتواجدوا ضمن المتسائلين الشبان، كما أنهم قليلاً ما يتواجدون بين المسنين والصامتين، فإلى من أنتهي الآن؟ لكن يالها من أسئلة قيمة جميعها؛ لأنها كانت قد غابت عني تماماً، ويبدو أن زملائي كانوا كلاباً أكثر مني مهارة، ولديهم ما يلتجئون إليه من وسائل أخرى رائعة تعينهم على احتمال هذه الحياة، وسائل مع أنهم كانوا كما يمكنني أن أقول استناداً إلى خبرتي الخاصة، يصبرون على آلامها، وهي لهذا قد تهدئهم، وقد تساعدهم على الراحة، وقد تصيبهم بالذهول، إلا أنها رغم ذلك عاجزة على كل حال كوسائلتي، لأنني أينما وجهت أنظاري فإنني لا أرى أي دليل على نجاحها. وإنني لأخشى أن يكون الشيء الأخير الذي أمل في أن أميز زملائي الحقيقيين عن طريقه هو نجاح وسائلهم. لكن أين إذن هم زملائي الحقيقيون؟ نعم، هذا هو سبب شكواي، وهذا هو لبه.

أين هم؟ في كل مكان؟ وليسوا في أي مكان. ربما كان جاري الملاصق الذي لا يبعد عني سوى ثلاث قفزات فقط واحدا منهم، فقد تبادلنا النباح معاً في أغلب الأحيان، وقد دعاني أحياناً أيضاً، مع أنني لم أدعه، فهل هو زميلي الحقيقي؟ لست أدري، وإنني لم ألحظ أي دليل على ذلك فيه بالتأكيد، إلا أن ذلك ممكن! إن ذلك ممكن، لكنه في الوقت نفسه احتمال أبعد من أي شيء آخر سواه. ويمكنني أن أسلي نفسي في غيابه مستغرقاً في خيالاتي باكتشاف أشياء عديدة فيه، يتفق تشابهها بمثلاتها عندي على نحو مريب، لكنه ما إن يقف أمامي في كل مرة حتى تتضح سخافة خيالاتي كلها، وثمة كلب عجوز، أصغر قليلاً حتى مني أنا نفسي - وأنا تجاوزاً متوسط الحجم - بني اللون، قصير الشعر، رقبته مدلاة في إرهاق، ذو مشية مضطربة، ويجر جر فوق هذا كله ساقه الخلفية اليسرى خلفه قليلاً بتأثير مرض ما. ولقد أصبحت الآن، منذ فترة طويلة، متألّفاً معه غاية الألفة، تألفت معه أكثر مما تألفت مع أي كائن آخر. إنني لسعيد وأنا أقول إن في إمكاني أن أبقى -بمشقة- على علاقة طيبة به، وعندما يبتعد، فإنني أرفع صوتي خلفه بتحيات الصداقة الزائدة، لا بدافع الود، لكن على الرغم مني؛ لأنني لو تبعته فسأجده مقرفاً كما كان. متسجباً إلى الأمام هنالك بساقه المجرجرة، وبمؤخرته شديدة التباطؤ. وأحياناً ما يبدو لي وكأنني أحاول أن أحقر نفسي عندما اعتبره بيني وبين نفسي زميلي. كما أنه لم يكن ينم في حديثه عن أي أثر للتشابه في التفكير، حقاً، إنه ماهر، ومثقف بدرجة كافية، بالنسبة إلى الحال هنا، ويمكنني أن أتعلم منه الكثير، لكن هل المهارة والثقافة هي ما أطلع إليه؟ كنا نتناقش عادة حول التساؤلات المحلية، وإنه

ليدهشني - ولقد جعلتني وحدتي أكثر وضوحا في رؤية مثل هذه الأمور - مدى الذكاء الذي قد يحتاجه حتى الكلب العادي، وفي الظروف العادية، وليس في الظروف المعاكسة، إذا تعين عليه أن يعيش حياته، وأن يدافع عن نفسه ضد أخطار الحياة المألوفة. حقًا، إن المعرفة تقدم القواعد التي يجب على المرء أن يتبعها، إلا أن مجرد إدراك تلك القواعد بصورة غير تامة، وفي إطارها الخارجي لا يعد أمرًا ميسورًا بحال من الأحوال، وحتى لو تمكن المرء بالفعل من إدراكها فإن الصعوبة الحقيقية تظل ماثلة، وهي بالتحديد تطبيق تلك القواعد على الحالات المحلية، هنا لا يتسنى لأحد على الأغلب أن يتقدم بالمعونة، وغالبا ما تأتي كل ساعة من الزمن بالجديد من الأعباء، وتأتي كل بقعة من الأرض بمشاكلها الخاصة، ولا يتسنى لأحد أن يزعم بأنه قد أقر كل شيء على أحسن وجه، وأن حياته ستطرد من الآن فصاعدا في طريقها، ولنقل، من تلقاء نفسها، حتى ولا أنا نفسي، مع أن احتياجاتي تتخلص بالفعل من يوم إلى يوم. وكل ذلك العمل الذي لا يتوقف إلى أي غاية؟ لمجرد أن يدفن المرء نفسه أعمق فأعمق، في الصمت، ذلك الصمت الذي يبدو عميقا إلى حد يستحيل معه على المرء أن يخرج منه ثانية مهما كانت المعونة التي قد يتلقاها من الغير.

إن الناس يهللون غالبًا للتقدم العام الذي حققه مجتمع الكلاب عبر الأجيال، وربما قصدوا بذلك على الأغلب التقدم في المعرفة خاصة. لا شك في أن المعرفة وأن تقدمها لا يقاوم، وإنها لتتقدم بالفعل بسرعة متزايدة، دائمًا أسرع، لكن ماذا هنالك في تقدمها ذاك حتى نمجده؟ إنه يبدو كما لو أن المرء يمجد شخصا ما؛ لأنه مع مرور الأعوام يتقدم في

العمر، ونتيجة لذلك يقترب أكثر فأكثر من الموت بسرعة متزايدة. ليست هذه المسألة سوى عملية طبيعية، وقيحة علاوة على ذلك، ولا أجد فيها شيئاً لأمجده. يمكنني فقط أن أجد انهياراً في كل مكان، وفي قلبي هذا مع ذلك لا أعني أن الأجيال التي سبقتنا كانت في جوهرها أفضل من أجيالنا، لكن كانت فقط أصغر، ولقد كانت تلك الصفة هي ميزتها العظمى. لم تكن ذاكرتهم مرهقة بأحمالها إلى هذا الحد الذي أرهقت به ذاكرتنا اليوم، ولقد كان حملهم على الكلام أمراً أكثر سهولة، وعلى الرغم من أن أحداً لم ينجح بالفعل في أن يفعل ذلك، فإن احتمال إمكان حدوثه كان أكبر. وإن هذا الإحساس بعظم الاحتمال هو حقاً ما يدفعنا بهذا العمق عندما نستمع إلى تلك الحكايات القديمة، الغريبة في بساطتها. وإننا نلتقط هنا وهناك جملة رائعة إلى حد يثير الفضول، ونود غالباً لو قفزنا عند سماعنا لها على أقدامنا، لولا شعورنا بثقل القرون فوق كواهلنا. لا، مهما كانت الاعتراضات التي قد تواجهني نظراً إلى سني، فإن الأجيال السابقة لم تكن أفضل، بل لقد كانوا في الحقيقة بمعنى ما أشد سوءاً، وأبعد ضعفاً. وحتى في تلك الأيام لم يكن المستنكرون يسيرون صراحة في الشوارع لكي يقبضوا على أي كائن، إلا أن الكلاب مع ذلك - وليس في إمكانني أن أعلن ذلك بأي طريقة أخرى - لم يكونوا بعد قد أصبحوا كليين إلى هذا الحد الذي أصبحوا عليه اليوم، كان صرح الكلية لم يزل مفككا بعضه مع بعض. وكانت الكلمة الحققة لا تزال من الممكن أن تخرع، مخططة أو معيدة تخطيط البناء، مغيرة إياه عن إرادة، محاولة إياه إلى عكسه، ولقد كانت (الكلمة) هناك، أو.. كانت قريبة غاية القرب على الأقل، أو على طرف لسان كل امرئ وكان في

وسع أي امرئ أن يتفوه بها. فماذا أصبح مصيرها اليوم؟ اليوم ربما أمكن للمرء أن ينتزع قلب أي شخص فلا يجدها. إن جيلنا ضائع، فعله أن يكون كذلك، إلا أن اللوم لا يقع عليه أكثر مما قد يقع على تلك الأجيال السابقة. ويمكنني أن أدرك التردد الذي يطبع جيلي، حقاً إنه لم يعد بعد مجرد تردد، إنه النسيان الألف، للحلم الذي تراءى ألف مرة، وتم نسيانه ألف مرة! ومن ذا الذي يسعه أن يلعننا، فقط لمجرد نسياننا للمرة الألف؟ إلا أنني أظن أنني أفهم التردد الذي طبع أجدادنا هم أيضاً، فعلنا قد سلكننا تماماً كما سلكوا، ويمكنني حقاً أن أقول: طوبى لنا أننا لم نكن لنلام وحدنا بذنبنا، وأنه يمكننا بدلاً من ذلك أن نسرع على الأغلب في صمت غير مذب نحو الموت، في عالم سوده الآخرون! ولا شك أن آباءنا الأولين عندما أخطأوا لم يكونوا قد توهموا على الأغلب أدنى وهم بأن خطأهم ذاك كان خطأ لا نهاية له. فلقد كان لا يزال في وسعهم أن يروا بالفعل مفترق الطرق. ولقد كان يبدو سهلاً أن يتراجعوا متى شاءوا ذلك، فإذا كانوا قد ترددوا في التراجع، فلقد كان ذلك فقط لأنهم رغبوا في أن يتمتعوا بحياة الكلاب لفترة قصيرة أخرى. إن حياتهم لم تكن قد أصبحت حياة الكلب الحقيقية، إلا أنها بدأت وقتها في أعينهم حياة جميلة ساحرة الصورة، فماذا يمكنها أن تكون غير ذلك، لفترة قصيرة، فترة قصيرة جداً، وعلى هذا فقد انساقوا في خطئهم إلى أبعد. أنهم لم يدركوا ما الذي كان يسعنا أن نظنه الآن متأملين مجرى التاريخ؛ بأن ذلك التغير قد بدأ في الروح قبل أن يتدئ في وجوده الملموس، وأنهم عندما بدأوا يستمتعون بحياة الكلاب، فلا بد أنهم كانوا قد تملكوا وقتها أرواح كلاب قديمة حقيقية، وكانوا بالمناسبة قرييين ما زالوا غاية القرب من نقطة

بدايتهم كما حسبوا، أو أن أعينهم وهي تتمتع بكل مسرات الحياة الكلبية حاولت أن تغويهم، لكن من ذا الذي يسعه أن يتحدث عن الشباب في ذلك الوقت من التاريخ؟ لقد كان هؤلاء هم الكلاب الشبان الحقيقيون، إلا أن طموحهم الوحيد- كان لسوء الحظ- أن يصبحوا كلاباً مسنة، شيء لم يكن يمكنهم حقاً أن يفشلوا في بلوغه، كما توضح لنا ذلك كل الأجيال الناجحة، وأجيالنا الأخيرة أكثر وضوحاً في إثبات ذلك من كل ما عداها.

إنني لم أتحدث بالطبع مع جاري في مثل هذه الأمور، إلا أنني لا أستطيع التفكير فيها غالباً إلا إذا كنت جالسا في مواجهته ذلك الكلب العجوز شائع النوع، أو حينما كنت أدفن أنفي في فروته، التي كان لها حينذاك رائحة الأشياء المخزونة المهملة. وأن أتحدث إليه، أو حتى إلى أي من الآخرين عن مثل هذه الأمور، سوف يكون جهداً عقيماً. كما أنني أعرف أي اتجاه سيتخذه النقاش. فلسوف يشير عديداً من الاعتراضات السخيفة من حين لآخر، لكنه أخيراً سوف يوافق- إن الموافقة هي أفضل أسلحة الدفاع- سوف يدفن الأمر في النهاية: فلماذا حقاً نشق على أنفسنا بنبش أمثال تلك الأمور مطلقاً؟

وعلى الرغم من هذا، فثمة تفاهم عميق بيني وبين جاري. وإنه ليزداد عمقا عن مجرد الكلمات، وسوف لا أتوانى عن التمسك بذلك، رغم أنني لا أملك أي دليل على وجوده. وربما لا يكون ثمة تفاهم مطلقاً قد قام بيني وبينه، وإنما كانت هناك فقط معاناتي من وهم شائع، ينبع من حقيقة أن ذلك الكلب كان لمدة طويلة هو الكلب الوحيد الذي قامت بيني وبينه صلة ما، وعلى هذا فإنني مضطر إلى التعلق به: هل أنت بعد كل شيء زميلي على

طريقتك الخاصة؟ وأنت خجلان لأنك قد فشلت في تحقيق كل شيء؟ انظر، إن مصيرك نفسه هو مصيري، وإنني عندما أكون وحيداً، فإنني أبكي على ذلك، ففعال، فلعله أن يكون من الأفضل لنا أن نبكي جماعة!». إن أفكارا كهذه غالباً ما تتتابني، ومن ثم فإنني أنظر إليه نظرة متصلة، إلا أنه لا يطرق بنظراته إلى أسفل، ومع ذلك فلا يسع أحداً أن يقرأ فيها أي شيء، إنه يحملق بغباء، متعجباً.. لماذا أنا صامت، ولماذا قطعت المناقشة؟ لكن لعل تلك النظرة نفسها أن تكون هي طريقته في مساءلتي، وأني قد خيبت أملي، تماماً كما خيب أملي. ولو لم أكن في أثناء شبابي مهموماً بمشكلات أخرى أكثر أهمية بالنسبة لنا حينذاك، ولو لم أكن راضياً تماماً بصحبتني الخاصة، فلعلني كنت قد سألته حينذاك صراحة من فوري، وتلقيت جواباً يريحني تماماً، ولو حدث هذا لكانت النتيجة أشد سوءاً حتى من صمت اليوم، لكن أليس كل امرئ صامتاً تماماً على نفس النحو؟ فماذا هناك ليمنعني من أن أعتقد أن كل كائن هو زميل لي بدلاً من أن أفكر في أن لي فقط واحداً أو اثنين من الزملاء المتسائلين ضائعين تماماً، ومنسبين بإنجازاتهم الضئيلة، حتى أنه لن يتسنى لي أبداً أن أعثر عليهما عن أي طريق خلال ظلام العصور، أو تشوش أضواء الحاضر: ولماذا لا أقتنع بأن كل الكلاب منذ بدء التاريخ كانوا زملائي، وأنهم كانوا جميعاً ماضين في طرقهم الخاصة، وكانوا فاشلين جميعاً في طرقهم الخاصة، وأنهم كانوا جميعاً صامتين، أو مثرثرين في زيف على طرائقهم الخاصة، كما يجدر بالبحث اليائس إلى أن ينتهي إلى مثل تلك النهاية؟ لكنني في تلك الحالة، في غير حاجة إلى أن أفصل نفسي مطلقاً عن رفقائي، ويمكنني أن أبقى في

هدوء وسط الآخرين، وفي غير حاجة إلى أن أجاهد لأشق طريقا لنفسي كطفل عنيد خلال مراتب الكبار المغلقة عليهم، هؤلاء الكبار الذين يريدون حقاً مثلما أريد أن يجدوا لأنفسهم مخرجاً، والذين يبدو وجودهم مستغلِقاً على، فقط بسبب معرفتهم، التي تنبئهم بأن أحداً لا يمكنه أن يفلت، وأنه من الغباء اللجوء إلى القوة.

مثل تلك الأفكار راجعة بالتحديد، مع ذلك، إلى تأثير جاري، فهو يشيرني ويملؤني بالكآبة، لكنه في قرارة نفسه سعيد إلى حد كاف، فغالبا ما أسمع على الأقل عندما يتواجد في نفس الأماكن التي نشأ فيها، يتصايح ويغني، وذلك ما لا يمكنني احتماله في الحقيقة. وإنه من الخير لي أن أنبذ ذلك القيد الأخير أيضاً، وأن أتوقف عن السماح للأحلام المبهمة التي تتعلق جميعاً بالكلاب التي تسخطني على نحو لا يمكن تجنبه، ولا يهم مدى التشدد الذي قد يتصف به المرء، وأن أنفق الوقت القصير الذي لا يزال يتبقى أمامي كلية في متابعة أبحاثي. ولسوف أنفلت مبتعداً عندما يجيء في المرة القادمة، أو أظهار بأنني مستغرق في النوم، وأبقى متصنعاً ذلك التظاهر حتى ينهي زيارته لي.

ولقد أصبحت أبحاثي متقطعة هي أيضاً، لقد استرخيت، وأصابني الإنهاك، وإنني لأخرب بطريقة تلقائية إلى حيث ركضت جرياً ذات مرة في حماس، متفكراً في الفترة التي بدأت فيها التحري عن إجابة السؤال: من أين تأتي التربة بذلك الطعام؟ ثم عشت بالفعل، في الحقيقة وسط الناس، وشققت طريقي حيث تكاثفت الحشود، راغباً أن ترى المجموع عملي، وأن يكونوا شهودي، ولقد كان شهود عملي هؤلاء أكثر أهمية في نظري حتى

من عملي نفسه، وما زلت أتوقع أن أحدث أثراً أو آخر، ولقد زودني هذا بالطبع بالدافع الهائل، الذي تبدد الآن لكوني وحيداً، إلا أنني كنت مفعماً بالقوة في تلك الأيام إلى أقصى حد، حتى أنني حققت شيئاً لم يسبق له مثيل، شيئاً مخالفاً لكل قوانيننا، وإن معرفتنا العلمية التي تهدف عموماً إلى أقصى درجات التخصص، هي بدرجة ملحوظة، بدائية في أحد وجوهها. وأقصد حيث تعلمنا أن الأرض تتمخض عن طعامنا. وأن معرفتنا العلمية حينئذ، بعد أن طرحت هذه النظرية، وفرت السبل التي يمكننا بواسطتها أن نحصل على أغذيتنا الأخرى المختلفة في أفضل صورها، وأكثرها وفرة.

والآن فإن الأرض بالطبع تخرج حقيقة كل الأغذية، في هذا لا يمكن أن يقوم أدنى شك: إلا أن الأمر ليس بمثل ما يتصوره الناس عموماً، وإن اعتقادهم بأنها مسألة بسيطة، يعوق التحري عما هو أبعد من ذلك الحد. ولتأخذ مثلاً، الحدث العادي الذي يقع كل يوم، فلو قدر لنا أن نكون متكاسلين غاية التكاسل، كما هي حالتي الآن تماماً، وبعد حرث الأرض وريها بلا اكتراث، نستلقي أرضاً وننتظر ما عساه قد يحدث، فلا بد لنا حينئذ من أن نجد الطعام فوق سطح الأرض، على زعم أن ذلك الأمر هو نتيجة لا مفر منها. بصرف النظر عن أن ذلك ليس هو ما يحدث دائماً. وإن من يتمتعون ولو بقدر ضئيل من نزاهة الحكم على الظواهر العلمية - وإن أعدادهم محدودة في الحقيقة، لأن العلم يجتذب حوله دوائر أوسع فأوسع - سوف يرون في وضوح، دون أن يتعين عليهم أن يقوموا بأى تجربة خاصة، أن الجزء الأساسي من الطعام الذي وجد فوق سطح التربة في مثل تلك الحالات، إنما يأتي من أعلى، وإننا لنختطف حقاً معظم طعامنا في

العادة تبعاً لحيلتنا ومهارتنا، قبل أن يتاح له مطلقاً أن يبلغ الأرض. ولست أقول شيئاً مع ذلك ضد العلم، عندما أقول هذا القول، ذلك أن الأرض بالطبع تخرج ذلك النوع من الطعام، أو استنزلت طعاماً آخر من السموات، فربما لا يحدث ذلك تغييراً جوهرياً في الأمر، ولعل العلم الذي قرر في كلتا الحالتين ضرورة إعداد التربة ألا يكون بحاجة إلى الالتفات إلى مثل تلك الاختلافات، ذلك أنه لم يقل بـ: إنك لو كنت قد امتلكت طعاماً بين مخلبيك، فإنك تكون قد وجدت حلاً لكل التساؤلات، طالما دام ذلك! إلا أنه يبدو لي أن العلم رغم ذلك يعير اهتماماً مستتراً - إلى حد ما على الأقل - لمثل هذه الأمور، بما أنه يبرز طريقتين أساسيتين لتدبير الغذاء، أولاهما الإعداد الفعلي للتربة، وثانيهما - الوسائل المساعدة المتممة عن طريق السحر والرقص والأغاني. وأجد هنا خلافاً بالنسبة للرأي الذي سقته أنا نفسي؛ ولعله ألا يكون اختلافاً صريحاً، إلا أنه واضح إلى حد كاف. وإن حرث التربة وريها، في رأيي، يفيد إنتاج كلا النوعين من الطعام، وتبقى ضرورة الرقي، والرقص، والأغاني مع ذلك، أقل ارتباطاً بالغذاء الأرضي في أضيق معانيه، لكن تفيد أساساً في اجتذاب الغذاء من أعلى. وإن التراث ليسندني في ذلك التفسير. وإن الكلاب العادية نفسها قد استخدمت العلم في هذا الغرض نفسه، دون أن تدري بأنها قد فعلت ذلك، وبدون أن يتمكن العلم من أن يقدم كلمة واحدة كإجابة. فلو كانت هذه الطقوس كما يعلن العلم تفيد التربة فقط، وتهبها القوة، ولنقل، على أن تجتذب الطعام من الهواء، فإنهم حينئذ سوف يتجهون منطقياً نحو التربة كلية، فالتربة هي التي يجب أن يهمس إليها بالتعاون، وهي التي تقدم إليها الرقصات، وعلى قدر

ما تسعفني معلوماتي، فإن العلم لا يتطلب شيئاً آخر سوى ذلك. ويجيء الآن دور ما هو أهم؛ فالناس في جميع طقوسهم يتطلعون إلى أعلى. ولا يعد ذلك إهانة للعلم، طالما أن العلم لم يحرمه، وإنما يترك للفلاح مطلق الحرية في هذا المقام، ويهتم في تعاليمه بالتربة فقط، ولو نفذ الفلاح تعليماته التي تتعلق بإعداد التربة، فإنه يقنع بذلك، وإن كان لا بد له في رأيه من أن يتطلب شيئاً آخر أكثر من ذلك لو أنه كان منطقياً. وعلى الرغم من أنني لست متمرساً غاية التمرس بالعلم، فلا يسعني ببساطة أن أدرك كيف يمكن للمتعلم أن يدع قومنا - على تمردهم وعاطفيتهم - ينشدون تعاويذهم بوجوههم متطلعة إلى أعلى، ويولولون بأغانينا الشعبية القديمة في الهواء، ويقفزون عالياً في رقصاتهم، كما لو كانوا يتجاوزون عن الأرض، ويودون لو يطيروا من فوقها إلى الأبد. ولقد أخذت تلك المخالفة نقطة لبدايتي كلما اقترب - طبقاً لتعاليم العلم - وقت الحصاد، كنت أقصر اهتمامي على الأرض. فلقد كانت هي الأرض التي كنت قد حرثتها أثناء رقصاتي، وكنت غالباً ما أصلب عنقي محتفظاً برأسي ما أمكنني قريباً منها، وحفرت فيما بعد حفرة لأنفي، وغنيت، وألقيت فيها الخطب المؤثرة، حتى يتسنى فقط للأرض أن تسمعني وحدها، دون أي كائن آخر سواها إلى جواربي أو فوقي.

وقد كانت نتائج تجاربي عقيمة، فلم يكن الطعام يخرج في بعض الأحيان، وكنت أتهدأ من فوري لأن أهمل لذلك الدليل، إلا أن الطعام كان يخرج بعد ذلك، ولقد بدا الأمر على وجه التحديد، كما لو كان أدائي الغريب قد تسبب في بعض الاضطراب في البداية، إلا أنه اتضح لي فيما

بعد أن أدائي ذاك كانت له بعض المميزات، لدرجة أن النباح العادي والقفر كان من الممكن أن تتضمنها مراسيمه في حالتي. وكان الطعام في الحقيقة يظهر غالباً في وفرة زائدة عن ذي قبل، لكنه كان يرغب عن الظهور بعدئذ ثانية. وقد سجلت تقارير دقيقة عن كل تجاربي بنشاط لم يكن قبلئذ معهوداً من كلب صغير، وتوهمت أنني كنت أشم هنا وهناك رائحة قد تقودني إلى أبعد، إلا أنها كانت تبدد ثانية في إبهام.

وتقيدني هنا أيضاً بلا شك أساساتي العلمية غير الوافية، فأني دليل لديّ مثلاً على أن غياب الطعام لم يكن يرجع إلى أساليب الإعداد غير العلمي للأرض، أكثر مما يرجع إلى تجاربي، فلو أن الأمر كان كذلك، لكانت كل استنتاجاتي إذن خاطئة، ولعلني في ظروف معينة أن أتمكن من تحقيق تجربة دقيقة حذرة غاية الحذر: أعني لو أنني فقط نجحت مرة في استئزال الطعام بواسطة تعاويذ مرفوعة إلى السماء، دون إعداد الأرض بالمرة، ثم فشلت في استخراج الطعام بالتعاويذ لموجهة كلية نحو الأرض.. ولقد حاولت في الحقيقة شيئاً من هذا القبيل، لكن بدون أدنى اقتناع حقيقي بها، ودون توفر الشروط بالغة الدقة، ذلك أن عقيدتي الثابتة ترى أن قدراً معيناً من إعداد الأرض هو أمر ضروري دائماً. وحتى لو كان الزنادقة الذين ينكرون ذلك على حق، فإنه لم يكن في الإمكان إثبات نظريتهم في أي حالة من الحالات، نظراً إلى أن ري الأرض يتم تحت نوع من الضغط، وفي نطاق حدود معينة لا يمكننا ببساطة أن نتجنبها. ولقد حققت تجربة أخرى مماثلة إلى حد ما نجاحاً أكبر، وأثارت بعض الاهتمام العام. وبمناقشة الطريقة المعتادة في اختطاف الطعام، وهو لا يزال في الهواء، قررت أن

أترك الطعام يسقط فوق الأرض، ولا أبذل جهداً في التقاطه. وتبعاً لذلك قفزت في أغلب الأحيان قفزات صغيرة في الهواء عندما لاح الطعام، لكنني كنت أسمح له بالفرصة، فلعله أن يسقط دائماً من نفسه، وكان الطعام يسقط في أغلب الأحيان بغباء وتلقائية على الأرض، على الرغم من ذلك، فكنت أندفع نحوه في شراسة، في سورة الجوع وخيبة الأمل في وقت معاً. لكن حدث في بضع حالات نادرة شيء آخر، شيء غريب حقاً، فلم يسقط الطعام بل تبعني عبر الهواء، كان الطعام يتعقب الجائع، ولم يكن ذلك يستمر طويلاً، ولكنه كان دائماً يتبعني لمسافات قصيرة فقط، ثم كان الطعام يسقط في النهاية، أو يختفي تماماً عن الأنظار، أو -في أغلب الأحيان- كان شرهي يضع حداً متعجلاً للتجربة، وكنت ألتهم الصيد المغرية فوراً.

ولقد كنت سعيداً على كل حال في تلك الفترة، ولقد تملكيت جاري حالة من الفضول، وتمكنت من إثارة انتباه غير عادي، فلقد وجدت لدى معارفي استعداداً أكبر لتقبل أسئلتني، وكان يسعني أن أرى في عيونهم وميضاً كان يبدو أشبه بدعوة للنجدة، وحتى لو لم يكن ذلك الوميض أكثر من مجرد انعكاس لنظرتي، فلم أطلب شيئاً أكثر من ذلك. لقد كنت راضياً. حتى اكتشفت أخيراً -ولقد اكتشف الآخرون ذلك في نفس الوقت- أن تجربتي تلك لم تكن سوى بديهية من بديهات العلم، وأنها كانت للتو قد حققت مع الآخرين نجاحاً فاق في تألقه نجاحها معي، وعلى الرغم من أن محاولة القيام بتلك التجربة لم يكن قد حدث من قبل لمدة طويلة، نظراً لحالة ضبط النفس القصوى التي تتطلبها، فلم تكن هناك أيضاً ثمة حاجة إلى تكرارها، لأنها لم تكن تتضمن أية قيمة علمية على الإطلاق. إنها تثبت

فقط ما هو معروف بالفعل، وهو أن الأرض لم تكن فقط تستنزل الطعام عموديا من أعلى لكن بزاوية مائلة أيضًا، وفي صورة أشكال حلزونية في الواقع أحيانا. وهكذا كنت قد بقيت وحيدا هنالك مع تجربتي، إلا أنني لم أكن قد أحسست بما يشبط عزمي، فلقد كنت صغيرا جدًا حتى أشعر بشيء من هذا القبيل، بل لقد دفعني الإحباط على العكس من ذلك، إلى أن أحاول تحقيق ربما أعظم الإنجازات في حياتي كلها. ولم أكن مؤمنا باستخفاف العلماء بتجربتي، إلا أن الإيمان لم يكن ذا نفع في هذا المجال، كان ما ينفعني فقط هو البرهان، ولقد عملت على أن أصل إلى ذلك، وعلى هذا فقد رفعت تجربتي من مجالها الذي لا يتناسب معها، ووضعتها في مركز حقل البحث تمامًا. لقد أردت أن أثبت أنني عندما تراجعت أمام الطعام، فلم تكن الأرض هي التي اجتذبت به ميل، لكنني كنت أنا الذي سحبت خلفي. هذه التجربة الأولى لم يمكنني في الحقيقة أن أمضي بها إلى أبعد من ذلك، إلى أن يتمكن المرء من رؤية الطعام أمامه، والتجربة وقد تحققت في روحها العلمية في وقت معا، وليس في وسع المرء أن يحقق ذلك بصورة مطلقة. إلا أنني قررت أن أفعل شيئًا آخر، قررت أن أصوم تمامًا، لأطول مدة يمكنني أن أحتمل صيامها، وأن أتجنب في الوقت نفسه رؤية الطعام بالمرّة، وأتجنب إغراءه. فلو قدر لي أن أضبط نفسي على هذا الحال، وأن أبقى مستقلًا طوال النهار والليل مغلقًا عيني، دون أن يشغلني هم اختطاف الطعام من الهواء، ولا هم رفعه من الأرض، ولو أن الطعام كان، كما لم أجرو حتى على التوقع، وإن كنت قد أملت فقط أملًا ضعيفًا، دون اعتبار لأي من المقاييس المعتادة، وكمجرد حل لمشكلة ري الأرض

السخيفة التي لا يمكن تجاهلها، والتلاوة الهادئة للتعاويد والأغاني (ولقد رغبت في حذف الرقص، حتى لا أبدد قواي)، ليسقط من تلقاء نفسه، من أعلى، ويدق على أسناني، دون أن يبلغ الأرض، راجيا مني التكرم بالتهامه، لو كان حدوث ذلك ممكنا، وحتى لو لم يكن العلم يناقض ذلك، بما أن له المرونة الكافية لتقبل الاستثناءات والحالات النادرة، لسألت نفسي إذن عما يمكن أن تقوله الكلاب الأخرى التي لم تكن تملك لحسن الحظ مثل تلك المرونة المتناهية؟ ولما لم تكن قد حدثت من قبل مطلقاً حالة استثنائية من هذا القبيل يذكرها لنا التاريخ، ولنقل كحادثة الكلب الذي رفض تحت وطأة مرض جسماني أو اضطراب عقلي، أن يمهد الأرض، أو ينحني إلى أسفل لكي يلتقط الطعام، تلك الحادثة التي لأجلها يتلو كل مجتمع الكلاب وصفات سحرية نجح عن طريقها في تحويل الطعام عن خط سيره المعتاد، ليتجه مباشرة نحو مخالب المريض. ولقد كنت على عكس ذلك سليماً تماماً، وفي كامل قواي، وكانت شهيتي متفتحة غاية التفتح، حتى لقد صرفتني طوال النهار عن التفكير في أي شيء آخر سواها، ولقد أذعنت طوعاً علاوة على هذا - سواء أمكن تصديق ذلك أم لم يمكن - لفترة صيامي، وكنت قادراً تمام المقدرة على أن أحصل على رزقي من الطعام، ورغبت مع هذا في أن أصوم، وعلى هذا فلم أطلب عوناً من مجتمع الكلاب، بل لقد رفضته في الحقيقة بأقصى حالات إرادتي.

ولقد اخترت لنفسني مكاناً مناسباً في أجمة منعزلة من الأعشاب، حيث لا يتاح لي أن أستمع إلى أي حديث عن الطعام، ولا أستمع إلى أصوات الأنياب وهي تمضغ الطعام، ولا إلى العظام التي يقرضها الآخرون؛ ولقد

أكلت كفايتي للمرة الأخيرة، واستلقت أرضاً. وقد أردت أن أنفق معظم وقتي مغمضاً عيني ما أمكنني ذلك؛ حتى تصبح الدنيا ليلاً متصللاً بالنسبة لي إلى أن يأتي الطعام، حتى لو اتفق أن اتصلت يقظتي لأيام وأسابيع. ومع ذلك فلم أجرؤ على النوم طويلاً خلال ذلك الوقت، ولقد كان من الأفضل في الحقيقة ألا أنام بالمرة- ولقد جعل الأمر كله أشد صعوبة- ذلك أنه لم يكن يتوجب عليّ فقط ألا أجتذب الطعام من الهواء، بل أن أكون أيضاً في نوبة حراسة متواصلة، حتى لا يتفق أن أكون نائماً عندما يصل الطعام، لكنني من ناحية أخرى سأرحب بالنوم لو أنه طواني؛ لأنني سأتمكن من الصيام عندما أكون نائماً مدة أطول بكثير من المدة التي قد أصومها متيقظاً. وقررت لهذه الأسباب أن أنظم وقتي بحكمة، وأن أنفق الجانب الأكبر من ذلك الوقت في النوم، لكن لفترات قصيرة متقطعة دائماً. ولقد نجحت في ذلك عن طريق إسناد رأسي دائماً عندما يحلو لي أن أنام على غصن هش، لا يلبث حتى ينقطع وهكذا يوقظني، وعلى هذا النحو استلقت هناك نائماً أو قائماً بالمراقبة، حالماً، أو مدندناً لنفسي في هدوء بالأغنيات. ولقد مرت صحواتي الأولى بمشقة، ولعل أحداً- في الطريق الذي يجيء منه الطعام- لم يكن بعد قد فطن إلى أنني كنت مستلقياً هناك في حالة مقاومة للسياق المعتاد للأمور، وهكذا لم يكن هنالك ثمة ما يشير إلى أي شيء. وكنت أثناء تركيزي على المراقبة قد اضطربت قليلاً بسبب الخوف من أن تفتقدني الكلاب الأخرى، واحتمال أن تعثر عليّ في الحال، وأن تحاول تدبير شيء ضدي. وركبني الخوف مرة أخرى لمجرد بلّ التربة، ومع أنها لم تكن تربة خصيبة استناداً إلى مكتشفات العلم، فلعلها أن تتمخض عن بعض الأغذية

الشیطانية التي قد تغريني برائحتها. إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث لفترة طويلة، وأمكنني لهذا أن أواصل صيامي. وفي غياب مثل تلك المخاوف كنت هادئاً خلال تلك المرحلة الأولى، هدوءاً لا يسعني أن أذكر أنني قد نعمت بمثله من قبل أبداً. ومع أنني في الواقع كنت أعمل جاهداً لكي ألغي اكتشافات العلم، فقد شعرت في أعماقي بثقة زائدة، شعرت حقاً بكل الصفو النادر الذي يتمتع به الباحث العلمي. ولقد رجوت بيني وبين نفسي عفو العلم، فلقد كان عليه أن يفسح صدره لأبحاثي أيضاً، وكعزاء رن في أذني بالتأكيد بأنه لا عليّ مما قد تحدثه تحرياتي من أثر، بالغاً ما بلغ، وكلما كان أثرها بالغاً حقيقة كان ذلك أفضل، وسوف لا أهوى إلى ضياع حياة الكلب العادية؛ إن العلم يرمق محاولاتي باستحسان، وسوف يتكفل العلم نفسه بتفسير اكتشافاتي؛ وإن هذا الوعد يعني في الحال بلوغ الهدف؛ وعلى حين كنت لا أشعر إلى الآن في أعماقي سوى بخروجي على القانون، وبأنني قد طرقت رأسي ككائن بدائي على حوائط تراث جنسي، فإن المجتمع سوف يقبلني الآن محاطاً بهالة الشرف، وسوف تضمنني من كل الجهات الأجساد الكلية المتلاصقة التواقة إلى الدفء، وسأرتفع عالياً فوق أكتاف رفقائي! آثار ملحوظة لبدایات جوعي! وبدأت إنجازاتي بالغة العظمة في عيني حتى انخرطت في البكاء في انفعال وإشفاق على نفسي، هنالك وسط الأعشاب الساكنة. إن ما يجب الاعتراف به لم يكن غاية في الغموض، فبينما كنت أطلع أمامي مترقباً مكافأتي التي استحققتها عن جدارة، لماذا كنت أبكي؟ ربما بسبب السعادة الخالصة. ذلك أنني دائماً عندما أكون سعيداً، وهو أمر نادر تماماً، فإنني أبكي. ومع ذلك فسرعان ما

انتهت هذه المشاعر عند ذلك الحد. وانسابت أعذب تخيلاتني واحدة إثر أخرى، قبل أن يلح عليّ جوعي المتزايد، ولم تكن تنقضي فترة قصيرة، حتى كنت بعد وداع مقتضب لكل خيالاتني ومشاعري النقية جميعاً وحدي تماماً مع الجوع، يحترق في أحشائي. وقلت لنفسي مراراً لا حصر لها خلال تلك الفترة: هذا هو جوعي! كما لو كنت أحاول إقناع نفسي، بأنني كنت أنا وجوعي لا نزال شيئين منفصلين، وأنه كان في وسعي أن أنفضه عني بعيداً كعاشق ثقيل. لكننا كنا في الحقيقة كلاً واحداً على نحو مؤلم. وعندما أوضحت لنفسي: أن ذلك هو جوعي، كان بالفعل هو جوعي الذي كان يتكلم، ويسخر بي. فترة قاسية! قاسية! ما زلت أرتعد عندما أذكرها؛ لا لمجرد الآلام - وأرجوك أن تدرك ذلك - التي عانيتُها حينئذ، لكن لأنني كنت أعلم أنني لم أكن مهياً تماماً حينئذ، ويتعين عليّ تبعاً لهذا أن أكابد تلك الآلام ثانية، لو قدر لي أن أنجز شيئاً، ذلك أنني الآن ما زلت متمسكاً بالصوم باعتباره السلاح النهائي الفعال للبحث. إن الطريق يمتد عبر الصوم، وإن نهايته لو أمكن بلوغها، فلن يتسنى بلوغها إلا بأقصى جهد، وأقصى جهد يسعنا أن نبذله هو الصوم طوعاً. ولهذا فإنني عندما أفكر في تلك الأوقات - ولسوف أقضي حياتي بسرور في تأملها - فإنني لا أحتمل التفكير أيضاً في الوقت الذي لا يزال يتهددني، ويبدو لي غالباً أنه يتعين على المرء أن ينفق حياته بطولها لكي يشفى من مثل تلك المحاولة. إن حياتي كلها كشخص راشد تكمن بيني وبين ذلك الصوم، وحتى الآن لم أسترده عافيتي بعد. وعندما أبدأ صيامي القادم، فعسى أن يكون لدي عزم أشد مما كان لدي في المرة الأولى، بتأثير خبرتي الأعظم، ورؤيتي الأعمق لمتطلبات

مثل تلك المحاولة، إلا أن قواي لا تزال واهنة بتأثير تلك التجربة الأولى، وعلى هذا فقد أفشل من فوري عند مجرد الاقتراب من تلك الأهوال المألوفة. وسوف لا تعينني شهيتي الأشد تخاذلاً، فلسوف تقلل من قيمة المحاولة، فقط في مقابل أقل القليل، وسوف تجبرني بالفعل على أن أصوم وقتاً أطول مما كان لازماً في المرة الأولى. وأحسبني صريحاً في هذه المسألة، وفي الكثير من المسائل الأخرى، ولم تكن المحاولات التدريجية تحتاج إلى فترات صوم طويلة، فلقد جربت الجوع بالفعل كثيراً من قبل إلى الحد الذي يكفيني منه، إلا أنني كنت لا أزال أشد ضعفاً من أن أثبت أمام الجهد الزائد، كما أن همة الشباب التي لا تفتقر قد ذهبت الآن بالطبع إلى الأبد. لقد ذابت في الحرمان الرهيب لذلك الصيام الأول، ولقد عذبتني كل أنواع الأفكار، وظهر آباؤنا الأولون أمامي مهددين. حقاً، لقد تشددت في اعتبارهم مسئولين عن كل شيء، وإن لم أكن قد جرؤت على إعلان ذلك صراحة، إلا أنهم كانوا هم من ورط حياتنا الكلية في الذنوب، وهكذا كان في مقدوري بسهولة أن أرد على تهديداتهم بالتهديدات المضادة، إلا أنني أنحني أمام معرفتهم، فلقد نبعت من مصادر لم نعد نعرفها، ولهذا السبب، فسأحذر بنفس القوة التي قد أشعر بها تنازعني إلى معارضتهم، من أن أتخطى قوانينهم بالفعل أبداً، لكنني سأقنع نفسي بالتلوي خارجاً من خلال الفجوات التي أملك حاسة قوية لتشممها. وعلى سؤال الصوم، فلقد دعوت للحوار الشهير الذي أعرب في أثنائه ذات مرة أحد حكمائنا عن نيته في منع الصيام، لكنه عدل عن نيته عندما تصدى له حكيم آخر قائلاً: ومن هو ذا الذي سيفكر في الصيام؟ عند ذلك تراجع الحكيم الأول، وسحب

الحظر. لكن يثور الآن هذا السؤال: أليس الصيام ممنوعاً بالفعل في نهاية الأمر؟ إن الأغلبية الساحقة من المعقبين ينكرون ذلك ويرون أن حرية الصيام مكفولة، ويهيئون في رأيهم بالحكيم الثاني ألا يخشى مطلقاً جانب العواقب الخطيرة التي قد تنتج عن التفسيرات الخاطئة. ولقد تثبتُ بنفسه بالطبع من هذه النقطة قبل أن أبدأ صيامي. لكن بينما أتلوى الآن بقرصات الجوع، وجدت في اضطرابي العقلي عزاء في ساقى الخلفيتين، لاعتقاً، أو قاضماً إياهما في يأس إلى أعلى حتى العجز، وبدا لي التفسير العام لذلك الحوار مزيفاً تماماً وكلية. ولعنت علم المفسرين، ولعنت نفسي لأنني قد ضللت بتفسيراتهم تلك، ذلك أن الحوار كان يتضمن - كما كان في وسع أي طفل أن يرى - أكثر من تحریم واحد للصيام، ولقد أراد الحكيم الأول أن يحرم الصيام، وما أَرادَه ذلك الحكيم قد تم تنفيذه فوراً بالفعل، أما بخصوص الحكيم الثاني، فهو لم يتفق فقط مع الأول، بل اعتبر الصيام بالفعل مستحيلاً، مضيفاً بذلك تحريماً ثانياً إضافة إلى التحريم الأول، هو طبيعة الكلب نفسها، وقد أدرك الحكيم الأول ذلك. وعلى هذا فقد سحب التحريم الصريح، وكان هذا معناه أن أُلقي المسؤولية على عاتق الكلاب جميعاً، وما استتب أمره في النهاية، كان هو إلزامهم بأن يعرفوا أنفسهم، وأن يصدرُوا بأنفسهم تحريماتهم الخاصة فيما يتعلق بالصيام. وهكذا أصبح لدينا هنا تحريم ذو ثلاث طيات بدلاً من مجرد تحريم واحد، ولقد كنت قد انتهكتها جميعاً. ولعلني أكون الآن على الأقل قد أطعت عند هذا الحد، مع أن طاعتي قد جاءت متأخرة، إلا أنني شعرت وسط آلامي برغبة في مواصلة الصيام، ولقد تعقبت تلك الرغبة بشراهة كما لو كانت كلباً

غريباً. لم يسعني أن أتوقف؟ فلعلني كنت ضعيفاً أيضاً غاية الضعف لكي أنهض وأنشد الأمان لنفسي في صوره المألوفة. وتطوحت فوق أوراق الغابة المتساقطة، ولم أتمكن من مواصلة النوم، وسمعت صخباً من كل جانب. وبدا العالم الذي كان نائماً طوال حياتي قبلئذ، وكأنه استيقظ الآن لصيامي، وكان قد عذبني تصوري بأنني لن أقدر بتاتا على تناول الطعام ثانية، وأنني يجب أن أتناول طعاماً؛ لكي أعيد هذا العالم الذي يصخب من حولي بكل تلك الضجة مرة أخرى إلى الصمت، وأنه لن يمكنني أن أفعل ذلك. إلا أن أعلى ضجة وسط كل الضوضاء التي تحيطني إنما كانت تصدر عن بطني نفسها، وغالباً ما كنت ألصق أذني بها بعينين مفزعتين، ذلك أنني لم أكن أكاد أصدق سوى بصعوبة بالغة ما كنت أسمعه، وعندما غدت كل الأشياء أخيراً غير محتملة، بدا وجودي نفسه كما لو كان قد أصبح في قبضة الجنون المطبق، وراح يتخبط في محاولات مخبولة لإنقاذ نفسه، وأخذت تهاجمني روائح الطعام، روائح الطعام اللذيذة التي كنت قد نسيتها منذ أمد بعيد، ومباهج طفولتي، نعم، كان في استطاعتي أن أشم عطر أئداء أُمي نفسها، ونسيت عزمي على مقاومة كل الروائح، أو أنني لم أنسه، بل جرّرت نفسي هنا وهناك لمسافة لا تزيد عن بضعة ياردات قليلة، وشمّمت كما لو كان ذلك هو ما كنت قد اعترزته، كما لو كنت أبحث فقط عن الطعام لكي أقاومه. ولم تيسني حقيقة أنني لم أجد شيئاً، فلا بد أن يوجد الطعام هناك، لكنه فقط على بعد خطوات، ولقد فشلت سيقاني في حملي قبل أن أتمكن من بلوغه، لكنني في الوقت نفسه أدركت أن شيئاً لم يكن هناك، وأنني قد قمت بتلك التحريات الواهنة فقط خوفاً من أن أتدعى

في مكاني ولا أعود قادرا على مبارحته. وكانت آخر آمالي وأحلامي الأخيرة قد تلاشت، ولسوف أهلك هنا في نعاسة، فماذا كانت جدوى أبحاثي؟ محاولاتي الصبائية التي تمت في أيام الطفولة السعيدة الموهلة في البعد. هنا والآن كانت ساعة الجد المميتة، هنا يجب على تحرياتي أن تثبت قيمتها، لكن أين اختفت؟

لا شيء سوى كلب مستقل هنا في عجز، مادًا فمه نحو الهواء الفارغ، كلب على الرغم من مواصلة ربه للتربة بسرعة متشنجة في فترات قصيرة، ودون أن يكون واعيا بها، لا يسعه أن يذكر حتى أقصر التعاويذ المخترنة في ذاكرته، ولا حتى المقطوعة القصيرة التي يرددها الجرو الصغير حديث الولادة، وهو لا يزال قابعا تحت أمه. وبدا لي أنني كنت منفصلا عن كل زملائي، لا بمجرد مسافة قصيرة غاية القصر، لكن بأبعاد لا نهائية، وكما لو كنت سأقضي نحبي فريسة للإهمال أكثر من قضاء نحبي بالتضور جوعا، فلقد كان واضحا أن أحدا لم يكن يشغله أمري، لا أحد تحت الأرض ولا فوق سطحها، ولا في سمائها. لقد كنت أقضي نحبي بسبب لامبالاتهم، فلقد قالوا بلا اكتراث: إنه يموت! ولقد كانت النهاية توشك بالفعل أن تقع. فهل ما كنت قد ارتضيت ذلك؟ ألم أكن أقول الشيء نفسه؟ ألم أكن قد رغبت في أن أترك وحيدا على هذا النحو؟ نعم يا إخوتي، لكن لا لأهلك في هذا المكان، بل لكي أبلغ الصدق، وأبارح هذه الدنيا الزائفة، حيث لا يوجد ثمة من يمكنكم أن تتعلموا الصدق منه، ولا حتى مني أنا وليد عالم الزيف. ولعل الصدق لم يكن لهذا الحد، بعيدًا غاية البعد، ولعلني لم أكن مهجورا على هذا النحو كما ظننت، أو لعلني كنت مهجورا من نفسي أكثر

مما كنت مهجورا من زملائي في استسلامي وقبولي للموت.

إلا أن المرء لم يكن ليموت بهذه السهولة كما يمكن أن يتصور ذلك كلب متوتر! فقط كانت قواي قد خارت، وعندما عدت إلى وعيي، ورفعت عيني، كان ثمة كلب غريب واقف أمامي. لم أشعر بالجوع، بل لقد امتلأت بالقوة، وبدت لي أطرافي خفيفة ونشيطة، رغم أنني لم أحاول أن أثبت من ذلك بالوقوف على سيقاني، ولم تكن قواي على الإبصار في حد ذاتها أكثر حدة من ذي قبل، ولقد كان كلبا جميلا، وإن لم يكن خارجا بالمرة عن المؤلف، قد وقف أمامي، كان في وسعي أن أرى ذلك، وكان هذا هو كل شيء، لكن بدالي أنني قد رأيت فيه شيئا أكثر من ذلك. كانت ثمة دماء على الأرض أسفلي، وقد حسبتها طعامًا لأول وهلة، إلا أنني تبيتها على الفور كدماء قد تقيأتها، وحولت أنظاري عنها نحو الكلب الغريب، كان هزيعًا، طويل السيقان، بني اللون، ذا لطفة بيضاء هنا وهناك، وكانت له نظرة نافذة قوية ثابتة.

سألني: «ماذا تفعل هنا؟، لا بد أن تغادر هذا المكان!».

قلت: «لا يمكنني أن أغادره الآن!» دون أن أحاول تفسير ذلك، فكيف كان يمكنني أن أفسر له كل شيء؟ ولقد كان يبدو عليه فوق ذلك، كما لو أنه كان متعجلاً.

«أرجوك! اذهب من هنا!» قال ذلك في نفاد صبر، رافعا ساقه، ثم أعادها ثانية إلى الأرض.

قلت: «دعني هنا، دعني لنفسي، ولا تشغل بالك بأمرى، فإن الآخرين

لا يشغلون بالهم بأمرى!».

قال: «إنى أسألك أن تذهب لصالحك!».

فأجبتة: «بإمكانك أن تسألني لأي سبب تشاء، إلا أننى لا أقوى على الذهاب، حتى لو أردت!».

قال مبتسمًا: «لا حاجة بك إلى الخوف من ذلك، يمكنك الذهاب بالفعل، لقد سألتك أن تذهب الآن لضعفك، ويمكنك أن تذهب متباطئًا لو شئت، ولو توانيت الآن، فسوف تضطر إلى أن تسابق الريح بعد ذلك!».

أجبتة قائلاً: «هذا شأني وحدي».

قال: «وهو شأني أنا أيضًا!» محزونًا لعنادي، لكن عازما في وضوح على أن يدعني مستلقيا للتو واللحظة، وأن يتتهز الفرصة في نفس الوقت ليمد لي يد المساعدة.

كان يمكنني بكل سرور أن أقبل المجاملة في أي وقت آخر من مثل ذلك المخلوق الجميل، لكنني في تلك اللحظة، لست أدري لماذا ملأتني الفكرة بالفرع. صحت: «انصرف!» وبأعلى صوتي، لما كنت لا أملك وسيلة أخرى للدفاع عن نفسي.

قال متراجعا في بطاء: «وهو كذلك، سوف أتركك إذن، إنك كائن عجيب، ألا تراتح لي؟».

قلت: «سوف أرتاح لك، إذا انصرفت وتركتني في سلام».

لكنني لم أكن واثقا من نفسي على نحو كاف، عندما حاولت أن أدفعه إلى التفكير. ولقد بدت حواسي التي أرهاقها الصيام، وكأنها ترى فجأة، أو

تسمع شيئاً يتعلق به، كانت قد بدأت لتوها، وكانت تتزايد، ثم.. اتضح، وعرفت أن ذلك الكلب كان يملك القوة ليدفعني بعيداً، حتى ولو لم يكن في استطاعتي في تلك اللحظة أن أتصور بيني وبين نفسي، كيف يمكنني أن أنهض فحسب، واقفاً على أقدامي، وحدثت فيه - وكان فقط قد هز رأسه، محزوناً لإجابتي الجافة - بفضول متزايد.

سألته: «من أنت؟».

فأجاب قائلاً: «صياد!».

قلت: «ولماذا لا تتركني مستلقياً هنا؟».

قال: «لأنك تزعجني، فلا أستطيع الصيد وأنت هنا!».

قلت: «حاول، فربما أمكنك الصيد في النهاية!».

قال: «لا، وإنني ليؤسفني أنه لا بد لك أن تنصرف!».

فاقترحت قائلاً: «لا تصد اليوم فقط على الأقل!».

قال: «لا أستطيع، لا بد لي من الصيد!».

قلت: «لا بد أن أذهب، لا بد لك من الصيد، لا شيء سوى لا بد؟ هل

يمكنك أن توضح لي لماذا لا بد؟».

أجابني قائلاً: «لا.. فليس ثمة ما يحتاج إلى التفسير، إن هذه أمور

طبيعية، واضحة في ذاتها».

قلت: «ليست في ذاتها واضحة إلى ذلك الحد، فأنت آسف لأن عليك

أن تطردني بعيداً، إلا أنك تقوم بطردي مع ذلك!».

أجاب قائلاً: «إن الأمر كذلك».

فرددت عليه مقاطعاً: «إن الأمر كذلك! ليست هذه إجابة! ما هي التوضيحية التي يمكنك أن تقدمها، هل تتنازل عن صيدك، أو تتنازل عن طردي؟».

قال بلا تردد: «أتنازل عن صيدي».

قلت: «هكذا! ألا ترى إذن أنك تناقض نفسك؟».

أجابني قائلاً: «وكيف أناقض نفسي؟ هل يمكن حقاً ألا تكون قادراً على إدراك حقيقة أنه لا بد لي من الصيد يا جروي العزيز؟ ألا يمكنك أن تفهم الحقيقة الواضحة بذاتها؟».

لم أحر جواباً؛ ذلك أنني قد استشعرت حياة جديدة تدب في داخلي - حياة مثل تلك التي تبعثها الأحوال - وقد أدركت من شواهد غير محسوسة، لعل أحداً سواي لا يسعه أن يلحظها، أن الكلب كان يتأهب في أعماقه لتقديم أغنية.

قلت: «هل ستغني؟».

قال بوقار: «نعم، سوف أغني فوراً، إلا أنني لم أبدأ بعد!».

قلت: «هل ستبدأ الآن؟».

قال: «لا.. ليس بعد، إلا أنني أأهب!».

قلت مرتعشاً: «إنني أسمعها الآن بالفعل على الرغم من إنكارك لها».

كان صامتاً، ثم تهيأ لي أنني قد رأيت شيئاً لم يتح قبلي لكلب أن رآه

مطلقا، فلا توجد في تراثنا أدنى إشارة إليه على الأقل، وبسرعة أحنيت رأسي في خوف لا حد له، وفي خجل، في بركة الدماء التي كانت قد تكونت تحتي، فقد تهيا لي أنني قد رأيت الكلب وهو يغني بالفعل دون أن يدري ذلك، بل لقد تهيا لي أكثر من هذا، أن النعم الذي كان يبدو منفصلا عنه كان يطفو في الهواء تبعا لقوانينه الخاصة متحركا نحوي، نحوي فقط، كما لو لم يكن للكلب في ذلك أدنى حيلة. وإني بالطبع أنكر الآن صحة كل تلك التخيلات كلها، وأعزوها جميعا إلى تهيجي الزائد حينذاك، لكن لو أنها حتى كانت خاطئة بالفعل، فقد كان لها على الرغم من ذلك نوع من الجلال، وحتى لو كانت حقيقة وهمية، فقد كانت هي الحقيقة الوحيدة التي حملتها إلى هذا العالم نتيجة لفترة صيامي، وهي ترينا على الأقل المدى الذي يسعنا أن نبلغه عندما نتجاوز عن ذواتنا. ولقد كنت متجاوزا ذاتي بالفعل. وكنت في تلك الظروف عاجزا عن الحركة، لكن النعم الذي سرعان ما سلم الكلب بأنه نغمه، كان نغما لا يقاوم. وقد ارتفع، وارتفع، وبدأت قوته المتزايدة وكأنها لم تكن لتقف عند حد، وما لبثت حتى فجرت طبلتي أذني. لكن أسوأ ما في الأمر هو ما بدا وكأن ذلك النعم كان قد انبثق فقط من أجلي، هذا الصوت الذي غرقت الغابات في الصمت أمام جلاله، يوجد من أجلي فقط، فمن عساي أن أكون حتى أجرو على أن أبقى هنا، مستلقيا أمامه في صفاقة، غارقا في بركة دمي وقذارتي؟! وترنحت ناهضا على أقدامي، ونظرت تحتي. لن يقوى هذا الجسد الحقيق على الجري، إلا أن الوقت لا يزال متسعا أمامي للتفكير، لكنني اندفعت فورا بوخر النعم، ولقد انطلقت من مكاني ذاك مندفعاً بغاية السرعة. لم أقل شيئا لأصدقائي،

وربما كان في إمكاني أن أقول لهم كل شيء فور وصولي، إلا أنني كنت خائر القوى، وبدا لي فيما بعد أن مثل تلك الأشياء لا يمكن أن تقال. وكانت قد ضاعت مني نهائيا في الحوار العام بعض اللمحات التي لم أتمكن من إدراكها خلال النزيف العارض. ولقد شفيت جسديًا بعد مضي بضع ساعات قليلة، لكنني ما زلت أعاني روحيا حتى الآن من آثار تلك التجربة.

ومع ذلك، فلقد حولت بحثي فيما بعد إلى الموسيقى. ولم يكن العلم عاجزا في الحقيقة في ذلك المجال أيضا. ولعل علم الموسيقى يكون مفهوما لو أنني كنت قد درسته على النحو الصحيح أكثر من علم التغذية، وقائما بشكل ما على أسس أقوى. وربما أمكن تفسير ذلك بحقيقة أن ذلك الميدان يحتمل تحريرات أكثر موضوعية من الآخر، وأن معلوماته دون غيرها، هي نتيجة للملاحظة المحضة والتنظيم، في حين أن الموضوع الأساسي في مجال التغذية هو تحقيق نتائج عملية. هذا هو السبب في أن علم الموسيقى يلاقي تقديرا أعظم مما يلقاه علم التغذية، وهو السبب أيضًا في أن العلم الأول لم يتغلغل تغلغلا عميقا في حياة الناس. ولقد أحسست أنا نفسي بعدم الاهتمام بعلم الموسيقى بخلاف العلوم الأخرى، حتى سمعت ذلك الصوت في الغابة.

وكانت تجربتي مع الكلاب الموسيقية قد لفتت انتباهي في الحقيقة إلى الموسيقى، لكنني كنت صغيرا جدًا حينذاك، كما لم يكن سهلا بحال من الأحوال إدراك لمحات من ذلك العلم، فلقد كان ينظر إليه على أنه علم سري للغاية، ومتباعد في رقة عن الجموع. وبالإضافة إلى ذلك، فرغم أن ما صدمني في تلك الكلاب بغاية العنف كان أولا هو موسيقاهم، فلا يزال

يبدو لي صمتهم أكثر أهمية. أما بخصوص موسيقاهم المزعجة، فربما كانت بالفعل موسيقى فذة، حتى ليتمكني أن أتركها خارج الحساب، لكن صمتهم أخيرًا هو ما واجهني في كل مكان، وفي كل الكلاب التي لقيتها.

وعلى هذا فلكي تسبر غور طبيعة الكلب الحقيقة فإن البحث في الطعام يبدو لي أنجع السبل، التي يتسنى لها أن تقودني إلى هدفي في خط مستقيم. وقد أكون مخطئًا. ومع ذلك فإن فاصلا ما بين هذين العلمين كان قد جذب انتباهي في الحال، وأعني به نظرية التعويد، التي بواسطتها يستنزل الطعام إلى الأرض. وهذا هو مرة أخرى ما عاقتني عن ممارسة علم الموسيقى بصورة جدية، ففي هذا المجال لا يسعني حتى أن أحسب نفسي من بين أنصاف المتعلمين، تلك الطبقة التي يتطلع إليها العلم أكثر مما يتطلع إلى غيرها. لا يمكنني أن أتجاهل هذه الحقيقة، ولا يمكنني - ولديّ لسوء الحظ ما يؤكد ذلك - أن أجتاز الاختبارات التي تتناول أبسط المبادئ العلمية الأولية، التي تطرحها السلطة في هذا الموضوع. ويرجع السبب في ذلك بالطبع - إذا تجاوزنا كلية عن الظروف التي سبق ذكرها للتو - إلى عجزني عن البحث العلمي، وإلى قدراتي المحدودة على التفكير وذاكرتي الضعيفة، وإلى عجزني قبل كل شيء على أن أحتفظ بهدفي دائمًا نصب عيني. إنني أقر بهذا كله صراحة وبدرجة ما من السرور؛ ذلك أن أعظم أسباب عجزني العلمي تبدو لي على أنها فطرة، وفطرة سيئة في الحقيقة بلا شك. ولو أردت أن أزهو، فلعلني أن أقول أن تلك الفطرة نفسها هي التي أضعفت قدراتي العلمية، ذلك أنه سيكون بلا شك أمرًا غريبًا غاية الغرابة، لو أن المرء الذي يتمتع بدرجة فائقة من الذكاء في ممارسة شؤون

الحياة اليومية العادية، التي لا يمكن وصفها بالبساطة دون شك؛ والذي قام العلماء الأفاضل بتمحيص اكتشافاته ومراجعتها، إن لم يكن قد تفحصها العلم نفسه، قد يعجز عن تثبيت قدمه حتى على أول درجة من درجات سلم العلم.

لقد كانت فطرتي تلك هي التي جعلتني - ربما في سبيل العلم نفسه، ولعله أن يكون علما آخر مختلفا عن علم اليوم، علم شامل - أقدر الحرية تقديرا أرفع من تقديري لكل ما عداها.

الحرية! لا شك أن مثل تلك الحرية - بالصورة التي توجد بها اليوم - هي أمر بالغ الحقارة.

ومع ذلك فهي الحرية؛ وهي كل ما نمتلكه مع ذلك!

الجُحر

أتممت حفر جحري، ويبدو أن حفره كان قد تم بنجاح، فكل ما يمكن رؤيته من الخارج عبارة عن فجوة كبيرة، لم يكن يبدو عليها حقاً أنها تفضي إلى أي مكان، لكن لو أنك تقدمت بضع خطوات قليلة أخرى، فسوف تصطدم بصخرة طبيعية صلبة! لست أزهو بأنني قد دبرت هذه الحيلة عامداً؛ لأنها ببساطة بعض آثار إحدى محاولاتي العديدة الفاشلة للبناء. لكن بدا لي في النهاية أنه من الصواب ترك هذه الفجوة الفريدة دون ردم. إن بعض الخدع حاذقة حقاً، حتى لتتمكن من أن تحمي نفسها بنفسها، وإنني لأدرك هذا إدراكاً أبعد مما يمكن أن يتوافر للآخرين. وأن تترك هذه الفتحة لجذب الانتباه إلى احتمال أن يكون ثمة ما يستحق التفحص إلى جوارها، أمر يعد مجازفة دون أدنى شك؛ إلا أنك لن تكون قد عرفتني حقاً، لو ظننت أنني كنت خائفاً، أو أنني - باختصار - كنت قد بنيت جحري بدافع من الخوف. فعلى بُعد بضعة آلاف من الخطوات من هذه الفتحة، كان يكمن المدخل الحقيقي للجحر مختفياً تحت طبقة هشة مقلقلة من الأعشاب، إنه مدخل مأمون، وآمن كأى شيء يمكنه أن يظل آمناً في هذه الدنيا؛ إلا أن في وسع أي كائن أن يخطو فوق تلك الأعشاب، أو أن يخترقها، وحينئذ سوف يفتح جحري. ولسوف يتمكن أي كائن لو شاء - وأرجوك أن تلاحظ مع ذلك، أن هذا يتطلب أيضاً مهارات غير عادية بالمرة - أن يتخذ طريقه إلى الداخل، ومن ثم يدمر تماماً كل شيء. إنني أدرك هذا جيداً، وحتى

الآن، عندما أصبحت في حال أفضل مما كنت عليه في أي وقت مضى، لا يمكنني سوى بصعوبة بالغة أن أقضي ساعة واحدة في اطمئنان. ودائما يتباني الإحساس بأنني عرضة للهجوم من تلك البقعة المعتمة التي تغطيها الأعشاب، وغالبا ما أرى في أحلامي فما شرها يتشممها في إصرار. ولهذا اتضح لي أنه كان في وسعي أيضًا أن أسد المدخل من أعلى بطبقة رقيقة من الحصى والتراب الناعم بعد ذلك أسفله؛ حتى لا أتكد كثير جهد عندما يحلولي أن أشق طريقي ثانية إلى الخارج. إلا أن هذه الفكرة بدت مستحيلة، فالحذر نفسه يتطلب غالبًا للأسف عنصر المجازفة بالحياة، وينتهي هذا كله إلى نتيجة مرهقة، كما أن متعة العقل الخالصة بانطلاقها الخاص هي السبب الوحيد غالبًا في تمسك المرء بذلك الحذر. فلا بد لي من مهرب في لحظة التوقع، ذلك أنه على الرغم من كل يقظتي، ألا يحتمل أن يدهمني الهجوم من إحدى الجهات التي لم أكن أتوقعه منها مطلقًا؟ إنني أحيًا في سلام في داخل أقصى حجرات منزلي الداخلية، وربما كان العدو يحفر طريقه نحوي في تلك الأثناء، في بطء وتلصص. لست أدعي أن له حاسة شم أقوى من حاستي، فمن المحتمل ألا يعرف عني أكثر مما أعرف عنه. إلا أن ثمة لصوصًا يحفرون في الأرض عشوائيًا، وإن اتساع مساحة مسكني ليضع أمام هؤلاء احتمال أن يعثروا بالصدفة على أحد ممراته القصية. ولا شك أنني أتمتع بميزة وجودي في منزلي الخاص، وبمعرفتي بممراته كلها وباتجاهاتها، وربما وقع اللص فريسة لي، وصيدا سهلا أيضًا. إلا أنني أتقدم في السن، ولست في قوة الكثيرين من الآخرين، كما أن أعدائي لا حصر لهم. وأيضا قد يحدث لي لو أنني انطلقت هاربا أمام أحد أعدائي أن أقع

بين مخالف الآخر. من الممكن أن يحدث أي شيء. وعلى أي حال، فلا بد أن يكون لدي اليقين الراسخ في وجود ثمة مخرج آمن تمامًا في مكان ما، ويمكنني بلوغه دون أن أتكد من أجل الخروج كثير عناء، ولا يكون ثمة احتمال هنالك - ولتحفظنا السماء - لأن أشعر بأسنان من يطاردني وهي تطبق فجأة على مؤخرتي، بينما أحفر لنفسي في يأس طريقا للهرب، حتى ولو كان طريقي في بقعة رملية سهلة مفككة. لست أحيًا مهددا فقط من الأعداء الخارجيين، فثمة أعداء أيضًا في باطن الأرض. إنني لم أرهم، إلا أن الأسطورة تتحدث عنهم، كما أنني أعتقد في وجودهم عن يقين. إنهم مخلوقات جوف الأرض، لم تصفهم أسطورة واحدة، كما أن ضحاياهم أنفسهم لم يقدر لهم تقريبًا أن يروهم. لكنهم يأتون، وإنك لتستمع إلى خدش مخالفهم - وهي كل ما يملكونه - في جوف الأرض تمامًا أسفلك، وإذا ذاك تكون قد ضعت. ولا جدوى حينئذ في أن تحاول التشبث بفكرة وجودك في منزلك الخاص، إلا كما قد تُجديك محاولة استنادك إلى وجودك في منزلهم، وحتى مخرجي هذا لن ينقذني منهم؛ إنه لن ينقذني حقًا بأي حال من الأحوال وعلى كافة الاحتمالات، بل ربما ضللني، لكنه أمل على كل حال، ولا يمكنني أن أحيًا بدونه. وفيما عدا هذا المخرج الرئيس فإنني أتصل بالعالم الخارجي أيضًا عن طريق بعض الممرات الضيقة للغاية الآمنة إلى حد ما، والتي تمدني بالهواء النقي للتنفس. هذه الممرات هي ثمرة جهد فئران الحقول، ولقد أفدت منها فائدة حكيمة، عندما حولتها إلى جزء رئيس من جحري، كما أنها تتيح لي أيضًا إمكانية تشم الأشياء من على البعد، وهي لهذا تقوم بدور مهم في حياتي. كما

أن فتات مختلف أنواع الطعام يأتيني متدحرجًا خلاله، فألتهمه. وعلى هذا ففي مقدوري أن أحصل تحت سطح الأرض على قدر ما من الصيد، يكفي لحياة متواضعة دون أن أضطر إلى مغادرة جحري على الإطلاق، وهذه ميزة كبرى بالطبع. إلا أن أكثر ما في الجحر جمالًا هو الهدوء، وهو شيء خادع طبعًا، فمن المحتمل أن يُنتهك في أية لحظة، ومن ثم ينقلب كل شيء رأسًا على عقب، إلا أن الصمت ظل يلazمني مع ذلك بمضي الوقت، حتى كان يمكنني أن أتجول لعدة ساعات عبر ممراتي دون أن أسمع شيئًا، فيما عدا حفيف بعض الكائنات الصغيرة، التي سرعان ما أرغمها على أن تصمت بين مخالبي، وفيما عدا دمدمة التربة التي تلفت أنظاري إلى حاجة الجحر إلى الترميم، أما بعد ذلك فقد كان الصمت يسود كل شيء، وكانت أنسام الغابات تبلغني، فكان المكان يتناوبه الحر والبرد، وأحيانًا ما كنت أستلقي أرضًا، ومن ثم أتدحرج عبر الممر في سعادة غامرة. وعند حلول الخريف يصبح امتلاك جحر مثل جحري وسقف فوق رأسك ثروة عريضة رائعة بالنسبة لكل من أخذ يتقدم في العمر. وكنت قد وسعت الممرات على بعد كل مائة ياردة، وحولتها إلى قبوات صغيرة مستديرة كان يمكنني أن أتكور بداخلها في راحة، وأستشعر الدفء. وهنالك كنت أستغرق في النوم، نوم السكينة العذب، نوم الرغبة التي أشبعت، والطموح الذي تحقق؛ لأنني قد امتلكت منزلاً. ولست أدري ما إذا كانت مجرد عادة قد بقيت مسيطرة عليّ من الأيام الماضية، أو أن تعرض حتى هذا المنزل الذي أملكه للخطر كان شديدًا لدرجة كانت تكفي لإيقاظي، إلا أنني كنت أنفزع دائمًا بين حين وآخر مستيقظًا من النوم العميق، وأتسمع، أتسمع من خلال السكون

الذي ساد المكان دون تغير نهارا وليلا، فأبتسم في رضى، ومن ثم أستغرق ممددا أطرافي في نوم هادئ أشد عمقا، ويزحف المشردون البؤساء الذين لا مأوى لهم في الشوارع والغابات طلبا للدفع، فيندسون تحت كومة من الأوراق الجافة، أو ينضمون إلى قطيع من رفاقهم، في قبضة كل أخطار السماء والأرض! بينما أستلقي هنا في حجرة آمنة من كل الجوانب- ويضم جحري أكثر من خمسين حجرة أخرى مثلها- وأقضي أي وقت أشاء، سواء في إغفاءة، أو مستغرقا في النوم العميق.

ولم تكن الصومعة تقع في منتصف الجحر تماما، فقد اخترت موقعها بعناية، حتى تصلح ملاذاً في حالة الخطر الشديد من الحصار إن لم يكن من المطاردة، وبينما كان باقي الجحر كله عبارة عن نتيجة لإجهاد الذهن أكثر من كونه نتيجة للعمل الجسماني، فإن تلك الصومعة قد نفذت بأشق مجهود قامت به أعضاء جسدي كلها. وكنت قد أوشكت عديدا من المرات تحت ضغط اليأس الذي سببه لي إجهادي الجسماني أن أترك العمل كله، وأن ألقى بنفسي على الأرض لاهثاً لاعتنا الجحر، مجرّراً جسمي إلى الخارج، تاركاً المكان مفتوحاً للعالم كله. كان في إمكاني دائماً أن أفعل ذلك، حين لا تكون قد تبقت لديّ أية رغبة في العودة إليه، حتى أعود إليه أخيراً في ندم بعد ساعات أو بعد أيام! وعندما كنت أرى أن الجحر لم يصبه أدنى سوء، كنت غالباً ما أرفع صوتي بابتهالات العرفان، وأعود إلى العمل مرة أخرى في سعادة خالصة من القلب. وقد واجهتني أيضاً في إعداد الصومعة مصاعب شاقة لا مبرر لها. لم تكن ثمة ضرورة لمواجهة تلك المصاعب التي لم يكن الجحر ليحني منها أية فائدة، وذلك لحقيقة أن التربة في نفس

المكان الذي كان على الصومعة أن تقوم فيه تبعاً لخطتي كانت هشة للغاية، ورملية، وكان لا بد لها أن تطرق، وأن تبسط حتى يصير قوامها صلباً، ويمكن أن يُبنى منها حائط رائع للحجرة المقببة. إلا أن الأداة الوحيدة التي كنت أملكها لتنفيذ هذا العمل لم تكن سوى جبهتي. وعلى هذا فقد كان عليّ أن أندفع مصطدماً بجبهتي في التربة آلاف وآلاف المرات طوال الأيام والليالي، ولقد كنت سعيداً عندما انبثقت منها الدماء، فقد كان ذلك برهاناً على أن الجدران كانت قد بدأت تصبح أشد صلابة، وعلى هذا النحو، كما لا بد أن الجميع سيؤيدونني، كنت قد دفعت لصومعتي ثمناً غالياً.

ولقد حشدت محتويات مخازني كلها في الصومعة، كل ما يزيد وما يخرج عن حاجتي اليومية مما كنت قد احتفظت به في ججري، وكل ما كنت قد عدت به من حملاتي الخارجية للصيد، كومتها بداخلها، ولقد كانت الصومعة فسيحة للغاية حتى أن مئونة تكفي لأكثر من نصف العام لم تكن قد ملأتها، وكان يمكنني بناء على ذلك أن أصنف مخازني وأن أتجول بينها، وأداعبها، وأسعد بوفرته، وبروائحها المتعددة، وأن أقدر كميتها على وجه الدقة، وعندما تحقق ذلك، أصبح في إمكاني دائماً أن أرتب أموري تبعاً له، وأن أقيم حساباتي، وأرسم خطط الصيد المستقبلية، آخذاً في الاعتبار طبيعة كل فصل من فصول السنة.

ولقد مرت بي فترات - بينما كان زادي وفيراً إلى ذلك الحد - لم ألمس فيها لعدم رغبتني في الطعام ذرة واحدة من المئونة التي كانت تغرق أنحاء الجحر، وربما كان ذلك نوعاً من الحمق من جانبي! ذلك أن انشغالي المتواصل بالمقاييس الدفاعية، كان يتطلب تغييراً أو تعديلاً ولو في أضيق

الحدود لآرائي عن أفضل الوسائل لتنظيم المبنى حتى يتناسب مع تلك الغاية. وكان يبدو لي في أحيان أخرى أنه من قبيل المجازفة جعل الصومعة قاعدة للدفاع، ولقد كان تشعب الجحر يتيح لي إمكانيات مزدوجة، وبدا لي أنه مما يتفق مع الحذر أن أوزع مخزوناتي على نحو ما، وأن أضع بعضاً منها في حجرات معينة من الحجرات الصغرى، وعلى هذا فقد قمت بوضع علامة على كل ثالث حجرة - لِنَقُلْ - كمخزن احتياطي، أو كل رابع حجرة، كمخزن رئيس، وعلى كل ثاني حجرة، كمخزن إضافي، وهكذا... أو تجاهل ممرات معينة بأكملها، وعدم تخزين أي مئونة بها، وذلك حتى أبعد رائحتها عن مجال شم أي عدو، أو بأن أختار جزأاً عدة غرف قليلة استناداً إلى بعدها عن المدخل الرئيس. ولقد كان كلٌّ من هذه الخطط يتطلب بالطبع جهداً كبيراً، وكان عليّ أن أفرغ من تدابيري، ومن ثم أحمل مخزوناتي إلى أماكنها الجديدة! كان في وسعي حقاً أن أقوم بذلك في وقت فراغي وبلا تعجل، فليس مما يثقل عليك مطلقاً أن تحمل بين مخالبك مثل ذلك الطعام الفاخر، وأن تستلقي لكي تستريح حينما يحلو لك ذلك. أما ما يعد استمتاعاً فعلياً فهو أن يقضم المرء من الطعام قضمه عارضة بين الحين والآخر، لكن ما لم يكن يسر حقاً هو ما كان يتصادف حدوثه أحياناً عندما يتتابك الوهم فجأة، فتتفزع ناهضاً من نومك، وتتصور أن ذلك الترتيب القائم لمخازنك، ترتيب خاطئ تماماً وكلية، وأنه قد يؤدي إلى أخطار رهيبة، ولا بد من أن يعدل في وضعه الصحيح فوراً، ولا يهم مدى إرهاقك، أو استغراقك في النوم، وعلى هذا فقد كنت أندفع، كنت أطير، لم يكن وقتي يسمح لي بالتدبر، بينما تكاد تحرقني الرغبة في تنفيذ خطتي الجديدة

المحكمة، المقنعة تمامًا، فأقبض على ما يتفق أن يكون في متناول أسناني، وأسحبه، أو أحمله بعيدًا، متنهّدًا متأوّهًا، متعثّرًا، إلا أن شيئًا لا يمكنه أن يرضيني سوى تغيير تام للوضع الحالي للأشياء، ذلك الوضع الذي يبدو منذرا بالخطر المحقق. وهكذا حتى تعيدني اليقظة الكاملة إلى صوابي شيئًا فشيئًا، ويمكنني بصعوبة أن أدرك حدة هلمي المفاجئ، فأستنشق في عمق سكون مسكني، الذي قمت أنا نفسي بتشويشه، راجعًا إلى حيث كنت أستريح، مستغرقًا في النوم على الفور، مجهدا من جديد، وعند استيقاظي قد أجد فأرًا معلقًا بين مخاليبي، كدليل راسخ على جهود الليل التي تبدو حينئذ في الأغلب وكأنها خيالية. ثم تأتي أحيان أخرى يبدو فيها أن تخزين مئوني كلها في مكان واحد هو أفضل الخطط على الإطلاق. فأية فائدة تلك التي يمكنني أن أجنيها من تناثر زادي في الحجرات الصغيرة، وما هي الكمية التي يمكنني أن أختزنها في تلك الحجرات على أية حال؟ كما أن كل ما يسعني أن أكده هناك سوف يسد الممر، وسوف يصبح عائقًا حينئذ بدلًا من أن يكون عونًا لي فيما لو طوردت، وكان عليّ أن ألجأ إلى الهرب. وإنها لحماقة بالإضافة إلى هذا، لكنها أيضًا حقيقة، فغرور المرء لا يشبعه سوى أن يرى مخزناته كلها مجتمعة معًا في مكان واحد، وهكذا يمكن للمرء بنظرة واحدة أن يقدر قيمة ما يمتلكه. كما أنه أليس من المحتمل أن يضيع جزء كبير عند تقسيم مئوني على تلك الأقسام العديدة؟ كما أنه لن يكون بإمكانني أن أتجول للتفتيش خلال ممراتي كلها، والممرات الفرعية أيضًا للتأكد من أن كل شيء على ما يرام. إن فكرة تقسيم مخزوني هي بالطبع فكرة طيبة، لكن لو أن المرء فقط كان يمتلك عدة حجرات شبيهة

بصومعتي، عديد من مثل تلك الحجرة! حقًا! ومن ذا الذي يسعه أن يبنها؟ لم يكن يمكن على كل حال بناؤها تبعًا للتصميم الأساسي لججري في صورته الأخيرة تلك. إلا أنني أقر بأن ذلك كان خطأ في ججري، وإنه لمن الخطأ دائمًا أن يكون لديك نموذج واحد فقط من أي شيء، وأعترف أيضًا بأنه طوال ذلك الوقت الذي كنت أقوم فيه ببناء الجحر، كان تنبؤ غامض قد قام في رأسي بأن عليّ أن أبنى أكثر من صومعة واحدة، كان ذلك التنبؤ قد قام في غموض، لكنه كان واضحًا بما يكفي، لو أنني كنت فقط قد رحبت بالفكرة! إنني لم أستسلم لتلك الفكرة؛ فلقد أحسست بالضعف الشديد على مواجهة العمل الشاق الهائل الذي تتطلبه فكرة كهذه، وأكثر من هذا أحسست بالضعف الشديد حتى على الموافقة فيما بيني وبين نفسي على ضرورة مثل ذلك الجهد، وحاولت قدر استطاعتي أن أقنع نفسي بذلك الأمل الغامض في أن البناء الذي قد يبدو ناقصًا بوضوح في حالة أخرى، سوف يبدو وافيًا بالحاجة في حالتي تلك الفريدة الاستثنائية الموفقة؛ ربما لأن ذلك التدبر كان الغرض منه هو وقاية جبهتي تلك الأداة الفريدة في نوعها، وعلى هذا فلم يكن لي سوى صومعة واحدة؛ إلا أن تنبؤاتي السابقة بأن صومعة واحدة لم تكن لتكفي، قد اختفت. وربما كان عليّ أن أقنع نفسي بتلك الحجرة الواسعة؛ ذلك أن الحجرات الصغيرة لم تكن ببساطة لتغني عنها، وعلى هذا، عندما نما بداخلي هذا الاقتناع، بدأت مرة أخرى في سحب كل محتويات مخازني من تلك الحجرات الصغيرة إلى الصومعة. وأحسست بعد ذلك لفترة من الوقت بنوع من الراحة لإخلاء كل الحجرات والممرات، ولرؤية مخزوناتي وهي تتزايد في الصومعة، وتنبعث ألوانها

وروائحها المختلطة التي كانت كل رائحة منها تنعشني على نحو خاص، وكل نوع من تلك الأنواع التي كان يمكنني أن أميزها حتى من على البعد من أقصى الممرات النائية. ثم استمتعت عادة بفترات من الهدوء الخاص، غيرت خلالها مكان نومي تدريجيًا، متجها دائمًا نحو مركز الجحر، وكنت دائمًا أستغرق أشد الاستغراق، وسط الروائح المختلطة، حتى لم أستطع أخيرًا أن أكبح جماح نفسي، فاندفعت ذات ليلة إلى الصومعة، وطوحت بنفسني في عنف وسط مخزوناتني، والتهمت أفضل ما وجدته في متناولني، حتى امتلأت تمامًا. ساعات من السعادة، لكنها خطيرة، فلو وجد من يمكنه أن يستغلها لأمكنه أن يدمرني في سهولة، ودون أي مخاطرة. ولقد خسرت بهذا أيضًا مخزنًا كبيرًا ثانيًا أو ثالثًا، ذلك أن الركام الوحيد الكبير من أكداس الأطعمة هو ما أغراني، ولقد حاولت أن أضبط نفسي بشتى الطرق ضد هذا الخطر. وإن توزيع مخازني في الحجرات الصغيرة، كان في الواقع هو أحد هذه الوسائل، لكنه مثله لسوء الحظ، مثل باقي الوسائل، أفضى بي عن طريق الأفكار إلى أن أظل أشد شراهة، تلك الشراهة التي تغلبت على ذكائي، واضطرتني إلى تغيير خططي الدفاعية، حتى تتناسب مع نتائجها.

ولكي أستعيد هدوئي بعد مثل تلك الهفوات، قمت بمعاينة الجحر، وبعد أن أتممت إنجاز الإصلاحات الضرورية، كنت أتركها غالبًا رغم ذلك لفترة قصيرة. وفي مثل تلك اللحظات كان تركها لفترات طويلة يبدو كما لو كان مؤلما للغاية، حتى لي أنا نفسي، إلا أنني أدركت بوضوح الحاجة إلى مثل حملاتي القصيرة المؤقتة. ولقد كنت أقرب دائمًا من الفتحة الخارجية في كل مرة بنوع من الإحساس بالخطر، وكنت أتجنب الاقتراب منه طوال

فترات حياتي المنزلية، وكنت أبتعد تمامًا حتى عن المنعطفات الخارجية للبهو المؤدي إلى تلك الفتحة التي تنتهي إلى الخارج. وبالإضافة إلى هذا فلم يكن من السهل أن أتجول هناك؛ ذلك أنني كنت قد صممت هناك بضعة ممرات ملتوية على هيئة محارة صغيرة، ولقد كنت قد بدأت بناء جحري مبتدئًا بتلك الممرات الملتوية، في وقت لم يكن لدي فيه أدنى أمل في الانتهاء من بنائه طبقًا لمخططاتي، ولقد بدأت على نحو أقرب إلى اللهو من ذلك الركن، وهكذا أشبعت رغبتني في العمل إشباعًا شديدًا، في بناء جحر مضلل، كان يبدو لي وقتها درة كل الجحور مجتمعة، ويمكنني الآن أن أنظر إليه، ربما بإنصاف أكثر على أنه ليس سوى ثمرة لاندفاع عقيمة، وأنه غير جدير حقًا بالانتساب إلى باقي تصميم الجحر، وعلى هذا فلعل المدخل الرئيس كان هو الشيء الوحيد ذو القيمة في ذلك الركن، ولقد قلت هذا في تلك الأيام في سخرية، مخاطبًا أعدائي غير المنظورين، وأنا أتخيلهم جميعًا وقد تم وقوعهم واختناقهم في تلك المتاهة الخارجية، إنه في الواقع عمل سخيف من أعمال الحيلة، سوف يتصدى بصعوبة لهجوم خطر، أو لصراع عدو في الدفاع عن حياته. فهل يلزم حقًا أن أعيد بناء ذلك الجزء من جحري؟ لقد ظللت دائمًا أؤجل اتخاذ قرار في هذا الشأن، وقد يبقى ذلك المدخل الملتوي كما هو، فبالإضافة إلى العمل المرهق الذي يتعين عليّ أن أواجهه، فإن ذلك العمل سوف يكون أيضًا من أكثر الأعمال التي يمكن أن يتصورها المرء خطورة.

كان في مقدوري عندما بدأت العمل في بناء الجحر أن أعمل في حفره في هدوء وتأمل عقلي، ولم تكن المجازفة أشد خطورة من أي من

المجازفات الأخرى، إلا أن محاولة ذلك الآن سوف تلفت أنظار العالم كله بلا داع إلى جحري. إن ذلك الأمر مستحيل الآن تمامًا، وإنني لسعيد بذلك للغاية، ذلك أنه ما زال لدي ميل إلى ذلك التصميم الأول الذي أنجزته في البداية. ولو حدثت محاولة خطيرة لمهاجمتي، فهل ينقذني أي تصميم من تصميمات المداخل؟ من الممكن للمدخل أن يضل المتصدي للهجوم، وأن يقوده إلى طريق مسدود، وفي وسع المدخل أن يلقي في روع المهاجم رعباً لا حد له، وفي إمكان المدخل الحالي هو أيضاً أن يقوم بذلك الدور على نحو ما. إلا أن هجوماً حقيقياً خطيراً يجب أن يقابل بتجديد فوري لكل ما في الجحر من إمكانيات، وبكل قوى جسدي وروحي، وهذا شيء بديهي بالطبع، وعلى هذا ففي وسع ذلك المدخل أن يبقى تماماً حيث هو.

إن الجحر مليء بعيوب عديدة لا سبيل إلى دفعها، فرضتها ظروف وأسباب طبيعية، ولهذا ففي وسعه أن يحتمل ذلك العيب أيضاً بكل التأكيد الذي أعد مسئولاً عنه، والذي أدركه على أنه واحد من عيوب الجحر، ولو أنني لم أدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان، وعلى الرغم من ذلك فلست أنكر أن الخطأ لا يفتأ يبعث الخوف في نفسي من حين لآخر، وإنه ليزعجني في الحقيقة، على الدوام! وحين أتجنب في تجولاتي المعتادة ذلك الجزء من الجحر، فإنما يرجع سبب ذلك أساساً إلى أن رؤيته تؤلمني؛ لأنني لم أرغب في أن أذكر دائماً بخلل في بيتي، حتى ولو كان ذلك الخلل حاضراً في ذهني دائماً على نحو غاية في الإزعاج. فليواصل وجوده على تلك الصورة التي لا سبيل إلى إزالتها عند المدخل، ففي استطاعتي على الأقل أن أرفض النظر إليه بقدر ما يسعني ذلك الرفض. ولو أنني سرت

فقط في اتجاه المدخل، حتى ولو كانت تفصلني عنه بضعة من الممرات والحجرات، فإنني أشعر برياح خطر داهم، كما لو كان شعري قد أخذ يتلاشى، وربما تركني بعد لحظة هاربا، وتركني عاريا أرتعد معرضا لعواء أعدائي. نعم، إن مجرد التفكير في باب الخروج ليجلب لي معه مثل ذلك الشعور، إلا أن الطريقة الملتوية التي تؤدي إليه إنما هي ما يعذبني أكثر من أي شيء آخر، وإنني لأحلم أحيانا بأنني قد قمت بإعادة بناء تلك الطريقة، وأنني قد غيرت تصميمها تغييرا تاما بسرعة في ليلة واحدة، بقوة شيطانية خارقة دون أن يلحظ ذلك أحد، وأنه قد أصبح مدخلا منيعا الآن، وإنني لأدرك أن الليالي التي كانت تجيئني فيها مثل تلك الأحلام، كانت أحلى الليالي وأسعدها، وكانت دموع الفرح والخلاص تظل تلمع على لحيتي عندما أستيقظ.

ولهذا فإنه يتعين عليّ أن أفك تلك التعقيدات المؤلمة التي يعكسها على هذا المنحنى الملتوي جسديا وعقليا كلما حاولت الخروج، وإنني ليتابني السخط والتأثر، كما يحدث لي أحيانا عندما أفقد السيطرة على نفسي في داخل ذلك التيه الذي أمتلكه، ويتبدى لي ما صنعت يداي وكأنه يحاول أن يثبت كفاءته لي أنا نفسي، صانعه الذي لم يحكم بعد حكمه النهائي عليه.

إلا أنني أجدني بعد ذلك تحت طبقة الأعشاب الجافة التي تكون سدة فتحة الخروج، والتي تكون قد ظلت طويلا دون أن تمس - منذ أن قبعت طوال تلك الفترة في داخل منزلي - حتى أنها تكون قد أصبحت متجانسة مع التربة التي تحيط بها، ولا تتطلب الآن سوى دفعة واحدة من رأسي،

أصبح بعدها في العالم العلوي. وإنني لأظل فترة طويلة دون أن أجروّ على الإتيان بتلك الدفعة من رأسي، ولو لم يكن عليّ أن أجتاز ذلك التيه مرة أخرى لكنت دون شك قد عدلت عن الخروج، واستدرت راجعا من حيث أتيت. ولنتدبر قليلاً أمر تلك المسألة! إن لك منزلاً محصناً ومكتفياً بذاته، وإنك لتعيش في سلام ودفع، وتتغذى على نحو طيب، تعيش سيداً، السيد الوحيد لكل ممراتك وحجراتك العديدة، التي قمت بإعدادها بنفسك. ويتبدى هذا كله ليس فقط على أنه سيكف عن تتبعك، بل إنه ليتبدى بالفعل على أنه سيهجر، سيتخلى عنك، وإنك لتداعب الأمل الواثق لا شك، بأنك ستعود فتتملكه ثانية؛ لكن أليست تلك مغامرة خطيرة، غاية الخطورة تلهو بها؟ هل ثمة أي أساس معقول لمثل تلك الخطورة؟ لا.. لا يوجد أسس معقولة لمثل تلك الأحوال. إلا أنني في الوقت نفسه سرعان ما أرفع الغطاء الخفي، وأنزلق خارجاً، ومن ثم أتركه يسقط خلفي ثانية بنعومة، وأطير بأسرع ما يمكنني مبتعداً عن تلك البقعة المضللة. لكنني لست حرّاً في الحقيقة! حقاً إنني لست محبوساً بعد بين الممرات الضيقة، بل أندفع وسط الغابات والأعشاب المفتوحة، وأحس بقوى جديدة تتمطى مستيقظة في جسدي، لم تكن من قبل عندما كانت في داخل الحجر، تجد مجالاً ليقظتها، ولا هي حتى وجدته في داخل الصومعة، على الرغم من أنها أوسع عشر مرات من حجر الممرات، كما أن الطعام أيضاً أفضل هنا مما هو أعلى، ورغم أن الصيد أكثر صعوبة، وأن التوفيق عزيز المنال، إلا أن النتائج تكون أكثر قيمة من كل الوجوه، لست أنكر هذا كله، بل أقدر قيمته، وأستمتع به قدر طاقتي كما تفعل الحيوانات معظمها، وربما أكثر من باقي

الحيوانات؛ لأنني لا أصيد بصورة مشتتة، كما لو كنت مشردًا، أو بدافع من اليأس، وإنما أصيد في ثبات، ووفقًا لأصول قواعد الصيد. كما أنني أيضًا، لا أنساق تمامًا لهذه الحياة الحرة؛ لأنني أعلم أن فترة صيدي محدودة، وأنه ليس لي أن أنساق هنا وراء الصيد إلى ما لا نهاية، وأنني عندما أمل هذه الحياة، وأفكر في مغادرتها، فإن امرأ ممن لن أقوى على مقاومة دعوته، سوف يدعوني إليه مثلاً، وعلى هذا ففي وسعي أن أقضي وقتي هنا هادئًا دون مبالاة وفي سعادة تامة، أو أنه يمكنني أن أفعل ذلك، لكنني لا أقدر في الوقت نفسه أن أفعله؛ ذلك أن جحري يشغل معظم أفكاري، إنني أندفع من الفتحة بسرعة شديدة، إلا أنني سرعان ما أعود إليها ثانية. إنني أبحث عن مكان أختبئ فيه في الخارج، وأظل أرقب مدخل بيتي - هذه المرة من خارجه - لأيام طويلة وليالٍ. سمها حماقة إن شئت؛ فإنها تجلب لي سعادة لا حد لها، وتطمئنني. وفي مثل تلك الأوقات يبدو عليّ كما لو كنت لا أنظر إلى منزلي، بل أنظر إلى نفسي مستغرقًا في النوم، مستمتعًا بإغفاءة عميقة، بينما أمارس في الوقت نفسه القيام بدور الحارس اليقظ على نفسي. حينئذ يكون في إمكاني بالفعل ليس فقط أن أحلم بأشباح الليل بثقة النوم العمياء، وعجزه، وإنما أن أتصدى لهم أيضًا في واقع الأمر، بحكمة اليقظة التامة الهادئة! واكتشف على نحو شديد الغرابة أن وضعي ليس سيئًا جدًّا كما كنت أظن في أغلب الأحيان، وكما لعلي سألن بعدما أقفل راجعًا إلى منزلي. في هذا المقام - وربما في غيره أيضًا، لكن في هذا المقام على وجه الخصوص - تعد رحلاتي هذه ضرورية حقًا. ورغم أنني كنت قد اخترت بعناية طريقًا متطرفًا لمكان الباب، فإن حركة المرور التي تمر به

شديدة جداً مع ذلك، لو أن المرء قد قام فعلاً بملاحظة أسبوعية؛ ولا شك أنها كذلك في كل المناطق المسكونة، وربما كان من الأفضل أن يجازف المرء وسط حركة المرور الشديدة الخطرة، التي تجرف خطرها بعيداً في تيارها الشديد، عن أن يقبع في عزلة تامة، في انتظار أول دخيل عنيد متطفل. إن الأعداء هنا لا حصر لهم، وإن اتحداهم وتواطؤهم لا يزال شديداً، إلا أنهم يحاربون بعضهم البعض، ويمكنني - بينما يشغلهم ذلك - أن أهرب نافذاً بجلدي دون أن يلحظوا هربي. ولم أر طوال كل ذلك الوقت الذي قضيته وأنا أقرب مدخل جحري أحداً يتفحص بابه الحقيقي، الذي لا شك سيكون قدره وقدري في نفس الوقت؛ ذلك أنني سوف أنقض دون شك مطبقاً على حنجرتي، ناسياً كل شيء آخر في قلقي على الجحر. وقد كان يجيء في الواقع بعض الطفيليين الذين لم أكن أجروء على الاقتراب منهم، بل كنت أهرب بمجرد أن أشم رائحتهم من على البعد، ولا يمكنني في الحقيقة أن أعلن على وجه التحديد إن كانت وجهتهم الجحر أم لا؛ إلا أن ما كان يبعث الطمأنينة في قلبي أنني لم أكن أجداً أحداً منهم عندما كنت أرجع فوراً إلى الجحر، كما أنني كنت أجداً المدخل سليماً، لم يمسه سوء. وكانت هنالك ثمة فترات من السعادة، كان يمكنني فيها أن أحدث نفسي بأن عداء الدنيا لي قد توقف، أو هدأ، أو أن قوة الجحر كانت قد رفعتني فوق صراع الماضي المهلك. ولعل الجحر كان قد حصنني بوسائل كثيرة ما كنت أتوقعها أو أجروء على التفكير فيها، عندما أكون بداخله. إن هذا التصور قد ظل مسيطر عليّ، حتى أنني أحياناً ما كنت أجدني في قبضة تلك الرغبة الصبائية في عدم العودة إلى الجحر ثانية، وإنما أن أستقر في

مكان ما بالقرب من المدخل، وأن أقضي حياتي كلها في مراقبته. ولقد استغرقت طويلاً في تأمل - وفي ذلك كنت أجد سعادتي - مدى رسوخ تلك الحماية التي يوفرها لي الجحر لو أنني كنت في داخله. حسناً، إن المرء ليستيقظ سريعاً بقسوة من مثل تلك الأحلام الصبيانية، فما الذي تهدف إليه تلك الحماية التي أنظر إليها الآن هنا من الخارج بعد كل شيء؟ هل توجد لدي الجرأة لتقدير الخطر الذي يتهددني عندما أكون بداخل الجحر عن طريق الملاحظات التي أقوم بها عندما أكون خارجه؟ وهل يتسنى لأعدائي - ولنبدأ بذلك - أن يكون لديهم دراية بي عندما لا أكون بداخل جحري؟ لا شك أن لديهم دراية بشئوني على نحو ما، إلا أنها دراية غير تامة، ولكن ألا تعد تلك الدراية التامة، هي التحديد الفعلي لصورة من صور الخطر؟ إن التجارب التي أحاول القيام بها هنا إذن ليست سوى أنصاف تجارب، وربما أقل من أنصاف تجارب، أقوم بإجرائها لمجرد أن أطردها مخاوفي، وأترود منها بطمأنينة زائفة؛ لكي أستلقي عرضة للأخطار المهلكة. لا، لست أرقب نومي كما تخيلت، لكنني نائم فعلاً، بينما المخرب هو من يرقب، وربما كان واحداً من هؤلاء الذين مروا بالمدخل دون أن يبدو عليهم أنهم قد لاحظوا وجوده، فقط على سبيل التأكيد - تماماً مثلما أفعل أنا نفسي - بأن المدخل لم يمس، وأنه في انتظار هجومهم، وأنهم إنما يمرون لعلمهم بأن سيد الجحر في الخارج، أو لأنهم يعلمون جيداً أنه بصراحة مستلق للمراقبة وسط الأعشاب المجاورة. ولقد تركت برج مراقبتي، وأحسست أنني قد حصلت على ما يكفي من تلك الحياة الخارجية، وأحسست بأنه لا يوجد المزيد مما يمكن أن أتعلمه هنا، لا

الآن، ولا في أي وقت آخر، وتمنيت أن أقول وداعا لكل شيء هنا فوق الأرض، وأن أهبط إلى أسفل، إلى أعماق بحري دون رجعة إلى الأبد، تاركا الأمور تجري في مجراها المقدر له، ولا أحاول أن أعوقها بسهراتي العقيمة، لكنني بعد أن راقبت ما كان يجري حول المدخل طوال ذلك الوقت، وجدت صعوبة شديدة في لمّ شتات نفسي لاتخاذ قرار نهائي بالهبوط الفعلي، الذي قد يلفت أنظار أي كائن بسهولة، ودون أن أدري ماذا يحدث خلفي، وخلف المدخل بعد أن يتم إغلاقه. ولقد استفدت من الليالي العاصفة في تخطي المبادرات الضرورية، فحزمت زادي بسرعة، ويبدو أن ذلك كان قد تم كما ينبغي، إلا أنه سوف يتضح، لكن ليس لي أو، لي.. بعد فوات الوقت. وعلى هذا فقد عدلت عن المحاولة، ولم أهبط، وحفرت مجسًا على بعد كاف بالطبع من المدخل الأصلي، مجسًا عبارة عن خندق بطول جسمي، وغطيته هو أيضًا بالعشب الجاف، وزحفت إلى داخل خندقي ذاك، وأغلقت خلفي، وانتظرت في صبر، وظللت متيقظا لفترات طويلة وقصيرة، في ساعات مختلفة من النهار، ثم أزحت العشب، وخرجت من الخندق، ودرست ملاحظاتي. ولقد كانت تلك الملاحظات متضاربة إلى أقصى حد، كما أنها كانت حسنة وسيئة في وقت معا، إلا أنني لم أتمكن من اكتشاف قانون أو طريقة مأمونة للهبوط، وكنتيجه لهذا كله لم أكن بعد قد حزمت أمري على اتخاذ قرار بالهبوط الفعلي، وغرقت في اليأس، ووجدتني في عجز تام أمام ضرورة إنهاء تلك المسألة على وجه السرعة. ولقد حومت طويلاً حول فكرة اتخاذ قرار بالهجرة إلى أماكن نائية، وأن أمارس مرة أخرى حياتي السابقة الشاقة، التي لا ضمان لها رغم

ذلك، ولكنها سلسلة أخرى من الأخطار التي لا تفترق في شيء عما يكتنفي الآن من الأخطار، إلا أنها لهذا قد تكفيني عبء الشعور والخوف من أخطار محددة، كما أنني بقيت دائماً أذكر تلك المقارنة بين جحري الآمن وبين تلك الحياة العادية. ولا شك أن مثل هذا القرار - لو اتخذته - سيكون عملاً من أعمال الجنون المطبق، صادر فقط ببساطة عن سبق ممارسة الحياة الطويلة السابقة في حرية فارغة. إن الجحر لا يزال جحري، وليس علي سوى أن أخطو خطوة واحدة، أكون بعدها آمناً. وخلصت نفسي من كل شكوكي، واندفعت نحو المدخل في وضوح النهار، وعزمت على أن أرفع سدته في هدوء، لكنني لم أتمكن من أن أفعل ذلك، فأسرعت مبتعداً عنه، وألقيت بنفسي في أحضان الأعشاب الشائكة عمداً، وكأنني أعاقب نفسي تكفيراً عن خطيئة ما، لا أدري كنهها، ثم اضطرت أخيراً إلى أن أعترف لنفسي بأنني كنت محقاً في نهاية الأمر، وأنه من المستحيل حقاً أن أهبط إلى الجحر دون أن أترك ذلك الشيء الذي أحبه غاية الحب، ولو لفترة قليلة، تحت رحمة كل أعدائي وسط الغابات، وعلى الأرض في الهواء. وإن الخطر هو في الحقيقة مسألة خيالية، لكنها غاية في الواقعية في نفس الوقت. ولا يحتاج الأمر بالضرورة عدواً معيناً قد يستفز، ويتعقبني، بل قد يتصادف أن يكون حيواناً صغيراً بريئاً، أو حيواناً حقيراً قليل الشأن قد يتعقبني بدافع الفضول. وعلى هذا، ولأنني لا أعلم حقيقته، يصبح في نظري قائداً للعالم كله ضدي، ولعل الأمر ألا يكون كذلك، فمن الجائز ألا يكون الاحتمال أقل سوءاً من غيره، وإنه لأسوأ بالفعل من بعض النواحي؛ لأنه قد يكون واحداً من أبناء جلدتي، خبيراً يقدر قيمة الجحور، أو..

متعبدا، أو مسالما، لكنه على كل الأحوال وغد قدر، يرغب في أن يسكن جحورا لم يقم بينائها. فلو قدر له أن يصل الآن بالفعل، ولو تمكن انسيقا مع شهوته القبيحة من اكتشاف المدخل، فراح ينش لكي يفتحه، ويرفع الأعشاب والأتربة، ولو اتفق له أن نجح في ذلك، وتسنى له بالفعل أن يتلوى متخذاً طريقه إلى أسفل، إلى داخل مسكني، حتى لم يتبق منه سوى مؤخرته خارج المدخل، لو أن هذا كله قدر له أن يحدث، حينئذ سوف ألقى بكل حرصي إلى الريح، وقد أندفع في غمرة هياجي الأعمى، فأثب فوقه، أسحقه، وأنزع لحمه من عظامه، وأمزقه إربا، وأشرب دمه، ثم أضيف أشلاءه بعد ذلك إلى بقية غنائمي. لكنني قبل هذا كله - وهذا هو أهم ما في الأمر - أكون قد عدت ثانية إلى جحري في نفس الوقت. إن أعماقي لتهتز بالرغبة في أن ألقى التحية على المتاهة بغاية الفرح، إلا أن عليّ أولاً أن أسحب الأعشاب والأتربة فوقي بعدما أصبح في الداخل، حينئذ سألوذ بالخلود إلى الراحة، على ما يبدو لي، طوال ما يتبقى لي من الحياة. إلا أن أحدا لم يأت، وما زلت وحيدا في مواجهة حلولي الخاصة لمشكلة العودة، مشغول البال دائماً بالصعوبة البالغة التي تكتنف المحاولة. لقد تخلصت من الكثير من جبني، فما عدت أحاول بعد حتى مجرد أن أبدو وكأنني أتجنب المدخل، بل لقد أصبحت هوايتي هي التجول حوله، ولقد كنت أبدو في تلك الأثناء كما لو كنت جاسوسا معاديا أتحين الفرصة المناسبة للهجوم بنجاح إلى الداخل. فلو أن لي أحدا يمكنني أن أثق به حتى يقوم بالمراقبة في مكاني؛ لأمكنني إذن أن أهبط في غاية الهدوء العقلي، ولسوف أطلب من ذلك الحليف المخلص أن يعد تقريرا مفصلا عن الأحوال أثناء

هبوطي وبعده بمدة كافية، ويمكنه أن يدق على غطاء الأعشاب الذي يسد مدخل الجحر لو رأى أي نذير بالخطر، فإذا لم يلحظ شيئاً لا يفعل. فعلى هذا النحو يمكنني أن أتخلص تماماً من كل مخاوفي، ولا يتبقى بعد ذلك ما أخشاه، أو سيتبقى على الأكثر أمين سري ذاك، فهل من الممكن ألا يطالبني بدوره بأداء خدمة ما له في مقابل ذلك؟ ألن يبدي رغبته على الأقل في رؤية الجحر؟ إن هذا الأمر في حد ذاته سوف يؤلمني غاية الألم، سوف يؤلمني أن أسمح لأي كائن بأن يتجول بحرية في داخل جحري، فلقد بنيتة لنفسي، وليس للزوار، وأعتقد أنني سأرفض أن أسمح له بالدخول، حتى ولو كان هو الذي مكنتني من الدخول إلى الجحر لكي أسمح له بدوره هو أيضاً بالدخول. إلا أنني ببساطة لن يسعني أن أسمح له بذلك؛ لأنه سيتعين عليّ بالمثل أن أدعه يدخل أولاً، وهذا ما يبدو مستحيلاً بصراحة، أو أن علينا أن ندخل معاً ونهبط كلانا في نفس الوقت، حينئذ سوف تصبح الفائدة التي أنتظرها من وجوده بلا معنى. سوف تضيع الفائدة التي كنت أتوقع أن أجنيها من مراقبته للمكان أثناء هبوطي. ثم ما هي في الحقيقة تلك الثقة التي يمكنني أن أضعها فيه حينئذ؟ هل يمكن أن تتساوى ثقتي فيمن أراه أمامي بعيني مع ثقتي به عندما لا أعود أراه بعد مطلقاً حين تفصلنا سدة الأعشاب الجافة؟ يمكنك بسهولة أن تثق بأي شخص طالما تشرف عليه أو يمكنك مراقبته على الأقل، وربما كان من الممكن أيضاً أن تثق في شخص على بعد كاف، لكن أن تثق فعلاً في شخص خارج الجحر بينما تكون أنت في داخله؟ ربما أمكن أن يحدث هذا في عالم آخر غير عالمنا، لكنه في عالمنا مستحيل تماماً فيما يبدو لي. وليست مثل هذه الاعتبارات أهم ما في

الأمر، ذلك أنه يكفي مجرد التفكير في احتمال أن تمنع الأحداث التي لا نهاية لها- والتي يحفل بها الوجود- حليفي ذاك عن أداء واجبه على النحو الأكمل أثناء هبوطي أو بعده، وكم من النتائج التي لا حصر لها، يمكن أن يخبئها لي مثل ذلك الحادث شديد التفاهة؟ لا.. لو أن المرء تدبر تلك الحالة ومضاعفاتها، فسيتضح أنه ليس لي أن أشكو من كوني وحيداً، وأنه ليس لي من أثق به فقط سوى نفسي وجحري. ولقد سبق لي أن فكرت في ذلك من قبل، وأعددت نفسي لمواجهة الصعوبات التي تشغلني الآن! ولقد كان من الممكن على نحو ما أن يقع حادث من ذلك القبيل عندما بدأت في بناء البحر، وقد كان علي أن أبني الممر الأول ليكون ذا مدخلين، تفصل كل منهما عن الآخر مسافة معقولة. وعلى هذا فبعد الهبوط خلال أحد الممرين بذلك البطء الذي لا سبيل إلى تجنبه، يمكنني أن أندفع فوراً خلال الممر إلى المدخل الآخر، وأرفع السدة الجافة المكونة من الأعشاب والأتربة التي ستكون قد أعدت بحيث يسهل رفعها. ومن هناك يمكنني أن أرقب الحال لعدة أيام وليال! كان من الممكن أن يكون هذا هو السبيل الوحيد لحل هذه المشكلة! حقاً، إن المدخلين سيضاعفان الخطر، إلا أن هذا الخاطر لم يكن ليعطلني؛ لأن أحد الممرين سيستخدم فقط كبرج للمراقبة، وسيكون ضيقاً للغاية. ولقد استغرقني دوامة شديدة من التفكير فنيًا بشأن التنفيذ، وبدأت مرة أخرى أداعب أحلامي ببحر كامل تمامًا، ولقد هدأ ذلك من قلقي إلى حد ما، ورأيت بعيني المغلقتين في فرح حيلاً معمارية متكاملة أو شبه متكاملة، تساعدني على أن أنسل خارجاً، أو أنزلق إلى الداخل دون أن يلحظني أحد. وبينما كنت أستلقي هنالك مستغرقاً في

مثل تلك الأفكار، غلبني الإعجاب الزائد بمثل تلك الحيل المعمارية، لكنني أعجبت بها فقط كحلول فنية، لا كميزات فعلية، فكيف تبدو قيمتها، لو نظرنا إليها من زاوية تلك الحرية التي يتوجب عليها أن توفرها لي في الانسلاخ إلى الخارج إلى الداخل تبعاً لرغبتى الخاصة؟ إنها دليل على طبيعة قلقة، على شك داخلي، على رغبات شائنة، ونزعات شريرة لا تزال تتبدى أشد سوءاً عندما يفكر المرء في الجحر الذي يقع هناك في متناول يد المرء، ويمكنه أن يفيض على المرء بالأمان لو كان في مقدوره فقط أن يظل متفتحاً تماماً وواعياً. إنني الآن ما زلت رغم ذلك خارجه أبحث عن بعض الوسائل التي تتيح لي العودة إليه، ولهذا فإن الخدع المعمارية الضرورية ستظل مطلوبة، لكنها قد لا تكون مطلوبة بالفعل إلى ذلك الحد في نهاية الأمر! أليس ظلماً بالغا للجحر أن ينظر المرء إليه في لحظات الفزع العصبي على أنه مجرد حفرة، يمكنه أن يزحف إليها ليكون آمناً؟ لا شك أنه حفرة مثل باقي الحفر الأخرى، ولا شك أنها حفرة مأمونة، أو ينبغي أن تكون مأمونة. وعندما أتخيل نفسي وسط الخطر، فإنني حينئذ أصر - وأنا أكره على أسناني، وبكل عنادي - على أن الجحر لا ينبغي له أن يكون شيئاً سوى حفرة فقط قد أعدت لإنقاذي، وأنه ينبغي عليها أن تضطلع بتنفيذ تلك المهمة الصريحة المحددة بكل ما يمكنها من الكفاءة، وإنني لعللى أتم الاستعداد لأن أعفيه حينئذ من كل واجباته الأخرى. وإن حقيقة الأمر الآن - ولا يسع المرء أن يلاحظ ذلك في لحظات الخطر الشديد، بل إن ملاحظتها لتتطلب منه جهداً فائقاً عندما يتهدهد الخطر بالفعل - هي أن الجحر يقدم في الواقع جانباً لا يستهان به من الأمان، لكنه لا يكفي بحال

من الأحوال، فهل يتاح للمرء أن يتخلص من قلقه عندما يكون في داخله؟ إن هذا القلق ليختلف عن القلق العادي، إنه قلق مزهو فياض في إشباعه، وغالبا ما يكون مكبوتا منذ أمد طويل، إلا أن أثر ذلك القلق ليتساوى إلى حد بعيد مع أثر القلق الذي ينتج عن وجود المرء في العالم الخارجي. فلو كنت قد قمت ببناء الجحر لكي أؤمن سلامتي بصفة خاصة، لما كنت قد اكتسبت حقاً، بغض النظر عن العلاقة بين الجهد المبذول في بنائه، وبين الأمان الفعلي الذي قد يحققه لي، على الأقل، على قدر ما يسعني أن أشعر بذلك، و أفيد منه، لاتضح من هذا أن المشروع لم يكن في صالحه. وإنه لمن المؤلم إلى أبعد الحدود أن يضطر المرء إلى أن يقر بمثل هذه الأشياء فيما بينه وبين نفسه، إلا أن المرء ليضطر إلى أن يفعل ذلك عندما يواجه بمثل ذلك المدخل هنالك، وقد أغلق نفسه الآن بالفعل، وأحاط نفسه بحاجز في مواجهتي أنا منشئه ومالكه. لكن الجحر بعد هذا كله ليس مجرد حفرة يلجأ إليها المرء. فعندما أقف في الصومعة محاطاً بأكوام الخزين، متفحصاً الممرات العشرة التي هناك بنظراتي، تلك الممرات الصاعدة والهابطة، الرأسية والمنحنية، والواسعة والضيقة، تبعا لما فرضته الخطة العامة لبناء الجحر، عندما أتفحصها وهي ساكنة وفارغة جميعاً، متأهبة بدروبها المتعددة لكي تقودني إلى سائر الحجرات التي تقبع ساكنة وخالية هي أيضاً، حينئذ تكون كل الأفكار عن الأماكن في ذاتها قد أصبحت أبعد ما تكون عن ذهني. وأشعر إذ ذاك بأنني هنا في قلعتي التي استخلصتها من التربة العنيدة بالأنياب والمخالب بضربات الهرس والدق، قلعتي التي لا يمكنها أن تنتمي لأي كائن آخر سواي، وإنها لتنتمي إليّ في جوهر وجودها،

لدرجة أنني أتقبل في هدوء، وأنا بداخلها، حتى ضربات أعدائي القاضية في ساعتَي الأخيرة، ذلك أن دمي سوف يفيض وينتشر هنا فوق تربتي الخاصة، وأنه لن يضيع. وإلا فأَي شيء غير ذلك يمكنه أن يعطي معنى لتلك الساعات الهائلة التي أقضيها حيناً ناعساً في سلام، ومتربحاً أحياناً في سعادة بداخل تلك الممرات، تلك الممرات التي تناسبني إلى أبعد الحدود، حيث يمكنني أن أتمدد مستلقياً في ارتياح، وأتدحرج هنا وهناك في فرح صبياني، وحيث أستلقي وأحلم، أو أستغرق في نوم هانئ عميق. أما الحجرات الصغيرة التي أعرفها، حتى أنني ليسعني أن أميز بينها في وضوح بعيني المغلقتين على الرغم من تشابهها التام جميعاً، بمجرد لمس حوائطها، فهي تضميني بأمان ودفع أكثر مما يمنحه العش لطائر، كما أن كل شيء هادئ بداخلها، كل شيء هادئ، وخال!

لكن لو كانت تلك هي القضية، فما الذي يجعلني أقف بعيداً؟ لماذا أفزع من فكرة العدو المتطفل، أكثر مما تفزعني فكرة عدم العودة ثانية إلى جحري؟! حسناً، إن الاحتمال الأخير هو - لحسن الحظ - مستحيل، فليست بي أدنى حاجة حتى لمجرد أن أعلم ما الذي يعنيه الجحر بالنسبة لي، وإنني والجحر لنتتمي إلى بعضنا البعض على نحو لا يقبل الجدل، حتى أنني على الرغم من كل مخاوفي، يمكنني أن أظل مرتاحاً تمام الارتياح هنا خارجه، ولست في حاجة إلى أن أتغلب على نفوري، وأن أفتح المدخل! في وسعي أن أبقى، مقتنعاً غاية الاقتناع بأن أوصل انتظاري هنا باستسلام، ذلك أن شيئاً لا يمكنه أن يفصله عني إلى الأبد، ولأنني بشكل أو بآخر سأجدني ثانية بلا ريب في داخل جحري! لكن كم من الوقت سوف يمر

في هذه الحالة قبل أن يتم حدوث ذلك؟، وكم من الأمور قد تقع في تلك الأثناء، سواء هنا فوق، أو هنالك في أسفل؟ وهنا استبدت بي فكرة أن عليّ أن أضع حدا لتلك الحالة، وأن أفعل فوراً ما لا بد من فعله.

بعد ذلك، وبعد إجهاد عنيف حتى أنني لم أعد قادراً على التفكير، فقد كان رأسي يتطوح، وكانت ساقي ترتعشان من شدة الإرهاق، وكان النعاس يغالبني، وبينما كنت أتحمس لطريقي وأتلمسه - ولا أقول إنني كنت أسير على هذا النحو - اقتربت من المدخل ورفعت الغطاء المكون من الأعشاب الجافة ببطء، وببطء هبطت تاركا الباب مفتوحاً في ذهولي، لفترة طويلة لا داعي لها، إلا أنني سرعان ما أدركت إهمالي، وخرجت ثانية لتدرك ذلك الإهمال، لكن ما هي الحاجة التي تقتضي أن أخرج ثانية لكي أفعل ذلك؟ إن كل ما كنت أحتاجه أن أسحب الغطاء المكون من الأعشاب الجافة، وعلى هذا فقد زحفت، وسحبت الأعشاب الجافة أخيراً! بهذه الصورة، وعلى هذا النحو فقط، كنت بالفعل قد هبطت، وهكذا استلقيت أخيراً تحت الأعشاب، فوق الأتربة المصطبغة بدمائي، وأصبح في وسعي الآن أن أحقق رغبتني في النوم.

لم يزعجني شيء، ولم يتعبني أحد إلى أسفل، وفوق الغطاء المكون من الأعشاب كان كل شيء يبدو هادئاً على ما يبدو، لكن لو لم يكن شيء على ما يرام، فهل يتعين عليّ أن أقف الآن للمراقبة؟ لقد غيرت مكاني، تركت العالم الخارجي، وأنا الآن في جحري، ولقد أحسست بآثره على الفور! إنه عالم جديد، يمدني بقوة جديدة، وما أحسسته من التعب هناك في الأعلى لم يعد كذلك هنا. لقد عدت من رحلة، متعباً ككلب ضال من

طول حراستي، إلا أن مرأى البيت العتيد، والتفكير في كل الأشياء التي تنتظر إنجازها، على الأقل ضرورة إلقاء نظرة على كل الحجرات، بل التوجه قبل هذا كله مباشرة إلى الصومعة. لقد حول ذلك إرهابي إلى حماس حار كما لو كنت عندما وضعت قدمي في الجحر، قد استيقظت من نوم طويل عميق. إن واجبي الأول واجب شاق للغاية، ويتطلب كل انتباهي، وأعني به رفع الأتربة خلال ممرات المتاهة الضيقة، رفيعة الجدران. وقد دفعتها بكل قواي، وتم إنجاز العمل، لكن في غاية البطء بالنسبة لي، ولكي أسرع به سحبت مرة أخرى قطعة من اللحم الذي كنت قد غنمته في رحلتي، ودفعتها أمامي، وشققت طريقي فوقها، والآن لم يتبق لي فقط خلفي سوى قطعة واحدة من غنائمي كلها، وكان التقدم قد أصبح أكثر سهولة، إلا أن طريقي كان مسدودا بكتلة اللحم التي تتقدمني في داخل تلك الممرات الضيقة، التي لم يكن يمكنني أن أجتازها دائمًا في سهولة عندما أكون بمفردي، لكي أنزلق في يسر وسط مخازني، وكان يمكنني أحيانًا أن أنقذ نفسي من ضغطها بأن أكل بنفسني ما يشغل المساحة التي أود أن أخليها لنفسني. إلا أن عملية النقل كانت ناجحة مع ذلك، فلقد أتممتها في وقت معقول للغاية، وأصبحت المتاهة خلفي، وبلغت ممرا عاديا، وتنفست في ارتياح، ودفعت أسلابي خلال ممر جانبي إلى أحد الممرات الرئيسة الذي كنت قد صممت خصيصًا لهذا الغرض، وهو ممر ينحدر هابطًا إلى أسفل بميل نحو الصومعة. أما ما يتبقى أمامي لكي أقوم بأدائه فلم يكن يعد عملاً بالمرّة. كان حملي يتدحرج ويهبط إلى أسفل غالبًا من تلقاء نفسه، والصومعة أخيرًا! أخيرًا يسعني أن أجرؤ على التفكير في راحة. لم يكن

ثمة شيء قد تغير، ولا كانت أية نكبة فاجعة قد حدثت. والعيوب الطفيفة القليلة التي لاحظتها لأول وهلة كان يمكن إصلاحها في الحال. لكن كان عليّ رغم ذلك أن أمر مروري الطويل أولاً عبر كل الممرات، ولم تكن ثمة صعوبة في ذلك، إنه لم يكن يعدو الاتصال ثانية بالأصدقاء، كما كنت أفعل على الأغلب، في الأيام الغابرة أو-إنني لم أصبح عجوزاً بعد إلى هذا الحد، إلا أن تذكري لعديد من الأشياء قد أصبح مضطرباً الآن للغاية- كما اعتقدت دائماً أنني أفعل.

وبدأت بالممر الثاني متعمداً ضبط جماح نفسي، ذلك أنني لو رأيت الصومعة مرة، فسوف يمتد وقتي إلى ما لا نهاية له- وفي داخل الجحر يمتد الوقت أمامي دائماً إلى ما لا نهاية له- لأن كل ما أفعله هنا، هو دائماً عمل ذو قيمة، وبالغ الأهمية، ويجلب لي المتعة إلى غير حد.

بدأت بالممر الثاني، لكنني توقفت في منتصفه، وتحولت إلى الممر الثالث، ثم تركته يقودني ثانية إلى الصومعة، والآن عليّ بالطبع أن أبدأ بالممر الثاني مرة أخرى، وهكذا فأنا ألهو مع واجباتي، وأطيل أمدّها، وأبتسم لنفسي، وأهنئ نفسي، وأدوخ تماماً من كثرة العمل الذي ينتظرنني، إلا أنني أبداً لا أفكر في التنحي عن القيام به. إنني من أجلك أيتها الممرات والحجرات وأنت أيتها الصومعة قبل كل ما عداك، قد عدت ثانية، معتبرا حياتي نفسها لا شيء، إذا قيست بك، بعد أن ارتعشت كل هذا الوقت بغباء خوفاً عليها، مؤجلاً عودتي إليك! فماذا يهمني من الخطر الآن بعد أن أصبحت معك؟ إنك تنتمين إليّ، وإنني لأنتمي إليك، لقد اتحدنا، فما الذي يمكنه أن يصيبنا بمكروه؟ وماذا لو كان أعدائي قد تجمعوا هنالك

الآن في أعلى، بينما تتحفز أفواههم للاندفاع خلال سدة الأعشاب؟ وأجابني الجحر بصمته وفراغه، مؤيدا كلماتي، لكن شعورا بالفتور قد غلبني الآن، وكومت نفسي في إحدى الغرف الأثيرة لدي متفكرا، لم أكن بعد قد تفقدت كل شيء بصورة تامة، على الرغم من أنني كنت لا أزال مزمعا أن أتفحص كل شيء إلى أقصى حد، وليست لدي أية نية في أن أنام هنا! كنت فقط قد استسلمت لإغراء منح نفسي لحظة من لحظات الراحة، وتوهمت أنني أرغب في النوم، ولقد رغبت فقط أن أرى ما إذا كان ذلك المكان الذي كنت قد اعتدت على اتخاذه مكانا لنومي لا يزال مناسباً للنوم، ولقد كان، بل لقد كان يصلح للنوم أكثر مما يصلح لليقظة، ولقد ظللت مستلقيا حيث كنت في إغفاءة عميقة.

ولا بد أنني كنت قد استغرقت في النوم مدة طويلة، ولقد استيقظت فقط عندما بلغت لحظات النعاس الأخيرة الخفيفة التي انقضت من نفسها، ولا بد أنها كانت خفيفة للغاية، ذلك أنه لم يكن على الأغلب سوى صغير خافت هو الذي تسبب في إيقاظي. ولقد أدركت ذلك الصوت فورا، تلك الحشرة الضئيلة التي كنت قد تركت لها مجالا واسعا، فكان أن حفرت لنفسها مجرى جديدا في مكان ما أثناء غيابي، ولا بد أن ذلك المجرى قد لفت انتباه حشرة أخرى أكبر منها، وكان الهواء ينفذ خلال ذلك المجرى، ويصدر عنه ذلك الصغير، فما هو الحد الذي يمكن أن تمل تلك الحشرات الصغيرة العمل عنده، وكم من الإزعاج يسببه نشاطها الدائب؟! سوف أسمع أولاً إلى جدران ممراتي، ثم أحدد المكان الذي يصدر عنه الإزعاج عن طريق القيام بعمل مجسات، وحينئذ فقط سوف أتمكن من

أن أتخلص من ذلك الصوت. وعلى أي حال، فلعل تلك القناة الجديدة أن تنفعني كوسيلة من أطول وسائل التهوية لو أمكن إدماجها في خطة تصميم الجحر، إلا أنني سوف أفتح عيني على اتساعها فيما بعد على مثل تلك الحشرة الصغيرة بحدة أكثر مما اعتدت أن أفعل من قبل بشأنها، وسوف لا أستبقي منها حشرة واحدة.

ولأن لديّ خبرة واسعة بالبحوث التي من هذا القبيل، فلعل الأمر لا يستغرقني طويلا، وفي إمكانني أن أبدأه فورا، وإن أعمالا أخرى لتتظرني في الحقيقة، إلا أن هذا هو أكثرها أهمية، فلا بد للصمت من أن يسود كل ممراتي. ومع ذلك فهذا الصوت ليس سوى صوت بريء خافت بالنسبة لغيره، لم أكن أسمعه مطلقا عندما وصلت لتوي، رغم أنه لا بد كان موجودا دون شك. لكن من الضروري أن أشعر بالألفة التامة في بيتي قبل أن يتيسر لي سماعه، وإنه ليسمع فقط لأذن صاحب البيت وحده على ما يبدو لي، كما أنه لم يكن صوتا متصلا أيضًا كما هو العهد بمثل الأصوات، فثمة وقفات طويلة، كان سببها بوضوح انسدادات في مجرى تيار الهواء! بدأت أبحاثي، إلا أنني لم أتمكن من العثور على المكان الصحيح الذي يمكنني أن أبدأ منه، ومع أنني قد حفرت بضعة مجسات، إلا أنني قد حفرتها جزافا، ولم يكن لذلك بالطبع أي طائل، كما أن المجهود الشاق الذي كان يصدر عنه الصوت استمر منبعثا دائما بنفس خفوته، تتخلله وقفات منتظمة حيناً كنوع من الصفير، وفي مرة أخرى كأصوات أزيز. ويمكنني الآن أن أترك تلك الأصوات وشأنها، إنها مزعجة غاية الإزعاج بلا ريب، إلا أن الشك في أن يكون سببها هو ما أدركته في بداية الأمر كان يقينا من الصعب أن

يتزعزع، وعلى هذا فمن الصعب أن يزداد ارتفاع تلك الأصوات، بل إنها على العكس من ذلك قد تختفي من نفسها بمرور الوقت - رغم أنني لم يكن يسعني حتى الآن أن أنتظر طويلاً إلى هذا الحد، على أمل أن يحدث هذا - ربما اختفى الصوت نتيجة لاستمرار عمل هؤلاء الحفارين الصغار، كما أن الصدفة نفسها في أغلب الأحيان يمكنها أن تضع يد المرء - فوق هذا، على سبب الإزعاج، حيث تفشل البحوث الطويلة المنتظمة. على هذا النحو هدأت نفسي، وشرعت ببساطة في إكمال دورتي على الممرات، وزيارة الحجرات التي لم أكن بعد قد زرت الكثير منها منذ عودتي، وأخذت أمتع نفسي بتأمل الصومعة من وقت لآخر إلا أن قلقي لن يتركني، ولا بد لي من أن أواصل بحثي. إن هذه الحشرات الصغيرة تتطلب الكثير، والكثير جداً من الوقت الذي كان يمكن أن يستغل على نحو أفضل. وفي الأحوال التي من قبيل حالتي تلك الراهنة تجذبني عادة الجوانب الفنية من الأمر، فالضوضاء مثلاً في إمكان أذني أن تميز حتى أدق أصداؤها، حتى لقد أصبح لهذه الضوضاء شكل معين واضح غاية الوضوح بالنسبة لي، حتى ليتمكنني تبعاً لذلك أن أستنتج سببها، وإنني لأوشك الآن أن أحترق شوقاً إلى معرفة مدى صحة استنتاجي.

وليس في إمكاني الآن أن أشعر بالأمان، لعدد من الأسباب المقنعة، طالما أن استنتاجي ذاك لم تثبت بعد صحته. حتى لو تكشف الأمر عن حبة من الرمل قد تكون سقطت من أحد الجدران، وتدرجت نحو المجرى، وإن صوتاً من هذا القبيل لهو أمر مهين بلا شك لو نظرنا إليه من هذه الزاوية، لكنه سواء كان أمراً هيناً أو مهماً، فإنني لم أتمكن من أن أجد شيئاً، رغم

كل جهودي الشاقة التي أنفقتها في البحث. قلت لنفسي: .. لعلني قد وجدت الكثير، إذا كان قد قدر لذلك أن يحدث في حجرتي. وسرت مسافة طويلة بعيداً عنها، نحو نصف الممر المؤدي إلى الحجرة المجاورة، وكنت قد سرت تلك المسافة فقط على سبيل المزاح، موهما نفسي بأن حجرتي المفضلة لم تكن لتلقي اللوم وحدها؛ لأن ثمة إزعاج أيضاً في كل مكان آخر من البحر، وبابتسامة على وجهي شرعت في التسمع، إلا أنني كفت لتوي عن الابتسام، فلقد قابلني بالفعل نفس الصفير هنا أيضاً! وليس ثمة شيء في الواقع يمكن أن ينزعج المرء بسببه، ذلك أنني أعتقد أحياناً أن أحداً سواي لا يمكنه أن يسمع تلك الأصوات. حقاً، إنني أسمعها الآن أشد وضوحاً، ذلك لأن أذني قد غدت الآن أشد حدة بطول الممر، رغم أنه هو في الواقع نفس الصوت تماماً، مهما كان المكان الذي أحاول أن أسمع إليه منه، وهذا ما انتهيت إلى الاقتناع به بعد مقارنة انطباعاتي! أو.. أنه كان يزداد ارتفاعاً، وكنت قد تحققت من هذا عندما كنت قد سمعت في منتصف الممر، دون أن أضغط أذني إلى الحائط، وإنما بأن أرهف سمعي فقط، وبأن أطرق برأسي نحو الأرض كذلك في الحقيقة، حتى يصبح في مقدوري أن أخمن أكثر من أن أسمع أدق أثر للضوضاء من وقت لآخر. إلا أن شدة تشابه الصوت في كل مكان هو أشد ما كان يزعجني، ذلك لأنه لم يكن ليتوافق مع أوهامي الأولى عنه، فهل أفلحت حقاً في التكهّن بمبعث ذلك الصوت؟ إنه لا بد يصدر إذن بقوة شديدة من أحد الأماكن الثابتة، التي يتعين علي أن أكتشفها، لكنه أصبح خافتاً بعد ذلك، فأشد خفوتاً! فلو لم تتطابق افتراضاتي مع الواقع، فماذا يكون التفسير؟ هنا، لا يزال يبقى احتمال أن

يكون هناك صوتان، وأنني كنت حتى الآن أسمع من مسافة بعيدة متساوية البعد عن كلا المركزين اللذين يصدر عنهما كل من الصوتين، وأن الصوت يزداد ارتفاعا كلما اقتربت من أحدهما، وأن النتيجة الأخيرة تبقى تقريباً كما هي بالنسبة للأذن، نتيجة لشدة الصوت الصادر من المركز الآخر. ولقد تخيلت الآن في أحيان كثيرة، عندما استمعت بعناية، أن في إمكاني أن أميز، ولو بكثير من الإبهام، اختلافات في درجة الصوت تؤيد هذا الافتراض الأخير. وعلى أية حال، يجب علي أن أمد مجال أبحاثي أبعد كثيراً مما فعلت حتى الآن. ولهذا هبطت الممر نحو الصومعة، وبدأت أسمع هناك! غريب! نفس الصوت هنا أيضاً! والآن لا بد أنه صوت صادر عن حفر طائفة من الحشرات الصغيرة، التي استغلت غيابي بصورة فاضحة، وعلى أية حال، فليس لديهم أي نوايا في إلحاق أي أذى بي. إنهم ببساطة مشغولون بعملهم، وطالما أن أي من العقبات لن تعترض طريقهم، فسوف يمضون قدماً في الاتجاه الذي اتخذوه، إنني أعلم هذا كله، إلا أن كونهم قد اجترأوا على الاقتراب من الصومعة ذاتها، أمر غير مفهوم لي، وإنه ليملؤني حيرة، ويشوش الطاقات التي أحتاجها غاية الحاجة لإنجاز العمل الذي ينتظرنني. ليست لدي أية رغبة هنا في أن أعرف ما إذا كان السبب هو العمق المبالغ فيه الذي تستقر عنده الصومعة، أو أنه اتساعها الهائل، وطاقتها التي تستتبعه في شفت الهواء، والتي تتيح لها أن تبعث الفزع في الحشرات الحافرة، وتعمل على تشتيتها بعيداً، أو.. مجرد حقيقة أنها هي الصومعة التي وصل خبرها إلى عقولهم الغبية عن طريق مجرى آخر.

ولم ألحظ مطلقاً على أي حال دليلاً واحداً للحفر حتى الآن في

حوائط الصومعة. لقد أتت إلى هنا جماعات من الحشرات الضئيلة، منجذبة بالروائح النفاذة، هذه مسألة واقعة، وبهذا أكون قد وضعت يدي على أرض دائمة للصيد. إلا أن من أطاردهم قد حفروا دائماً طريقاً خلال الممرات العليا، قادمين بسرعة إلى هنا، خائفين إلى حد ما، لكنهم غير قادرين على الصمود أمام مثل ذلك الإغراء. لكن يبدو لي أنهم يحفرون الآن في كل الممرات، فلو كنت قد نفذت أفضل تلك التصميمات الهائلة الرائعة التي كنت قد درستها في شبابي، وفي فترة نضجي المبكرة، أو كنت قد امتلكت فقط القدرة على تنفيذها، لأنني لم تكن تنقصني الإرادة! فقد كان أي من هذه التصميمات التي كنت قد درستها يقضي بأن أعزل الصومعة من كل جوانبها، فيما عدا أساس ضيق كان يتحتم عليّ تركه - لسوء الحظ - لكي يحمل التصميم كله. ولقد لازمتني دائماً صورة تلك المساحة الخالية - وما كان ذلك بلا مبرر - كما تلازمني أحب التخيلات. فإلى أي حد يفيض المرء بالسعادة عندما يرقد ملتصقاً ضاغطاً جسمه إلى الحائط الخارجي المستدير، ينهض إلى أعلى، ويترك نفسه لينزلق ثانية إلى أسفل، ويفقد توازنه، ليجد نفسه فوق أرض صلبة، ويلعب كل تلك الألعاب بتفاصيلها على مقربة من الصومعة، لكن دون أن يدخلها، و.. أن يتجنب المرء الصومعة، ويريح ناظره من التطلع إليها حينما يحلو له ذلك، وأن يؤجل الفرح بمراها إلى حين، وألا يستعملها، لكن فقط يحتضنها آمنة بين راحتيه - إنه شيء يعد مستحيلاً طالما أن لك مدخلاً واحداً عارياً مفتوحاً إلى داخلها، ويكون في وسعك فوق هذا كله أن تقف حارساً عليها، وتكون - على هذا النحو - متمتعاً غاية المتعة بتجنب الرؤية

المباشرة لها، حتى أنه لو تعين على المرء أن يختار بين أن يقضي حياته كلها إما في داخل الصومعة، وإما في المساحة الخالية التي تحيطها من الخارج لاختار الأخيرة، راضيًا بالتجول إلى أعلى وإلى أسفل طوال اليوم، حارسًا للصومعة! حينئذ لن تكون ثمة أصوات هنالك صادرة عن الجدران، ولا حشرة وقحة تحفر في اتجاه الصومعة نفسها، ولن يكون عليّ حينئذ أن أسمع باشمزاز إلى هنالك، وسأكون حارسه، ولن يكون عليّ حينئذ أن أسمع باشمزاز إلى حفر حشرة ضئيلة كتلك، بل أكون سعيدًا لاستماعي إلى شيء لا يتاح لي سماعه الآن مطلقًا، هو صمت الصومعة الهامس!

إلا أن ذلك الحلم البديع قد انقضى وقته، وعليّ الآن أن أشرع في العمل، سعيدًا غاية السعادة بأن لعملي الآن علاقة مباشرة بالصومعة؛ لأن ذلك سيدعم وجودها. ويسعني أن أرى دون شك، بغاية الوضوح، أنني في حاجة إلى كل طاقتي لهذا العمل الذي يبدو وكأنه عمل عارض. وإنني لأسمع الآن إلى حوائط الصومعة، ومن حيث أسمع في أعلى، أو أسفل، عند السقف أو في الأرضية، عند المدخل أو في الأركان، في كل مكان، وفي أي مكان، تصلني نفس الضوضاء! وكم من الوقت، كم من العناية الفائقة، قد تبدد في التسمع إلى تلك الضوضاء، بتوقفها المنتظم! في إمكان المرء أن يجد عزاء طفيفًا خادعًا في حقيقة أنه هنا في الصومعة لا يسمع لاتساعها شيئًا بالمرّة، كما يمكن أن يتضح ذلك من الممرات، لو توقف المرء خلف حوائطها، وغالبًا ما أقوم بهذه التجربة فقط كنوع من الراحة، وكوسيلة لاسترداد هدوئي، فأتسمع بانتباه، وأكون سعيدًا غاية السعادة عندما لا أسمع شيئًا.

لكن تبقى المشكلة كما هي، ما الذي قد يحدث؟ حين أواجه بهذا اللغز يتهاوى تفسيري الأصلي، كاملاً إلى الأرض. لكنني لا بد من أن أطرح أيضاً تفسيرات أخرى تنبثق من تلقاء نفسها، ففي مقدور المرء أن يزعم مثلاً على سبيل المثال أن الضوضاء التي أسمعها هي تلك الأصوات التي تحدثها تلك الكائنات الضئيلة أثناء عملها، إلا أن خبراتي كلها لا تتفق مع ذلك، فلا يمكنني أن أسمع الآن فجأة شيئاً لم أسمعه مطلقاً من قبل، على الرغم من وجوده دائماً هنالك. وربما تكون حساسيتي للاضطرابات داخل الجحر قد أخذت تتزايد بمرور السنين، إلا أن سمعي قد غدا- بشكل ما- أشد إرهافاً، وإنه لمن طبع أية حشرة ضئيلة ألا يُسمع لها صوت، فهل تراني قد تساهلت معهم من ناحية أخرى؟ إن في مقدوري، ولو خاطرت بالموت جوعاً، أن أبيدهم جميعاً.

لكنني ربما- وإن هذه الفكرة لتلح على الآن- كنت أنعامل هنا مع بعض الحيوانات التي لا أعرفها. من الممكن أن يكون الأمر كذلك. لقد خبرت الحياة طويلاً هنا في أسفل، بدراية كافية، إلا أن العالم مليء بالتنوع، ولا يفتقر إلى المفاجآت المؤلمة. إلا أنه لا يمكن أن يكون حيواناً واحداً، ولا بد أن يكون هناك حشد كامل قد هبط فجأة في دائرة أملاكي، حشد كامل رهيب من الحشرات الصغيرة، التي لا بد لها دون شك أن تكون أكبر كثيراً في الحجم من غيرها من الحشرات الصغيرة ما دام صوتها مسموعاً إلى هذا الحد إلا أن مثل تلك الحشرات لا يمكنها أن تكون كبيرة الحجم للغاية، ذلك أن الصوت الذي يصدر عن عملها هو صوت غاية في الخفوت. ربما كانت إذن مجموعة من الحشرات مجهولة النوع، في أثناء تجوالها، وقد

اتفق لها أن مرت بالقرب مني، وقدر لها أن تزعجني، إلا أنها سرعان ما تكف عن ذلك، وعلى هذا ففي مقدوري حقاً أن أنتظر حتى ينتهي مرورها، ولست بحاجة لأن أكبد مشقة العمل الذي يتضح أنه لم يكن له ثمة ما يبرره في نهاية الأمر. لكن لو كانت تلك الحشرات غريبة حقاً، فلماذا لم أعثر على أي منها؟ لقد حفرت لتوي جملة من الفجوات، آملاً العثور على حشرة من بينها، إلا أنني لم أعثر على واحدة! ثم جاءني أنها لا بد أن تكون حشرات غاية في الضلالة، أكثر ضلالة من كل ما عهدته من الحشرات، وأنه لا يمكنها فقط أن تحدث ضوضاء شديدة وتفحصت لهذا التربة التي حفرتها، وألقيت بكتل الأتربة في الهواء، حتى أنها تفككت إلى ذرات دقيقة للغاية، لكن لم يكن بينها أثر لصابني الضوضاء هؤلاء. وبيطء أدركت أنني بقيامي بحفر مثل تلك الحفر العشوائية الصغيرة، فإنني لن أنتهي إلى شيء، وأنني سأكون فقط قد شوهت بهذا العمل حوائط جحري، خادشاً بتعجل هنا وهنا دون أن أترك لنفسي فسحة من الوقت حتى أردد ثانية تلك الفجوات، وكانت قد تكومت للتو في أماكن عديدة أكوام من الأتربة سدت طريقي، وحجبت عني الرؤية، وكان ذلك إزعاجاً آخر، فلم يعد يمكنني الآن أن أتجول في أنحاء مسكني، ولا أن أمعن النظر في أنحائه، ولا أن أستريح، وغالباً ما كنت أتكوم مستغرقاً في النوم أثناء عملي في حفرة أو أخرى، ومخليبي قابض على التربة فوق رأسي، وكأنني أحاول، وأنا في غيبوبة، أن أمزق كائناً ما. ولقد عزمت الآن على أن أغير أساليب عملي، فسوف أحفر حفرة واسعة متجهة بدقة في اتجاه الصوت، ولن أتوقف عن الحفر حتى أضع يدي على السبب الحقيقي، بعيداً عن كل الافتراضات، ومن ثم

أدمره، لو كان ذلك في إمكاني، فإن لم يكن، فسوف أعرف الحقيقة على الأقل، وسوف تجلب لي تلك الحقيقة الراحة، أو تسبب لي اليأس، لكنه سواء في هذا أو ذاك، ستكون فوق الشك أو التساؤل.

لقد منحني هذا القرار قوة! إن كل ما فعلته حتى الآن يبدو لي متسرّعاً للغاية! إنني في غمرة تأثيري لعودتي إلى الجحر، ولم أكن قد تخلصت بعد من اهتمامات العالم العلوي، ولا كنت قد تشربت سلام الجحر، ولأنني كنت حساساً غاية الحساسية لأنني كنت قد تركته طوال تلك الفترة كلها، فقد كنت غارقاً في اضطراب عقلي شامل بسبب ذلك الصوت غير المألوف. وماذا كان ذلك الصوت؟ مجرد صفير خافت مسموع فقط لفترات طويلة، مجرد شيء لا أهمية له. ولست أقول إن بإمكان المرء أن يعتاده في سهولة؛ لأن أحداً لم يتمكن من أن يعتاده. لكن في إمكان المرء دون أن يملك إزاءه شيئاً بالفعل للتو واللحظة أن يلاحظه لفترة، وأن يسمع كل ساعتين، ويمكنه أن يسجل نتائج ملاحظاته في أناة، دون أن يضغط أذنه إلى الحائط كما فعلت، أو يحفر كتلة من الأتربة كلما سمع أدنى صدى، لا أملاً في أن يتوصل إلى شيء بالفعل، ولكن فقط لمجرد أن يفعل أي شيء يهدئ قلق المرء الداخلي. سوف يتغير هذا كله الآن كما أرجو! ثم بعينين مغلقتين ملتفتتين بالغضب، وجدّنتني أوكد لنفسي أنني لست أرجو شيئاً من هذا القبيل، ذلك أنني كنت أرتعش هائجاً ما زلت، كما كنت منذ ساعات. فإذا لم يتغلب علي العقل، فلعلني أن أفعل شيئاً آخر أجدي من مواصلة الحفر بعناد وتحد، فقط لمجرد الحفر، في مكان أو آخر، سواء أسمعت شيئاً هنالك أم لم أسمع، مثلي في ذلك مثل تلك الحشرة الضئيلة

نفسها، التي تحفر دونما سبب على الإطلاق، أو لأنها ببساطة تأكل التربة. ولقد أَرْضَتَنِي خَطَّتِي الجديدة البارعة، لجِدَّتَهَا وبراعتها، وهدأَنِي. ليس في تلك الخطة ثمة ما أَعْتَرَضَ عليه، أو أَنَّنِي على الأقل لست أرى ما يمكنني أن أَعْتَرَضَ عليه، فهي قادرة- بقدر ما يمكنني أن أَتَوَقَّع- على أن تحقق هدفي، إلا أَنَّنِي لأَخْشَى المخاوف التي قد يُسَبِّبُهَا نجاح تلك الخطة. ولست أَعْتَقِدُ حَتَّى فِي النِّهَايَةِ الفاجعة. حقًّا، إنه يتضح لي أَنَّنِي كنت قد فكرت منذ بداية وضوح الضوضاء في مثل تلك الفجوة المثالية، ولكنني لم أبدأ في تنفيذها حتى الآن؛ لأنني فقط لم أكن مقتنعا بجِدْوَاهَا، ولسوف أبدأ بالطبع، رغم ذلك في تنفيذ تلك الحفرة، فليس أمامي سبيل آخر، إلا أَنَّنِي لن أبدأ من فوري، وإنما سأؤجل ذلك لفترة قصيرة أخرى، ولو عاد عقلي إلى صوابه مرة أخرى، ولا بد له أن يعود تمامًا إلى الصواب، فلن أُنْذِفِعَ اندفاعاً أعمى إلى عملي. وسوف أصلح أولاً على أية حال، ذلك التدمير الذي أحدثته بالبحر، بحفري الوحشي، وسوف يستغرقني ذلك وقتاً طويلاً، إلا أنه ضروري. ولو قدر للحفرة الجديدة أن تبلغ هدفها فقد تكون طويلة، أما إذا لم تنته إلى شيء أبداً، فسوف لا تكون لها نهاية، وعلى أية حال، فذلك العمل يعني غيبة طويلة عن البحر، إلا أن تلك الغيبة لن تكون مؤلمة بحال من الأحوال نفس إيلام الغيبة في العالم العلوي، لأن بإمكانني أن أقطع عملي عندما أحب، وأقوم بزيارة لمسكني، وحتى إذا لم أقم بتلك الزيارة، فإن جو الصومعة سيكون مألوفاً لي، وسيحيطني في أثناء عملي، لكن ذلك سيكون معناه فوق كل شيء أن أترك البحر، وأن أعرض حياتي لمصير تحف به الأخطار، ولهذا فإنني أريد أن أترك البحر خلفي في حالة طيبة،

حتى لا يقال إنني أنا الذي أناضل من أجل سلامته، قد دمرت بنفسى سلامته بعدم إعادة كل شيء إلى سابق عهده فوراً. ولقد شرعت لهذا في جرف الأتربة ثانية لرדם الفجوات التي كان قد استخرج منها، وهذا نوع من العمل مألوف لى تماماً، حتى لقد قمت به مراراً لا حصر لها دون أن أعتبره عملاً فى الحقيقة، ودون أن أقوى على مقاومته عندما كنت أبدوّه فى كل مرة، وخاصة تبطيط التربة وتسويتها النهائية، وليس هذا تفاخراً فارغاً، ولكنه الحقيقة المجردة. إلا أن كل شيء بدأ صعباً هذه المرة، وإننى لفى غاية الحيرة، حتى أننى أضغط أذنى بين الحين والآخر أثناء قيامى بالعمل وأتسمع، وبلا شعور أترك الأتربة التى كنت قد رفعتها لتوى تناسب ثانية إلى الممر. أما التشطيب الأخير الذى يحتاج عناية فائقة، فلم أكن أقوى عليه مطلقاً. وتبقت نتوءات بشعة، وشروخ مزعجة، هذا إذا تجاهلنا الحديث عن حقيقة أن الطفو القديم لا يمكن ترميمه ببساطة مرة أخرى، إذا رمم الحائط على هذا النحو. ولقد حاولت أن أعزى نفسى بفكرة أن عملى الحالى ما هو إلا عمل مؤقت، وأننى سوف أرمم كل شيء كما ينبغى عندما أعود بعد أن يحل السلام، ولن يكون العمل الذى ينتظرنى حينئذ سوى مجرد لهو. نعم، إن العمل هو مجرد لهو فى الحكايات الخرافية، وراحتى تدخل فى نطاقات الحكايات الخرافية هى أيضاً، ولقد كان من الأفضل لو تم العمل الآن فوراً على أكمل وجه، وإنه لِمِمَّا يعد أكثر تعقلاً على وجه العموم أن تقطع العمل وتواصل التجول عبر الممرات حتى تكتشف مصادر أخرى جديدة تنبعث منها الأصوات، وهو أمر سهل للغاية، فليس على المرء سوى أن يتوقف عند أى بقعة يختارها، ومن ثم يتسمع، ولم يكن هذا

هو آخر اكتشافاتي العقيمة. فأحيانا ما كنت أتخيل أن الضوضاء قد توقفت، ذلك أنها كانت تتوقف لفترات طويلة، وكان يصعب أحيانا سماع ذلك الصغير الخافت، وحينئذ كان دم المرء كله يتدفق في صخب نحو أذنيه، ثم تنقضي فترات من فترات الصمت الواحدة بعد الأخرى، ويظن المرء لبرهة أن الصغير قد توقف إلى الأبد. حينئذ لا أوصل التسمع أكثر من ذلك، وإنما أقفز، وتتغير صورة الحياة كلها، ويبدو كما لو أن الينابيع التي كان يفيض منها سكون الجحر قد انفضت أختامها. حينئذ أكف عن دراسة اكتشافي فوراً، وأتمنى أن أعثر على أي شخص يمكنني أن أعهد إليه بكل ثقتي. ولهذا فإنني أندفع نحو الصومعة، وأتذكر، لأنني، ولأن كل شيء قد تفتح الآن على حياة جديدة، أنني لم أتناول شيئاً من الطعام منذ وقت طويل، فأختطف شيئاً أو آخر يكون مدفوناً تحت الانقراض وسط مخزن مئوني، وفي سرعة أشرع في التهامه، بينما أهرع ثانية إلى مكان اكتشافي الذي لا يكاد يصدق عقل، إنني أريد حينئذ فقط أن أؤكد لنفسني صمته، عرْصاً، وبلا اكتراث، أثناء تناول طعامي، ولقد تسمعت، وكشف لي أشد درجات التسمع استهتاراً على الفور، أنني كنت قد خدعت بصورة فاضحة. فبعيداً هناك كان الصوت لا يزال منبعثاً بلا توقف. وبصقت طعامي، ووددت لو أظأه بقدمي، ومن ثم أعود إلى عملي دون أن أقرر بأي عمل مما ينتظرني من الأعمال أبداً، كنت أريد أن أعمل في أي مكان يبدو محتاجاً إلى عملي، وكان هناك كثير من الأماكن على هذه الصورة، وشرعت تلقائياً في استئناف عمل أو آخر، كما لو كان (الملاحظ) قد وصل لتوه، وكان لا بد لي من افتعال الانهماك في العمل في وجوده. لكنني ما كدت أبداً في هذا، حتى

تهياً لي أنني ربما تمكنت من التوصل إلى اكتشاف آخر. فقد بدا الصوت كما لو كان أصبح أشد ارتفاعاً طبعاً- وهنا، يتجلى ذلك دوماً في شكل طبقات صوتية غاية في المروعة- لكنه يكون دائماً في الوقت نفسه على درجة من الارتفاع تتيح فقط للأذن أن تميزه في وضوح، ويبدو الارتفاع في الصوت كما لو كان اقتراباً، ويبقى هذا الاقتراب أشد وضوحاً عن سماعتك لمجرد ارتفاعه، حتى أنك لتتمكن بالفعل من رؤية الخطوة التي تقربه منك، وتقفز مبتعداً عن الحائط إلى الخلف، وتحاول أن تتنبأ في الحال بكل العواقب المحتملة التي قد يسفر عنها ذلك الاكتشاف. وتحسس كما لو كنت حقاً لم تجهز الجحر للدفاع ضد الهجمات، رغم أنك كنت قد انتويت أن تفعل ذلك، لكنك ترى رغم كل خبراتك في الحياة خطر الهجوم، وحاجتك تبعاً لذلك إلى تنظيم المكان للدفاع، بعيدة كل البعد- أو أنك لا تراها بعيدة بالأحرى، فكيف يتسنى لها أن تبدو كذلك؟- لكن على خلاف تلك الدرجة من الأهمية، التي تحتم وضعها في مكانها، حتى يمكن للمرء أن يحيا في سلام، وهكذا فإن مثل تلك الاعتبارات لم تكن قد أوليت العناية الأولى في كل ما يتصل ببناء الجحر. وعديد من الأشياء في هذا الصدد، ربما كان إنجازها قد تم دون أن يتحد بالتصميم الكلي، أشياء كانت قد أهملت كلها بطريقة غير مفهومة. ولقد حالفني دفعة كبيرة من الحظ طوال تلك السنوات. أفسدني الحظ، ولقد كانت لديّ الهموم، إلا أنها هموم لم تكن لتتمخض عن شيء، إذا كان ثمة حظ يؤازرك. وإن ما يجب فعله الآن، هو أن يفحص الجحر، وأن تدرس كل الوسائل الممكنة لتحسينه. أن تستنتج خطة للدفاع، وخطة مطابقة للبناء، ثم الشروع بعد

ذلك في العمل فوراً بهمة الشباب. هذا هو العمل الذي يلزم حقاً، والذي لا أجدني بحاجة إلى القول بأنه متأخر جداً عن وقته الآن. لكن ما يلزمني حقاً، ليس حفر مجس هائل، لن يسفر بالفعل سوى عن توريطي من قمة رأسي إلى أخمص قدمي في البحث عن الخطر، بسبب الخوف الأحمق الذي سوف ينبعث بسرعة خارقة من تلقاء نفسه. وفجأة استغلقت علي خطتي السابقة. لم أعد أجد أدنى أثر للعقل فيما كان يبدو معقولاً للغاية. ومرة أخرى تركت العمل جانباً، وحتى تسمعي كفتت عنه هو أيضاً، لم تعد لدي أدنى رغبة في أن أكتشف مزيداً من الدلائل على أن الصوت يتزايد، فلقد أصبح لدي ما يكفيني من الاكتشافات، لقد تركت كل شيء جانباً، وسأكون راضياً غاية الرضا لو استطعت فقط أن أتغلب على الصراع الذي يحدث في داخلي. وتركت الممرات التي لم أكن قد رأيتها منذ عودتي، والتي كانت لا تزال كما هي، لم تمسسها بعد مخاليبي المخربة، تلك الممرات التي ارتفع صدى صمتها ليلاقيني، ويغرقني. إلا أنني لم أستسلم لها، وإنما أسرع، لم أكن أدري ما الذي أريده، ربما مجرد أن أنفق الوقت. ولقد أصابني الشرود حتى وجدتني عند المتاهة، وراودتني فكرة التسمع تحت السدة الترابية. وقد استولت على اهتمامي في تلك اللحظة مثل تلك الأشياء البعيدة الموعلة في البعد، وتسمعت السكون العميق، كم هو ممتع هنا في الخارج! لا أحد يشغله أمر جحري. لكل امرئ مشاغله الخاصة التي لا علاقة لها بي، فكيف تمكنت من أن أسمح للأمور أن تبلغ هذا الحد بقدرتي على الاستنتاج؟ هنا تحت السدة الترابية، ربما كان المكان الوحيد في جحري كله، الذي يمكنني أن أسمع فيه لساعات، دون أن أسمع أي شيء.

انقلاب تام لكل الأمور في الجحر، فما كان ذات مرة يعد أخطر الأماكن في الجحر قد أصبح المكان الآمن الوحيد، بينما غرقت الصومعة في الضوضاء، وأصبحت هدفا لكل أخطار العالم. لقد انهار كل شيء فحتي هنا لا يوجد أمان في الحقيقة، لم يتغير أي شيء هنا، لا الصمت ولا الضجيج. إن الخطر ليكمن في المتاهة، كما كان يكمن من قبل فوق السدة الترابية، إلا أنني قد فقدت حساسيتي تجاهه، وإن عقلي ليشغله الصغير المنبعث من الجدران، فهل انشغل عقلي به حقاً؟ إنه يزداد اقتراباً، إلا أنني أتلوى خلال المتاهة، وأتخذ لنفسي هنا موقداً تحت السدة الترابية، ويبدو عليّ بالفعل كما لو كنت أترك مسكني بالفعل متجهاً نحو مصدر الصغير، راضياً لو أنني فقط استطعت أن أجد هنا شيئاً من السلام. أما بالنسبة لمصدر الصغير؟ فهل توصلت بعد هذا كله إلى جديد، فيما يتعلق بالسبب الذي يكمن خلف تلك الأصوات؟ إن تلك الأصوات بلا شك قد نتجت عن القنوات التي حفرتها تلك الحشرات الضئيلة؟ أليس هذا هو رأيي الذي ارتأيته؟ يبدو لي أنني لم أراجع عنه قيد أنملة. ولو لم تكن تلك الضوضاء تصدر عن تلك القنوات مباشرة، فإنها لا بد أن تصدر عنها، عن طريق غير مباشر. وحتى لو لم تكن لها بها أية علاقة، فليس المرء حراً في أن يفترض افتراضات مسبقة، بل عليه أن ينتظر حتى يعثر على السبب، أو حتى تكشف المشكلة عن وجهها، وفي إمكان المرء أن يتلهى بالافتراضات طبعاً، حتى ولو بلغ هذا الحد... فمن الممكن مثلاً أن تكون هناك مياه تتدفق على بعد ما، وأن يكون هذا الصوت الذي يتبدى لي على أنه أزيز أو صفير، هو خريف الماء في الواقع. لكن المياه الجوفية - بصرف النظر عن حقيقة أنني لا أملك

خبرة في هذا المجال - التي كنت قد صادفتها في البداية، كنت قد انتشلتها بعيداً من فوري، ولا يمكن لتلك المياه أن تتسرب ثانية في مثل تلك التربة الرملية وتعود إلى سابق مكانها، وبصرف النظر عن تلك الحقيقة، فإن الضوضاء هي صفيّر لا محل لإنكاره، ولا يمكنني ببساطة أن أتقبله على أنه خريّر. إلا أن بالي لن يرتاح، ما لم أجد ما يهدئ كل تلك الوسواس التي تتبابني. ولقد وصلت بالفعل إلى الاعتقاد - ولا يجديني شيئاً أن أنكر ذلك لنفسى - بأن الصفيّر إنما يصدر عن حيوان ما! لم يكن حشداً كبيراً من الحيوانات الصغيرة، لكن حيواناً واحداً فقط هائل الحجم. كان هناك عديد من الدلائل التي تناقض ذلك، فقد كان من الممكن سماع الضوضاء في كل مكان، وبنفس الدرجة من الارتفاع دائماً، وعلى وتيرة واحدة فوق ذلك كله، في أثناء الليل والنهار، لم يكن أمام المرء لهذا في البدء سوى أن يتجه إلى فرض أن هناك حشداً كبيراً من الحيوانات الضئيلة، لكن لما كان علي أن أعثر على بعضهم أثناء قيامي بالحفر، ولم أجد شيئاً، لم يتبق أمامي سوى أن أفترض وجود حيوان هائل الحجم، خاصة وأن الدلائل التي كانت تبدو وكأنها تتناقض مع هذا الفرض، كانت مجرد أشياء تجعل من ذلك الحيوان - وليس وجود مثل ذلك الحيوان أمراً مستحيلاً كما قد يبدو - كائناً خطراً إلى أبعد مما في إمكان المرء أن يتصور حداً لخطورته! هل يجب علي لهذا السبب وحده أن أتخلى عن ذلك الافتراض؟ سوف أكف عن ذلك الخداع الذاتي، ذلك أنني قد راودتني لفترة طويلة فكرة إمكان سماع صوت ذلك الحيوان على مثل ذلك البعد، ما دام يعمل بكل تلك الوحشية، فھر يحفر بمثل تلك السرعة التي ينطلق بها حيوان فوق طريق ممهد، وإن

الأرض لا تزال لتتهتز تحت تأثير حفرة، حتى عندما كان يتوقف! يتحد ذلك
الترجيع للصدى وضوضاء الحفر نفسها في صوت واحد على مثل ذلك
البعد الشديد. وإنني عندما أسمع مجرد أصداء تلك الأصوات المتلاشية،
فإنني أسمعها دائماً بنفس قوتها الأصلية. وتبعاً لهذا، فإن الحيوان أيضاً لا
يشق طريقه في اتجاهي، وذلك بملاحظة عدم تغير الصوت، بل يبدو كما
لو كانت لديه خطة ما لا يمكنني تفسير هدفها، وإنني لأفترض فقط أن
الحيوان - ولست أزعم مع ذلك، أنه يعلم بوجودي - إنما يعمل على
تطويقي، فلعله أن يكون قد قام بحفر عدة دوائر حول جحري، منذ أن بدأت
في الإحساس بوجوده حتى الآن. إن طبيعة الضوضاء، والأزيز أو الخرير،
تمدني بزيادة وافر للتفكير. فعندما أحفر، وأجرف التربة على طريقي
الخاصة، فإن الصوت المنبعث يكون مختلفاً تمام الاختلاف. ويمكنني أن
أفسر الصفيير فقط بهذه الطريقة: أن وسائل الحيوان الوحيدة للحفر ليست
مخالبه، التي لعله أن يكون قد استخدمها فقط كوسيلة ثانوية، لكن خرطومه
وأنفه، لا بد أنهما كانا في غاية الحدة بالطبع، بالإضافة إلى قوتهما الهائلة
في مثل تلك الحالة. ولا بد أن الحيوان كان يدفع خرطومه ذاك داخل التربة
دفعاً شديدة فيمزق كتلة هائلة، ولا يتسنى لي أن أسمع شيئاً حينما يفعل
ذلك، فتكون تلك هي الوقفة التي ينقطع فيها صدور الصوت، إلا أنه
يستنشق الهواء بعد ذلك استعداداً لدفعة أخرى، ولا بد أن يكون شهيق ذلك
الحيوان صوتاً تهتز له التربة، ولا يكون ذلك لقوة الحيوان وحدها، وإنما
أيضاً لسرعته ولشهوته العنيفة للعمل. وإن تلك الضوضاء لتصل بعدئذ إلى
سمعي كصفيير خافت. إلا أن طاقة الحيوان على العمل بلا توقف تظل مع

ذلك غير مفهومة على الإطلاق. وربما كانت تلك الوقفات القصيرة تتيح له أيضًا فرص انتزاع لحظات من الراحة، لكن يبدو أنه لم يكن يسمح لنفسه أبدًا حتى الآن، بفترة راحة طويلة بالفعل فهو يواصل الحفر ليلاً ونهارًا دائمًا بنفس الحيوية والنشاط، ولا يكل من التفكير المتصل في هدفه الذي يرى ضرورة إنجازَه بأقصى تركيز، والذي يقترب في يسر من الاكتمال. وإنني ليصعب على الآن أن أتكهّن بطبيعة ذلك العدو. إلا أن ما يحدث الآن بصرف النظر عن صفات ذلك الحيوان الغريبة، كان قد ملأني رعبًا طوال الوقت. كان شيئًا يخالف كل ما كنت قد أعددت نفسي دائمًا لمواجهته. كانت هناك حقيقة أن كائنًا ما لا بد سيصل! فكيف أمكن لكل تلك الأشياء أن تفيض بكل ذلك الهدوء، وأن تسبب لي كل تلك السعادة، طوال ذلك الوقت، فقط لكي تتسلمني تلك المخاوف الآن؟ وقياسًا على ذلك، فما هي بقية كل تلك الأخطار الوضيعة التي يخبئها لي الغيب، والتي أنفقت عمري كله مهددا بها دون أن أدري؟ كنت قد تمنيت كمالك للجحر أن أكون في وضع أقوى من أي عدو قد يتصادف ظهوره. لكنني أعد أعزل تمامًا الآن بسبب ملكيتي لذلك المبنى المهدد، في مواجهة أي هجوم جاد! إن سعادتي بامتلاكه قد أتلفتني، ولقد جعلني ضعف الجحر ضعيفًا بدوري، وإن إصابته لتؤلمني كما لو كنت أنا نفسي من أصبت، وإنه على وجه الدقة هو ما كان يجب على أن أتوقعه، بدلا من التفكير فقط في الدفاع عن نفسي - وما أشد ما تهاونت، وعشت حتى في تحقيق ذلك - كان يجب على أن أفكر في الدفاع عن الجحر. وكان لا بد من إعداد العدة قبل كل شيء لفصل أجزاء من الجحر، لفصل كل ما يمكن فصله منه عن الأجزاء المعرضة

للخطر في وقت الهجوم، وكان لا بد لإتمام ذلك من إحداث تصدعات في التربة، بحيث تنهار في نفس لحظة الخطر، ويجب أن تكون تلك التصدعات سميكة للغاية بالإضافة إلى ذلك، ولا بد لها أن تكون حازما قويا حتى لا يتسنى للمهاجم أن يدرك أن الجحر الحقيقي إنما يبدأ فقط في الجانب الآخر من الحاجز. ولا بد من أن يتم تدبير تلك الانهيارات بعد ذلك بحيث لا تخفي الجحر فقط، بل وتدفن المهاجم أيضا. إلا أنني لم أنهض بأقل محاولة لتنفيذ مثل تلك الخطة، ولم يتم تنفيذ شيء مطلقاً في هذا الشأن. لقد كنت منعدم التفكير كالأطفال، وكنت قد أنفقت سنوات شبابي في ألعاب صبيانية، ولم أفعل أي شيء سوى السخرية حتى بفكرة الخطر، ولقد تهربت بالفعل من تدبير الخطر الفعلي، وعلى هذا فلم أكن أستحق أي نذير.

ولم يحدث من قبل بالطبع ما يشبه الوضع الراهن، رغم أن ثمة حادثة لا تكاد تختلف عما يحدث الآن، كانت قد وقعت عندما كان الجحر لا يزال في بدايته، ولقد كان الاختلاف الأساسي بين ما حدث في ذلك الحين، وما هو واقع الآن هو ببساطة أن الجحر كان قد بُدئ في تنفيذه حينئذ فقط! ولم أكن بالفعل في تلك الأيام سوى مجرد صبي متواضع في العام الأول من بدء عمله، وكانت المتاهة قد تشكلت فقط في خطوطها السريعة الخارجية، وكنت قد فرغت لتوي من حفر إحدى الحجرات الصغيرة، إلا أن النسب والتنفيذ كانا ملفقين على نحو مؤسف، وكان كل شيء باختصار تجريبيا لأقصى حد، حتى أن الجحر لم يكن يعد حينذاك سوى مجرد تمهيد. مجرد شيء، لو أن المرء هجره يوما، ففي إمكانه أن يتركه غير آسف! وذات يوم

بينما كنت مستلقيا فوق كومة من الأتربة محاولا أن أستريح من العمل، ولقد استرحت من أعمالي كثيرا جدًا طوال حياتي، سمعت فجأة ضوضاء على البعد، ولما كنت صغيرا في ذلك الوقت، فلم ينتابني الخوف، بقدر ما تملكني الفضول، فتركت عملي جانبا، واستغرقت في التسمع ورحت أسمع، وأتسمع دون أن تستولي على الرغبة في الاندفاع إلى أعلى نحو السدة الترابية؛ لأتمدد هناك حتى لا أتمكن من سماع شيء! المهم أنني تسمعت على أية حال، وتبينت أن الضوضاء كانت تنبعث من بعض أعمال الحفر الشبيهة بأعمال الحفر التي أقوم بها، إلا أنها أضعف إلى حد ما بالطبع، لكن.. ما هو حجم أعمال الحفر، تلك التي يجري تنفيذها على البعد؟ لا أحد يدري! لقد كنت مهتما غاية الاهتمام، إلا أنني رغم ذلك، كنت هادئا وباردا، وفكرت قائلا في نفسي: لعلي أن أكون الآن في جحر شخص آخر، وربما كان المالك يشق الآن طريقه متجها نحو، فلو انضح لي أن ما افترضته كان صحيحا، فسوف أرحل. ذلك أنه لم تكن لدي أية نوازع للعدوان أو إراقة الدماء، وسوف أبدأ البناء في أي مكان آخر. لكنني كنت قبل كل شيء صغيرا، وكنت لا أزال بلا جحر. وعلى هذا، ففي إمكانني أن أبقى باردا تماما، وبالإضافة إلى ذلك، لم تكن أشد حالات الضوضاء لتقدم لي أي عون حقيقي على الإدراك، بل لقد كانت تستعصي تماما على التفسير. فلو كان من يحفر هناك قد اتخذ طريقه نحو، لأنه كان قد سمعني وأنا أقوم بالحفر، ثم لو أنه كان قد غير اتجاهه كما خيل إلي الآن بالفعل، لما أمكن للمرء أن يقطع بأنه إنما فعل ذلك لأن توقعي للراحة قد ضيع عليه الوجهة المحددة التي كان يحفر متجها إليها، أو لأنه- وهذا ما يبدو معقولا

أكثر - كان هو نفسه قد غير خطته. إلا أنني ربما كنت قد خدعت في ذلك كله، ولعله لم يكن يحفر بالفعل في اتجاهي. وكان الصوت بعد كل لحظه يزداد ارتفاعا لبرهة، كما لو كان يقترب، ولما كنت صغيرا حينذاك، فلعلني ما كنت لأنزعج حتى لو وجدت الحفار يخرج من أمامي فجأة من باطن الأرض، إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث! وعند حد ما، بدأ صوت الحفر يضعف، وراح يخفت، ويخفت كما لو كان الحفار قد انحرف مبتعداً شيئاً فشيئاً عن طريقه الأول، ثم.. فجأة توقف نهائياً عن الحفر، كما لو كان قد قرر أخيراً أن يتخذ الوجهة الأخرى المقابلة، وأن يمضي في خط مستقيم مبتعداً عن مكاني. وظللت مستمرا في التسمع إليه في سكون لوقت طويل قبل أن أعود ثانية إلى عملي! ولقد كان ذلك النذير حينئذ إنذاراً صحيحاً بدرجة كافية، لكنني سرعان ما نسيت. ونادراً ما كان له تأثيراً على خطط بنائي. وبين ذلك اليوم البعيد ويومنا هذا تكمن سنوات نضجي، لكن ألا يبدو كأن لم يكن ثمة فترة من الزمن تفصلهما على الإطلاق؟ إنني ما زلت ألجأ إلى فترات طويلة من الراحة من أعمالي، وأتسمع إلى الحائط، كما أن الحفار في هذه المرة أيضاً قد غير خطته من جديد، ولقد استدار إلى الخلف، عائداً من رحلته، يظن أنه قد أعطاني فسحة من الوقت طوال تلك الفترة حتى أستعد لاستقباله. إلا أن كل شيء في جانبي كان سيئاً، مضطرب الإعداد عما كان عليه حينذاك. فالجحر الهائل يقف عجوزاً، كما خانتني كل الإمكانيات التي أتمتع بها عندما حانت اللحظة الحاسمة. لكنني ما دمت عجوزاً إلى هذا الحد، فإنه يبدو لي أنني سوف أبقى دائماً سعيداً بأنني عجوز، عجوز جداً حتى أنني لن أتمكن من أن أنهض ثانية من مكان راحتي

تحت السدة الترابية. ذلك أنني لكي أكون شريفاً، لا يمكنني أن أحتمل بقائي هنا، فنهضت، واندفعت كما لو كنت قد امتلأت هنالك بهوم جديدة بدلاً من السلام، هابطاً إلى داخل المنزل مرة أخرى. فماذا كانت حالة الأمور في تلك المرة الأخيرة التي وجدتني فيها هنا؟ هل أصبح الصغير خائفاً؟ لا. لقد غدا أشد ارتفاعاً! وتسمعت من عشرة أماكن اخترتها جزافاً، وتيقنت بوضوح من خيبة ألمي! إن الصغير كما كان من قبل، ولا شيء قد تغير! هناك في أعلى أسفل السدة الترابية، لا يوجد ثمة اضطراب يحس به المرء، بل إن المرء ليكون في سلام هنالك، مرتفعاً فوق الزمن. لكن كل لحظة هنا، تبعث الاضطراب والردة في المتسمع، ومرة أخرى عبرت الممر الطويل المؤدي إلى الصومعة، كان كل ما يحيطني مثقلاً بالاضطراب، وبدأ كما لو كانت كل الأشياء تتفحصني، ومن ثم تشيح بأنظارها بعيداً حتى لا تؤلمني، إلا أنها لا تتحول عن محاولة قراءة الحل في تعبيرات وجهي في اللحظة التالية! هزرت رأسي، فلم أكن قد عثرت بعد على أي حل، ولا كنت حتى قد اتجهت نحو الصومعة متعقباً أية خطة. ومررت بالبقعة التي كنت قد اعتزمت أن أحفر فيها المجس، وتطلعت إليها مرة أخرى، لقد كانت مكاناً رائعاً يمكنني أن أبدأ العمل فيه. وكان امتداد المجس سيتخذ الاتجاه الذي كان يمر بأغلب ثقب التهوية الدقيقة التي كانت ستسهل مهمتي بصورة رائعة، ولعلني ما كنت لأواصل الحفر حتى أصل إلى مصدر الضوضاء. ولعلني لو تسمعت خلال ثقب التهوية لكان ذلك كافياً. إلا أن أي احتمال لم يكن كافياً تماماً لكي يبعث في النشاط حتى أقوم بالحفر. وقد تقول إن ذلك المجس كان سيأتيني باليقين؟ إلا أنني كنت قد بلغت حداً لم أعد

راغبا عنده في الحصول على أي يقين! وفي الصومعة اخترت قطعة طيبة من اللحم الأحمر، وزحفت بها خلال أحد أكوام الأتربة، فهناك سوف يمكنني على الأقل أن أحصل على الهدوء... فإلى أي حد كان من الممكن أن يتوافر هنالك مثل ذلك الهدوء؟ ومضغت اللحم، وأنا أفكر في الحيوان الغريب الذي يتخذ طريقه الخاص على البعد، ثم فكرت مرة أخرى في أن أتمتع بمخزن أطعمتي، بأقصى ما يمكنني أن أفعل، طالما أن الفرصة لا تزال في يدي. وربما كان هذا الحل الأخير هو على ما يبدو، الخطة الوحيدة التي كنت قد أهملتها، والتي كان يسعني تنفيذها. أما فيما عدا ذلك، فلقد حاولت أن أكتشف سر خطط الحيوان! هل هو يتجول أم يعمل في جحره الخاص؟ فلو أنه كان يتجول، فربما أمكن حينئذ التوصل معه إلى نوع من التفاهم، ولو أمكنه أن يندفع حقاً إلى الجحر، فسوف أعطيه بعضاً من محتويات مخزني، ولسوف يمضي راجعاً حينئذ من حيث أتى! حكاية لطيفة! يمكنني بالطبع أن أحلم بشتى أنواع الحلول، وأنا مستلق فوق كومة أتربتي، أحلم حتى بالتفاهم مع الحيوان، على الرغم من أنني أعلم تمام العلم أن شيئاً من هذا لا يمكن أن يحدث، وأننا في اللحظة التي سنواجه فيها أحداً الآخر - بل أكثر من هذا - في اللحظة التي سيعتقد عندها كل منا بمجرد وجود الآخر، سنكشف كلانا عن أنيابنا ومخالبنا بصورة عمياء، ولن يتأخر أحداً لحظة واحدة عن الآخر، ولن يتقدم عليه لحظة واحدة، ولسوف يتضور كل منا بنوع جديد ومختلف من الجوع، حتى لو كنا كلانا قد التهمنا من فورنا كفايتنا من الطعام حتى أوشكنا على الانفجار من شدة الامتلاء. ذلك أنه - للحقيقة - من هو ذلك الحيوان الذي لن يغير خط سيره،

وخططه التي اختطها جميعا للمستقبل عند رؤيته للجحر، حتى ولو كان قد خرج حينذاك فقط بنية التجول؟ لكن ربما كان الحيوان يحفر في جحره الخاص، حينئذ لن يمكنني حتى أن أحلم بأي تفاهم، وحتى لو كان في وسع مثل ذلك الحيوان الغريب أن يتسامح مع جار على مقربة من جحره، فإنه لن يتغاضى عن جحري، إنه لن يتغاضى بحال من الأحوال عن جار يمكنه أن يسمعه في وضوح! إلا أن الحيوان يبدو الآن بالفعل على مسافة بعيدة جداً، فلو أنه انسحب مبتعداً قليلاً أيضاً، فربما اختفت الضوضاء، وربما أمكن للهدوء حينئذ أن يسود كل شيء، كما كان الحال في الأيام الخوالي. ولسوف يصبح ذلك كله درساً مؤلماً بعدئذ، لكنه مفيد، درس سوف يدفني فوراً إلى القيام بإجراء مختلف الإصلاحات في الجحر، فلو تحقق لي الأمان، ولم يعد يتهددني الخطر، فإنني ما زلت قادراً على ألوان العمل الشاق، وربما كان الحيوان قد تخلى عن فكرة توسيع جحره في اتجاهي، نظراً للإمكانيات الهائلة التي تتيحها له طاقته على العمل، ووجد لنفسه عوضاً عن ذلك في اتجاه آخر. إن هذا التعويض بالطبع لا يمكن أن يتم أيضاً بالمفاوضة، لكن فقط برغبة الحيوان نفسه، أو عن طريق نوع من الضغط أمارسه عليه من جانبي. وفي كلتا الحالتين، سوف يكون العامل الحاسم هو ما يمكن أن يعلمه الحيوان عني، وطبيعة تلك المعلومات. وكلما اشتد تفكيري في ذلك، كلما بدا لي مستحيلاً أن يكون الحيوان حتى قد أحس بوجودي! ومن الممكن، على الرغم من عدم إمكان تصور ذلك، أن يكون قد حصل على معلومات عني، عن طريق بعض القنوات الأخرى، إلا أنه بلا شك، لم يحس بوجودي، وطالما أنني لا أعلم عنه أي شيء،

فإنه ببساطة لا يمكنه أن يكون قد سمعني، لأنني كنت قد ظللت هادئاً غاية الهدوء طوال ذلك الوقت، فلا يمكن أن يكون ثمة ما يبعثني على الهدوء مثل عودتي إلى الجحر، وربما أمكنه أن يسمعني، فيما بعد، عندما حفرت المجسات، رغم أن طريقي في الحفر لا تحدث سوى أصداً خافتة للغاية. لكن لو أنه كان قد سمعني، فلا بد أنني كنت سألاحظ بعض الدلائل التي تدل على ذلك، ولا بد أن الحيوان كان سيوقف عمله بين الفينة والأخرى لكي يتسمع إليّ، إلا أن كل شيء ظل كما هو بلا أدنى تغيير.

فى مستعمرة العقاب

إنه جهاز رائع!

قالها الضابط للرحالة، وبنظرة إعجاب زائدة، شملت الجهاز الذي كان مألوفاً له تماماً. وبدأ الرحالة وكأنه كان قد قبل فقط بدافع من التأدب دعوة القومندان له؛ لكي يشهد تنفيذ حكم الإعدام في جندي حكم عليه بالموت لعصيانه وإهاتته لأحد الرؤساء. ولم تكن المستعمرة نفسها تعبر ذلك الإعدام اهتماماً كبيراً. فلم يكن موجوداً على الأقل في الوادي الرملي الصغير - الذي لم يكن سوى فجوة عميقة - كانت تحيطها من كل جوانبها صخور عارية شامخة سوى الضابط والرحالة، والرجل المحكوم عليه بالإعدام، وهو مخلوق أبله، واسع الفم، ذو شعر مشعث، ووجه زائف النظرات، والجندي الذي كان ممسكاً بالسلسلة الثقيلة، التي تضم القيود الصغيرة التي كانت تطبق على رسغي ساقبي السجين ومعصميه ورقبته، والتي كانت ترتبط بعضها البعض بحلقات مستديرة. بدت نظرة الرجل المحكوم عليه بالإعدام نظرة بعيدة الشبه - على أية حال - بنظرة الكلب المذعن، حتى ليتهيأ للمرء أن يظن أنه قد يتخلص من قيوده تلك، ليجري مطلق السراح نحو التلال المحيطة في أية لحظة، وأنه لم يكن ينتظر سوى إطلاق الصفيح إيداناً له بالانطلاق، عندما كان على عملية تنفيذ حكم الإعدام فيه أن تبدأ مجراها.

ولم يحفل الرحالة كثيراً بالجهاز، وتمشى ذهاباً وحيئة بلا مبالاة واضحة، بينما راح الضابط يجري الترتيبات الأخيرة، زاحفاً حيناً تحت

الجهاز الذي كان مدفونا في الأرض إلى عمق بعيد الغور، ومرتقيا حيناً آخر سلماً لكي يتفحص أجزائه العليا. ولعله كان من الأفضل لو تركت تلك الأعباء لكي يقوم بها عامل ميكانيكي، إلا أن الضابط قد قام بأدائها في حماس زائد، ربما لأنه كان معجباً بالجهاز غاية الإعجاب، أو لأنه لأسباب أخرى لم يكن أن يثق بأي شخص آخر، ليقوم بدلاً منه بتلك الترتيبات.

كل شيء جاهز الآن. هتف أخيراً بذلك، وهبط السلم. بدا مترهلاً بصورة غير عادية، متنفساً من خلال فمه المفتوح على آخره، وقد دس مندولين فاخرين من المناديل النسائية تحت ياقة رداءه.

لا شك أن مثل ملابسك هذه، تعد ثقيلة للغاية بالنسبة إلى المناطق الحارة! قالها الرحالة، بدلاً من أن يوجه بعض الأسئلة عن الجهاز، ووافقه الضابط قائلاً: بالطبع! بينما كان يغسل يديه الملوثتين بالزيت والشحم في دلو ممتلئ بالماء كان معداً في انتظاره: إلا أنها تذكرنا بالوطن، فنحن لا نحب أن ننسى الوطن، والآن فلتلق نظرة فقط على تلك الآلة. أضاف ذلك من فوره، بينما كان يحفف يديه بمنشفة، ويشير إلى الجهاز.

كل شيء يجب، إلى الآن، أن يثبت باليد، لكن الآلة سوف تعمل من هذه اللحظة فصاعداً، كلية من تلقاء نفسها. فأطرق الرحالة، وتبعه. وقال الضابط، متخذاً جانب الحذر، لتأمين نفسه ضد كل الظروف الطارئة: وإن الأمور لتسير على نحو خاطئ بالطبع، في بعض الأحيان، وآمل ألا يقع اليوم ثمة خطأ، إلا أن علينا أن نضع الاحتمالات، ولسوف تواصل الآلة عملها بصورة متواصلة لمدة اثنتي عشرة ساعة. ولو حدث أن اتخذ شيء ما طريقاً خاطئاً، فلن يكون ذلك سوى أمر بسيط، وسوف يمكن إصلاحه

على الفور!

وتساءل أخيراً قائلاً: ألا تريد مقعداً؟ ساحباً مقعداً من الخيزران من بين كومة من المقاعد الخيزرانية، مقدماً إياه إلى الرحالة، الذي لم يسعه أن يرفضه. كان جالساً الآن على حافة قبر، نظر في داخله نظرة خاطفة. لم يكن قبراً عميقاً، وكان التراب الناتج عن حفره مكوِّماً في هيئة سد، وكان الجهاز يربض في الجانب الآخر.

قال الضابط: لست أدري، ما إذا كان القومندان قد وصف لك هذا الجهاز؟ لوح الرحالة بيده في غموض، ولم يكن الضابط ينتظر شيئاً أكثر من ذلك، ما دام يمكنه الآن أن يشرح الجهاز نفسه! قال مستنداً إليه، وممسكاً بمقبض الذراع: هذا الجهاز اخترعه قومنداننا الأسبق، ولقدعاونته في أولى تجاربه، وساهمت في العمل حتى نهايته، إلا أن الفضل في اختراعه يرجع إليه وحده. ألم تسمع مطلقاً من قبل عن قومنداننا الأسبق؟ لا؟ حسناً، إننا لا نبالغ في القول لو قلنا لك إن هيئة مستعمرة الإعدام كلها هي نتاج جهده، ونحن الذين كنا أصدقاءه، نعلم حتى قبل أن يموت أن هيئة المستعمرة كانت كاملة غاية الكمال، حتى أن خلفه - ولو تفتق ذهنه عن آلاف المشاريع الجديدة - كان سيجد أنه من المستحيل تماماً تغيير أي شيء على الأقل لمدة سنوات طويلة قادمة، ولقد صدق تنبؤنا، وإنه لمَّا يؤسف له أنك لم تلتق من قبل بالقومندان القديم! لكن... قطع الضابط حديثه قائلاً: لقد شردت في الحديث، وها هو جهازه أمامك، وإنه ليتألف كما ترى من أجزاء ثلاثة. ولقد تطلبت بمرور الوقت كل من هذه الأجزاء الثلاثة اسماً من الأسماء المستعارة؛ ولقد سمى بـ المشط! تساءل الرحالة

قائلاً: المشط؟ لم يكن يستمع إليه بانتباه كاف، وكانت انعكاسات ضوء الشمس شديدة غاية الشدة، في الوادي الخالي من الظلال، ومن الصعب أن يجمع المرء شتات أفكاره. ولقد كان معجباً فوق هذا بالضابط، الذي كان رداؤه الثقيل فضفاضاً جداً، على الرغم من ضيقه، وهابطاً لثقله إلى أسفل، وثقل كل ما كان يحمله من الشرائط العسكرية، التي كانت كلها تتابع موضوع حديثه بغاية الحماس، والذي كان إلى جانب حديثه ذاك، لا يزال يضبط ربط مسمار هنا ومسمار هناك بمفتاح صمولة كان يحمله في يده! أما الجندي فقد كان يبدو عليه كما لو كان في نفس حالة الرحالة تماماً، كان قد لف قيود السجين حول كلا معصميه، واعتمد على بندقيته، تاركاً رأسه مدلاة دون أن يعير شيئاً أدنى اهتمام. ولم يندهش الرحالة لذلك، فقد كان الضابط يتحدث بالفرنسية، ولا شك أن الجندي لم يكن ليفقه لا هو ولا السجين حرفاً واحداً من تلك اللغة. إلا أنه كان واضحاً على الرغم من ذلك أن السجين لم يكن يبذل جهداً أقل من جهد الجندي في تتبعه لشرح الضابط. وبنوع من العناد النعسان كان يوجه نظراته إلى حيث كان الضابط يشير بإصبعه، وعندما كان ينقطع الحديث نتيجة لتساؤل الرحالة، كان ينظر هو أيضاً حواليه، كما كان يفعل الضابط تماماً. قال الضابط: نعم، المشط، كما أن مهمته كلها تتم على نحو مطابق لعمل المشط، على الرغم من أن حركته محدودة بمكان معين، ومدبرة بمهارة فنية فائقة، وسوف تفهم ذلك الآن، على أية حال. فهنا على الفراش يمدد الرجل المحكوم عليه. سوف أصف لك الجهاز أولاً قبل أن أعده للعمل، فلسوف يمكنك حينئذ أن تتبع سير الإجراءات بصورة أفضل. وعلاوة على ذلك، فإن حال أحد تروس

الرسام سيئة، فهي تصر صريراً متواصلًا أثناء الدوران، فلا يمكنك أن تسمع نفسك عندما تتحدث سوى بصعوبة بالغة، ويصعب الحصول على قطع الغيار هنا لسوء الحظ. حسنًا، ها هو الفراش كما قلت لك، تغطيه تمامًا طبقة من القطن الطبي، وستعرف فيما بعد لماذا! فوق ذلك القطن الطبي يوضع المحكوم عليه، وجهه إلى أسفل، عاريًا تمامًا بالطبع، وتوجد هنا سيور لربط الأيدي، وسيور هنا للساقين، وهنا للعنق، وبهذا يمكن ربطه بشدة. وهنا عند رأس الفراش حيث يضع الرجل رأسه، كما ذكرت من قبل، توجد تلك القطعة الصغيرة من الفلين، التي يمكن في سهولة ضبطها بحيث تندفع مباشرة في داخل فمه، والقصد من ذلك هو منعه من الصياح، ومن عض لسانه! ويجد الرجل نفسه مضطرا بالطبع إلى ابتلاع تلك الفلينة، وإلا انكسرت رقبته تحت ضغط السير الجلدي. وتساءل الرحالة، وهو يميل إلى الأمام: هل هذا قطن طبي؟ فقال الضابط بابتسامة: نعم، بلا شك، يمكنك أن تتفحصه بنفسك! وجذب يد الرحالة، وسحبها إلى أعلى نحو الفراش. إنه قطن طبي، قد أعد خصيصا لهذا الغرض، وهو لهذا يبدو مختلفا على هذا النحو، وسأذكر لك حالا، لماذا وضع!

وأحس الرحالة لحظتها باهتمام مفاجئ بالجهاز، وظل عينيه من أشعة الشمس بإحدى يديه، وتطلع إلى أعلى محملا نحو الهيكل. كان تركيبًا عملاقًا، وكذلك كان الفراش والرسام، وكانا يبدوان كصندوقين خشبيين معتمين، وقد علق الرسام على ارتفاع يقارب المترين فوق الفراش، وثبت كل منها من جميع الجوانب بأربعة قضبان نحاسية. كانت تعكس الأشعة في ضوء الشمس فوق أغلب أجزاء الجهاز، وتحت هذين كان يتحرك

المشط كالمكوك فوق شريط من الصلب.

وكان الضابط قد لاحظ على نحو ما لا مبالاة الرحالة السابقة، لكنه قد شعر الآن باهتمامه المفاجئ، ولهذا توقف عن الشرح حتى يفسح له مجالا من الملاحظة المتأنية. وحذا السجين حذو الرحالة، ولما لم يكن يسعه أن يرفع يدا يظل بها عينيه، فقد تطلع إلى أعلى نحو أشعة الشمس، دون أن يظللها.

قال الرحالة، مستندا بظهره إلى الخلف في مقعده، واضعا ساقا فوق الأخرى: حسنا، يستلقي الرجل... فقال الضابط: نعم، دافعا قبعته قليلا إلى الخلف، متحسسا وجهه الدافئ بإحدى يديه: أرجو أن تنتبه الآن، فثمة بطارية كهربائية، لكل من الفراش، والرسام، ويحتاج الفراش إلى البطارية لحركته، ويحتاج الرسام إلى البطارية لحركة المشط. وما إن يستلقي الرجل، حتى يبدأ الفراش في الحركة، إنه يتذبذب في الدقيقة، ذبذبات سريعة جدًا، في كلا الاتجاهين، من جانب إلى جانب، ومن أعلى إلى أسفل، وربما أمكنك أن ترى جهازًا مماثلًا لهذا الجهاز في المستشفيات، إلا أن الحركة في (فراشنا) محسوبة بغاية الإحكام؛ لأن عليها أن تتوافق بدقة مع حركة المشط. فالمشط هو الأداة الأساسية للتنفيذ الفعلي للحكم.

تساءل الرحالة: وكيف يجري الحكم؟

قال الضابط في دهشة، وهو يعرض على شفته: ألا تعرف هذا أيضا؟ اغفر لي ما قد يبدو على شرحي من التفكك، إنني أرجو عفوك، فأنت ترى أن القومندان قد اعتاد دائما على القيام بالشرح، إلا أن القومندان الجديد قد تنصل من ذلك الواجب، لكن مع زائر على هذه الدرجة من الأهمية...

وحاول الرحالة أن يستغفر ذلك الشرف بكلتا يديه إلا أن الضابط رغم ذلك، أصر على مواصلة تمجيده قائلاً: زائر على مثل هذه الدرجة من الأهمية، ولا يتاح له حتى أن يعرف نوع الحكم الذي نجره، وهو نوع جديد. وكان على وشك أن يتفوه بالفاظ جارحة، لكنه ضبط نفسه، وقال: لم أكن أعلم، وليست هذه غلطتي. وعلى كل حال، فلا شك في أنني أفضل من يمكنه شرح إجراءاتنا، بما أنني أضع هنا - وربت على الجيب الذي فوق صدره - الرسوم الصحيحة التي وضعها قومنداننا الأسبق.

تساءل الرحالة قائلاً: رسوم القومندان الخاصة؟ هل كان يقوم بأداء كل شيء بنفسه إذن؟ هل كان جنديًا وقاضيًا وكيميائيًا ورسامًا؟ قال الضابط مطرقًا بموافقة، ونظرة زجاجية جامدة: لقد كان كذلك حقًا! ثم تفحص يديه في إمعان. لم تكونا نظيفتين إلى حد يكفي لكي يلمس بهما الرسوم، فاتجه نحو الدلو، وغسلهما مرة أخرى، ثم سحب محفظة صغيرة جلدية، وقال: إن حكمنا لا يبدو قاسيًا، فكل أمر خالفه المحكوم عليه، يكتب على جسده بواسطة المشط، وهذا الرجل المحكوم عليه مثلاً، سوف يكتب على جسده: وقّر الرؤساء!

وتطلع الرحالة إلى الرجل - كان قد قام واقفًا عندما كان الضابط يشير إليه - برأس مطرقة، متسمعًا فيما يبدو بكل ما أوتي من إرهاف السمع في محاولة لالتقاط ما كان يقال. إلا أن حركة شفثيه الغليظتين المضغوطتين بشدة على بعضهما كانت تدل في وضوح على أنه لم يتمكن من أن يفهم كلمة واحدة. وكانت أسئلة كثيرة تشغل بال الرحالة، لكنه تساءل فقط عند رؤية المحكوم عليه: هل يعلم بالحكم الصادر عليه؟ قال الضابط: لا!

متشوقاً إلى مواصلة شرحه، لكن الرحالة قاطعه قائلاً: ألا يعلم نوع الحكم الذي ينفذ فيه؟، قال الضابط ثانية: لا! متوقفا لحظة، كما لو كان يقصد بذلك أن يتيح الفرصة للرحالة حتى يفرغ من سؤاله، ثم قال بعد ذلك: لن تكون هنالك أية فائدة من إخباره، ولسوف يعرفها جسدياً بنفسه! وقد انتوى الرحالة ألا يرد، إلا أنه شعر ثانية بنظرة المحكوم عليه، تتحول نحوه، وكأنها تتساءل عما إذا كان يؤيد ما يجري؟ وهكذا مال ثانية إلى الأمام، بعد أن كان قد اضطجع إلى الخلف في مقعده، ووجه سؤالاً آخر: لكن لا شك في أنه يعلم بأنه قد حكم عليه؟ قال الضابط: ولا حتى ذلك أيضاً! وهو يبتسم للرحالة، كما لو كان يتوقع منه أن يبدي مزيداً من الملاحظات المندهشة! قال الرحالة: لا! إذن فهو لن يتمكن من معرفة ما إذا كان دفاعه ناجحاً أم غير ناجح! ليست لديه أية فرصة لإقامة دفاع! قالها الضابط مبعداً نظراته كما لو كان يتحدث إلى نفسه، وهكذا يوفر على الرحالة مشقة الإحراج من سماع شرح الأمور البديهية، فقال الرحالة: ولكن لا بد له من فرصة للدفاع عن نفسه، وقام واقفاً من مقعده!

وخشى الضابط أن يتأخر شرحه للجهاز وقتاً أطول من ذلك، فاتجه نحو الرحالة، وسحبه من ذراعه، ولوح بيده الأخرى نحو الرجل المحكوم عليه الذي كان يقف لحظتها معتدلاً تماماً، حتى لقد أصبح مثيراً للانتباه في وضوح، ونحو الجندي الذي كان قد هز القيود بدوره هو أيضاً، وقال: ها هو النحو الذي تسير عليه الأمور، إنني الشخص المكلف بأمر العدالة في مستعمرة الإعدام هذه، على الرغم من حداثة سني، ذلك أنني كنت مساعداً للقومندان السابق، في كل شئون الإعدام، وأعرف عن الجهاز

أكثر مما يمكن أن يعرفه أي شخص آخر. وإن القاعدة التي أتبعها هي هذه: إن الجريمة لا تحتل الشك، ولا تستطيع المحاكم الأخرى أن تتبع هذه القاعدة، وهي تتألف لهذا من عديد من الآراء، وثمة محاكم عليا تتفحص أيضًا أحكامها إلا أن الحال ليس كذلك هنا، أو على الأقل لم يكن الحال كذلك في عهد القومندان السابق. ولقد أبدى الرجل الجديد شيئاً من الميل إلى التدخل في أحكامي، إلا أنني قد نجحت إلى حد بعيد في مقاومته، وسوف أواصل مقاومتي له بنجاح. وقد يروقك أن أشرح لك هذه الحالة، وإنها لبسيطة غاية البساطة كغيرها من الحالات. فقد كتب إليّ هذا الصباح، ضابط برتبة كابتن تقريراً جاء فيه أن هذا «الرجل» الذي كان قد خصص لخدمته ونام أمام بابه، كان نائماً في وقت الخدمة. وإن خدمته - لو تفضلت بالانتباه - هي أن ينهض عند كل مرة تدق فيها الساعة، وأن يؤدي التحية لباب حجرة الكابتن! إنه ليس واجباً إجبارياً، ولكنه ضروري طالما كان عليه أن يكون ديدبانا، وأن يكون خادماً في وقت معاً. ولا بد له أن يكون منتبهاً لكلا المهمتين. وفي الليلة الماضية، شاء الكابتن، أن يرى إن كان خادمه ذاك يقوم بأداء واجبه، و.. فتح الباب عندما دقت الساعة الثانية، فوجد رجله مكوما هنالك ومستغرقاً في النوم. فجذب سوط ركوب، وساطه به على وجهه، وبدلاً من أن ينهض الرجل ويرجوه المغفرة، تشبث بركبتيه وهزه صائحاً: ألق ذلك السوط، وإلا أكلتك حياً! تلك هي الشهادة، وقد جاءني الكابتن منذ ساعة، فسجلت شهادته تلك، وذيلتها بالحكم المناسب لها. ثم جاءني الرجل في القيود. كان هذا كله غاية في البساطة. فلو أنني أحضرت الرجل أمامي أولاً واستجوبته، فإن الأمور كانت ستعقد

تعتيلاً بالغ الاضطراب. فلا بد له أن يلقي بالأكاذيب، وهكذا، وهكذا، وكأمر واقع، استقدمته، ولن أدعه يفلت! هل هذا واضح الآن بما يكفي؟ إلا أننا نضيع الوقت، فلا بد للتنفيذ أن يبدأ، ولم أفرغ بعد من شرح الجهاز لك، ودفع الرحالة إلى الخلف نحو مقعده، واتجه مرة أخرى نحو الجهاز، وراح يقول: إن تكوين المشط كما ترى يلائم تكوين الجسم البشري، وهذا هو المشط المخصص للجذع، وهذان هما مشطاً الساقين، أما للرأس فلا يوجد فقط سوى هذه الشوكة الصغيرة، هل هذا واضح بدرجة كافية؟ قال ذلك، بينما انحنى في رقة نحو الرحالة، متطلعاً إلى تقديم الشروح الأكثر شمولاً!

وحدث الرحالة في المشط بتجههم. فلم يرقه ذلك الحديث عن الإجراءات القانونية، وكان عليه أن يذكر نفسه أن تلك كانت على أية حال مستعمرة إعدام، حيث يلزم اتخاذ مقاييس غير عادية، وأنه كان لابد من فرض نظام عسكري حتى النهاية. إلا أنه أحس أن أملاً ما يمكن أن يعقد على القومندان الجديد، الذي كان على ما يبدو قد انتوى أن يستحدث ولو بالتدريج نوعاً جديداً من الإجراءات التي لم يكن أفق الضابط ليتسع لقبولها. حفزته هذه السلسلة من الأفكار على توجيه سؤاله التالي: هل يشهد القومندان تنفيذ الحكم؟ قال الضابط، مفزوعاً للسؤال المفاجئ: ليس حضوره مؤكداً! وتغير تعبيره الوردى: وهذا هو السبب في أنني لا أريد أن أضيع وقتاً أطول مما يجب عليّ أن أضيعه، وسوف أختصر لهذا شرحي. لكن بالطبع غداً - بعد أن يتم تنظيف هذا الجهاز، وإن عييه الوحيد هو في أنه يصبح في غاية التشوش - يمكنني أن ألخص شرح كل

التفاصيل، وسأذكر لك الآن الأمور الأساسية، فعندما يستلقي الرجل على الفراش ويبدأ الفراش في التذبذب، يهبط المشط نحو جسده، وإنه لينظم نفسه أوتوماتيكيا حتى أن الإبر تكاد تلمس الجلد تقريبا، ويكفي أقل تماس لشد الشريط الصلب فيتحول إلى حزام محكم، ثم يبدأ التنفيذ. ولن يتسنى لأي مشاهد جاهل أن يتبين أي فارق بين عقوبة وأخرى. فسيبدو المشط، وكأنه يقوم بعمله بنظام متكرر. وعندما يرتعد الرجل، فإن أطراف المشط تثقب بشرة جسده الذي يكون مرتعشا هو أيضًا مع حركة تذبذب الفراش، وعلى هذا فإن التقدم الفعلي للتنفيذ يصبح ملحوظا، إن المشط مصنوع من الزجاج. وقد كان تثبيت الإبر في الزجاج مشكلة فنية، إلا أننا تغلبنا بعد تجارب عديدة على تلك الصعوبة، ولعلك تلاحظ، أن أية مشكلة عويصة لم توقفنا، وفي إمكان أي شخص أن ينظر الآن خلال الزجاج، ويلاحظ الكتابات التي تشكل فوق الجسد، فهل تتكرم بأن تقترب قليلا، وتلقي نظرة على الإبر؟

فنهض الرحالة ببطء، وتقدم، وانحنى على المشط وقال الضابط: هل ترى، يوجد هنا نوعان من الإبر، مرتبة في أشكال متضاعفة، ولكل إبرة طويلة، أخرى قصيرة إلى جوارها، فالإبرة الطويلة تقوم بالكتابة، وترش الإبرة القصيرة خيطا من الماء لغسل الدم، ولتبقى الكتابة واضحة، ويسير الدم والماء معًا خلال قنوات صغيرة، إلى هذا المجرى الرئيس، وينحدر إلى أسفل خلال ماسورة عادم نحو القبر. وتعقب الضابط بإصبعه المجرى الصحيح الذي يتخذ الماء والدم. ولكي يجعل الصورة أكثر وضوحا بقدر الإمكان، رفع كلتا يديه أسفل فتحة الماسورة، كأنما ليتلقى انصباب

المزيح، وعندما فعل هذا، سحب الرحالة رأسه إلى الخلف، وتحسس الهواء خلفه بكفه، متلمسا العودة إلى مقعده. واكتشف لرعبه أن الرجل المحكوم عليه، كان قد لبي هو أيضًا دعوة الضابط لتفحص المشط عن قرب، وتبعه! وكان في مقدور المرء أن يلاحظ أن عينيه الزائغتين كانتا تحاولان تبين الشيء الذي كان السيدان يتطلعان إليه، لكنه لم يتمكن من أن يدرك شيئًا؛ لأنه لم يفهم الشرح. كان يحدق في هذا الاتجاه، وفي ذاك، وظل محملقًا مرسلاً نظراته عبر الزجاج، وأراد الرحالة أن يدفعه بعيدًا؛ لأنه ربما كان يرتكب خطأ ما بتطلعه على هذا النحو، إلا أن الضابط منع الرحالة بشدة بإحدى يديه، وباليد الأخرى التقط كتلة من الطين من كومة الأتربة الناتجة عن الحفر وقذف بها الجندي، ففتح عينيه مفزوعا، ورأى ما جرؤ الرجل المحكوم عليه على إتيانه فترك بندقيته تسقط، ودق كعبه في الأرض، وجذب السجين إلى الخلف، حتى لقد تعثر وسقط من فوره فوق الأرض، ووقف بعد ذلك ينظر إليه، ويرقبه وهو يصارع محاولا النهوض، ويتخبط في قيوده! صاح الضابط قائلاً: أوقفه على قدميه! ذلك أنه قد لاحظ أن انتباه الرحالة كان شاردا غاية الشroud، بسبب الرجل المحكوم عليه. وكان الرحالة في الحقيقة، مائلا نحو المشط دون أن يركز انتباهه عليه، مهتما فقط باكتشاف ما كان يحدث للرجل المدان، وصاح الضابط مرة أخرى قائلاً: اعتن به! وجرى حول الجهاز، وأمسك الرجل المدان بنفسه من تحت إبطيه، وأوقفه بمساعدة الجندي على قدميه اللتين راحتا تتعثران من تحته.

قال الرحالة: لقد عرفت الآن كل شيء عن الجهاز! عندما عاد الضابط

إليه، قائلاً وهو يمسك بذراع الرحالة، مشيراً إلى أعلى: كل شيء ما عدا أهم الأشياء جميعاً! ففي الرسام توجد كل التروس التي تتحكم في تحركات المشط، وهذه التروس الآلية تدار تبعاً للنص المنصوص عليه في الحكم. وما زلت حتى الآن أستخدم الخطط الرائدة التي رسمها القومندان السابق، وها هي ذى! ثم انتزع بعض الأوراق من الحقيبة الجلدية الصغيرة. لكن يؤسفني أنني لا يمكنني أن أسمح لك بأن تتسلمها فهي أثمن ممتلكاتي جميعاً، ويمكنك أن تسحب لنفسك مقعداً، وسوف أنشرها أمامك هكذا، فيصبح في إمكانك أن ترى كل ما فيها بوضوح... ونشر الورقة الأولى. ولقد أراد الرحالة أن يقول شيئاً يوضح إعجابه، إلا أن كل ما كان يمكنه أن يراه كان تيهها من الخطوط متقاطعة ومتعارضة مع بعضها البعض، كانت تغطي الورقة في كثافة، حتى كان من الصعب أن تميز المساحات الخالية من بين تلك الخطوط. قال الضابط: اقرأها؟ فقال الرحالة: لا يمكنني ذلك! فعاد الضابط يقول: ولكنها بارعة، غاية البراعة، ولا يمكنني تفسيرها! قال الضابط بابتسامة: نعم! مبعداً الورقة ثانية: إنها ليست خطوطاً منمقة خطها أطفال المدارس، وهي في حاجة إلى دراسة متخصصة، وإنني واثق تمام الثقة من أنك ستفهمها أنت أيضاً، إن المخطوط ليس مخطوطاً مبسطاً بالطبع، فليس المطلوب منه أن يقتل رجلاً من فوره، لكن أن يقتله فقط، بعد انقضاء فترة من الزمن، متوسطها اثنتا عشرة ساعة، وقد صمم التخطيط بحيث تأتي نقطة التحول في الساعة السادسة، وهكذا كان يجب أن تكون هناك كميات وكميات من الزهور حول النص الأصلي، وإن النص نفسه ليدور حول الجسم فقط في شريط ضيق، أما باقي الجسم، فإنه يبقى

للزخرفة، فهل يمكنك الآن أن تقدر العمل الذي يتم تنفيذه بواسطة المشط وبواسطة الجهاز كله، راقبه فقط! وصعد إلى أعلى السلم، وأدار عجلة ما، وصاح إلى أسفل قائلاً: انظر، وابق في نفس الجانب! وبدأ كل شيء في العمل، فلو لم تكن العجلة تحدث صريراً، لكان كل شيء رائعاً. وكما لو كان الضابط مندهشاً للصوت الذي يصدر عن العجلة، فقد دق قبضته عليها، ثم نشر ذراعيه كاعتذار للحالة، وهبط إلى أسفل السلم مسرعاً؛ ليراقب عمل الآلة من أسفل، وكان شيء ما، شيء لا يدركه أحد سواه، على غير ما يرام رغم ذلك، فصعد إلى أعلى السلم مرة أخرى، وأدخل كلتا يديه في الرسام، ثم دفع أحد القضبان إلى أسفل بدلاً من استخدام السلم، حتى يمكنه أن يهبط بسرعة أكبر، وبكل ما تحتمله رثاه من قوة، حتى يجعل كلامه مسموعاً وسط الضجة التي بدأت، صاح زاعقاً في أذن الرحالة: «هل يمكنك أن تتبع ذلك الآن؟ لقد بدأ المشط في الكتابة، وعندما ينتهي من النسخة الأولى من النص على الظهر، فإن طبقة القطن الطبي تبدأ عندئذ في الدوران، ويبطئ تدوير الجسم؛ لكي تتيح للمشط مساحة جديدة خالية للكتابة، ويكون الجزء الجريح الذي تمت كتابته ملتصقاً في تلك الأثناء بالقطن الطبي، الذي أعد خصيصاً لكي يوقف النزيف، وهكذا يمهد نفس المكان لكتابة جديدة أبعد غوراً، كما أن تلك الأسنان التي عند حافة المشط تنزع بعد ذلك - عندما يدور الجسم أكثر فأكثر - طبقات القطن بعيداً عن الجراح، وتُلقي بها إلى القبر، وهكذا ينفس المجال أمام المشط لمزيد من العمل. ويواصل الكتابة على هذا النحو، أعمق، فأعمق، طوال الاثنتي عشرة ساعة. ويظل الرجل المحكوم عليه حياً كما هو خلال الساعات

الست الأولى، لكن فقط يعاني من وطأة الآلام. وبعد ساعتين يشعر بقطعة الفلين، وقد اندفعت بعيداً، ذلك أنه عندئذ لا يعود قادراً على الصباح. ومن هذا الوعاء الذي يتم تسخينه بالكهرباء، هنا عند رأس (الفراش)، ينصب بعض من حساء الأرز الدافئ، يمكن للرجل، لو شاء، أن يلعق منه ما قد يكون في متناول لسانه، ولا يخطئ تلك الفرصة واحد منهم قط، لا يسعني أن أذكر واحداً أخطأه ذلك، ولي خبرة عريضة. فقط عند حوالي الساعة السادسة يكون الرجل قد فقد كل رغبة له في الطعام. وعادة ما أركع هنا في أسفل عندئذ، وأراقب تلك الظاهرة. ونادراً ما يتلع الرجل حسوته الأخيرة، إنه يلوكها فقط في فمه، ويصقها داخل القبر... وعليّ أن أنحني عندئذ، وإلا فإنه سوف يبصقها في وجهي. لكنه يصبح هادئاً للغاية عند حلول الساعة السادسة! إن الإشراق يشع منبثقاً من الكيان الهامد، ويزغ البهاء حول العينين، ويتشعشع مبتدئاً من ذلك المكان. لحظة تغري المرء بأن ينزلق تحت المشط إلى جواره. ولا شيء يحدث أكثر من ذلك، فقط يبدأ الرجل في فهم الكتابة، إنه يحرك فمه كما لو كان يسمع، ولقد رأيت بنفسك مدى صعوبة اكتشاف النص عندما يتفحصه المرء بعينه، إلا أن رجلنا يفسرها بجراحه. وثق من أنه عبء قاس، وأن الرجل يحتاج إلى ست ساعات حتى يتم له ذلك، ويكون المشط أثناء تلك الفترة قد ثقبه تماماً، وأطاح به إلى داخل القبر، حيث يستقر وسط الدم والمياه والقطن الطبي، عندئذ يكون قد تم تنفيذ الحكم، ونقوم بدفنه أنا والجندي.

كان الرحالة قد أعار سمعه للضابط، وراح يرقب الآلة أثناء عملها، ويدها داخل جيوب سترته. انحنى قليلاً إلى الأمام، واستغرق في التطلع

إلى الإبر المتحركة، وعندئذ، شق الجندي، بإشارة من الضابط، سروال الرجل، وسترته من الخلف بسكين، حتى تهاوت ملابسه نحو الأرض، وحاول الرجل أن يتشبث بملابسه المتهالكة ليستريح بها عريه، إلا أن الجندي رفعه إلى أعلى، ونزع عنه ما تبقى من ملابس، وأوقف الضابط الآلة، وفي أثناء الصمت المفاجئ، الذي نتج عن توقفها، كان الرجل قد وُضع تحت المشط، وكانت قد فُكَّت قيوده، واستبدلت بها السيور، ولأول وهلة تهيأ للرجل أنه قد تحرر من قيوده. لكن سرعان ما عدل وضع المشط، فهبط قليلاً إلى أسفل، فقد كان الرجل هزيباً. وعندما لمست أطراف الإبر، سرت رعدة في كل جسده، بينما كان الجندي منهمكاً في تقييد يده اليمنى بالسيور، ودفع الرجل يده اليسرى بلا وعي، لكن تصادف أن امتدت نحو المكان الذي كان يقف فيه الرحالة. وظل الضابط يتطلع إلى مكان الرحالة، كما لو كان يحاول أن يقرأ على وجهه، الانطباع الذي طرأ عليه، كرد فعل لعملية التنفيذ، التي كان قد شرحها له بلمحات سريعة على الأقل.

وانقطع السير الذي يقيد المعصم، ولعل الجندي أن يكون قد بالغ في شدة. وكان على الضابط أن يتدخل، ورفع الجندي الجزء المقطوع من السير ليعرضه عليه، واتجه الضابط نحوه قائلاً ووجهه متجه لا يزال ناحية الرحالة: إنها آلة معقدة غاية التعقيد، وإن أجزاءها لتتمزق، أو تفلت من مكانها هنا وهناك، إلا أن المرء لا يجب عليه لهذا أن ينصرف عن تنفيذ العدالة الشاملة، وعلى أية حال فمن الممكن إصلاح هذا الشريط بسهولة، وسأستعمل القيود بدلاً منه ببساطة، ولسوف تضعف رقة التذبذب بالنسبة لليد اليمنى قليلاً بالطبع. وأضاف قائلاً بينما كان يثبت القيود: لقد

انخفضت الآن الاعتمادات التي كانت تنفق على صيانة الآلة انخفاضاً كبيراً، ولقد كان لي في ظل عهد القومندان السابق حق التصرف المطلق في مبلغ من المال مخصص كلية لهذا الغرض، وكان هناك مخزن أيضاً، يمتلئ بقطع الغيار، لاستبدال كل شيء، وأعترف بأنني كنت مسرفاً في استعمالها، على الأغلب، أعني في الماضي، لا في الحاضر حيث يتحين القومندان الحالي دائماً كل فرصة تسنح له لمهاجمة طريقتنا العتيقة في تنفيذ الأحكام. وهو الذي يشرف الآن بنفسه على نفقات الآلة، فإذا أرسلت في طلب سير جديد، طلبوا السير القديم الممزق كدليل على احتياجتنا لآخر جديد، كما أن السير الجديد لا يصلنا قبل مرور عشرة أيام، ويصلنا بعدئذ سير مصنوع من خامة قديمة بالية، كما أنه لا يكون سيرا جديدا بحال من الأحوال، أما كيف يتسنى لي أن أدفع الآلة إلى العمل بدون سيور، فهذا ما لا يهتم به أحد!

وفكر الرحالة في نفسه قائلاً: إن تدخل المرء في شئون غيره بصورة مباشرة أمر شائك دائماً، فلست عضوا في المستعمرة، ولا مواطناً في الولاية التي تتبعها المستعمرة. فهل كان له أن يهاجم ذلك الإعدام، أو يحاول بالفعل أن يوقفه. في وسعهم أن يقولوا له: إنك غريب، فاهتم بشئونك الخاصة! ولن يمكنه أن يرد على ذلك، ما لم يكن عليه أن يضيف أنه كان مندهشاً لسلوكه في هذا الشأن، ذلك أنه قد رحل كمشاهد فقط، دون أية نوايا مطلقاً في تغيير أساليب الشعوب الأخرى في إقرار العدالة. إلا أنه وجد نفسه واقعاً هنا تحت تأثير الرغبة الشديدة في التدخل. فإن ظلم الإجراءات ووحشية الإعدام لم يكن يمكن التغاضي عنهما. ولا يمكن

لأحد أن يظن أنه يتدخل في الأمر لغرض خاص، ذلك أن الرجل المحكوم عليه كان رجلاً غريباً تماماً عنه، فهو ليس مواطناً له، ولا حتى متعاطفاً معه على الإطلاق. وكان الرحالة قد حصل على توصيات من الجهات العليا، وقد قبل هنا بالحفاوة الزائدة، كما أن حقيقة دعوته لمشاهدة تنفيذ حكم الإعدام، كانت تنم عن الاستعداد للترحيب بوجهة نظره. ولقد كان كل شيء يشير إلى ذلك، بما أن القومندان - كما سمع بوضوح تام - لم يكن يؤيد تلك الإجراءات، وكان يتخذ موقفاً معادياً على الأغلب للضابط.

وسمع الرحالة في تلك اللحظة الضابط وهو يصرخ في غضب، فقد كان قد فرغ لتوه من دفع قطعة الفلين إلى داخل فم الرجل المحكوم عليه، عندما انتابت الرجل نوبة غثيان لم يتمكن من التغلب عليها. أغلق عينيه، وتقيأ. وجذب الضابط مسرعاً قطعة الفلين، وحاول أن يحمل رأسه فوق القبر، إلا أن الوقت كان قد فات، وكان القيء قد لطمخ الجهاز كله. صاح الضابط وهو يهز القضبان النحاسية التي تواجهه بلا شعور قائلاً: إن الخطأ كله، خطأ القومندان، إن الآلة قد تلوّث كحظيرة الخنازير! وأخبر الرحالة بما حدث، ويداه ترتعشان: ألم أحاول لساعات طويلة أن أخبر القومندان أن عليه أن يدرك أنه لا بد للسجين من أن يصوم يوماً كاملاً قبل تنفيذ حكم الإعدام؟ إلا أن قوانيننا الحانية ترى العكس. فلقد قامت سيدات القومندان بحشو فم الرجل بالحلوى قبل أن يساق إلى هنا. لقد عاش طوال حياته على السمك المتعفن، وأخيراً آن له أن يلتهم الحلوى! إن حدوث ذلك ما زال ممكناً، ولا يسعني أن أقول شيئاً في معارضته، لكن لماذا لا يحضرون لي قطعة أخرى من الفلين، ظلت أرسل في طلبها طوال الشهور

الثلاثة الماضية. وكيف يتسنى لرجل ألا يصاب بالغثيان، بينما يتلع مرغما قطعة من الفلين، أفرز عليها أكثر من مائة رجل لعابهم، وعضوا عليها في لحظاتهم الأخيرة مع الموت؟!

كان الرجل المحكوم عليه قد ألقى رأسه إلى أسفل، ونظر في هدوء، وكان الجندي منهمكا في محاولة تنظيف الآلة بسر وال الرجل، وتقدم الضابط نحو الرحالة، الذي تراجع خطوة إلى الخلف في شعور مبهم، إلا أن الضابط كان قد أمسك بيده وجذبه إلى أحد الجوانب قائلاً: إنني أريد أن أحدث إليك قليلاً في ثقة، فهل يمكنني ذلك؟ وأجابه الرحالة قائلاً: طبعاً! واستمع له، وعينه مطرقتان نحو الأرض!

إن هذه الإجراءات، وهذا الأسلوب المتبع في تنفيذ حكم الإعدام، الذي أتيحت لك الآن الفرصة للتمتع بمشاهدة روعته، لم يعد له بعد أي أنصار الآن يجهرون بتأييده في مستعمرتنا. وإنني نصيره الأوحده، والنصير الوحيد في الوقت نفسه لتراث القومندان السابق، وليس في استطاعتي أن أطمع في أي تطوير أبعد من ذلك لتلك الطريقة؛ فلقد استنفدت جهودي كلها حتى أحافظ على بقائها كما هي. وكانت المستعمرة في أثناء حياة القومندان السابق تكتظ بأنصاره، وما زلت أتمتع إلى حد ما بقدرته على الإدانة، لكن ليست لي ذرة واحدة من قوته، ولهذا اختفى الأنصار عن نظري، ولا يزال يوجد الكثير منهم، إلا أن أحدا منهم لن يوافق على هذه الطريقة، فلو أتيحت لك أن تذهب اليوم إلى مشرب الشاي، في اليوم نفسه الذي يتم فيه تنفيذ هذه الملاحظات، لكن في ظل القومندان الحالي وقوانينه الحاضرة فلا توجد أدنى فائدة لي من ورائها. وإنني أسألك الآن،

هل يمكن لمثل ذلك العمل، ثمرة جهد حياة بأكملها أن يهمل تمامًا، بسبب ذلك القومندان، وتلك المرأة التي تسيطر عليه؟ وأضاف قائلاً وهو يشير نحو الآلة: وهل يجب على المرء أن يسمح لهذا بأن يحدث؟ حتى ولو كان المرء قد حضر إلى جزيرتنا كأجنبي، فقط لقضاء بضعة أيام؟ ليس هناك ثمة وقت لإضاعته، وإن هجوما ما يحدث الآن بمهمتي كقاض، إن المؤتمرات تعقد دائماً في مكتب القومندان، تلك المؤتمرات التي أبعد عنها، ويبدو لي أن مجيئك اليوم إلى هنا أمر خطير له مغزاه، إنهم جبنا، ويستخدمونك كستار، أنت الغريب! كم كان تنفيذ حكم الإعدام مختلفاً في الأيام الخالية! كان الوادي يزدحم بالناس يوماً كاملاً قبل الاحتفال، كلهم يجيئون فقط من أجل الفرجة، وفي الصباح الباكر يظهر القومندان مع حريمه، وترتفع أصوات الأبواق في كل أنحاء المعسكر، وأعلن أنا أن كل شيء على أتم الاستعداد، ويتنظم الحشد المجتمع - ولا يمكن أن يجرو أي موظف كبير على التغيّب - حول الآلة، وهذه الكومة البائسة من المقاعد الخيزرانية هي مخلفات ذلك العهد. وتكون الآلة نظيفة تماماً ولا معة، ويتم تزويدي بقطع غيار جديدة، تقريباً لتنفيذ كل حكم جديد، وأمام مئات المشاهدين - الواقفين جميعاً على أطراف أصابع أقدامهم، لمسافة تمتد حتى تلك المرتفعات التي هناك - يوضع الرجل المحكوم عليه، تحت المشط بيد القومندان نفسه. وما يترك اليوم لأي جندي لكي يؤديه، كان هو كل واجبي الذي كنت أكلف بأدائه حينذاك، وهو واجب القاضي الذي يشرف على عملية التنفيذ، وكان ذلك تكريماً لي، ثم يبدأ تنفيذ الإعدام بعدئذ! ولم تكن تصدر أدنى ضوضاء متنافرة تشوش حينذاك على عمل الآلة. ولم يكن

الكثيرون يعنون كثيرًا بمراقبتها، بل كانوا يستلقون بعيونهم المغلقة فوق الرمال، وهم يعلمون جميعاً أن العدالة كانت في تلك الأثناء تأخذ مجراها. ولم يكن المرء يسمع وسط ذلك الصمت شيئاً سوى زفرات المحكوم عليه، في غمغة شبه واضحة بسبب قطعة الفلين. أما في أيامنا، فلا يمكن للآلة أن تنتزع من أي منهم زفرة أكثر ارتفاعاً مما يمكن لقطعة الفلين أن تكتمه، وكانت الإبر التي تقوم بالكتابة تفرز في تلك الأيام سائلاً حمضياً، لا يسمح لنا اليوم باستعماله! حسناً، وبعد ذلك تحل الساعة السادسة! كان من المستحيل أن نسمح بتلبية كل الرغبات لمراقبتها عن كثب. وكان القومندان قد قرر بحكمته أن تكون الأولوية في الرؤية للأطفال، وكان لي بالطبع بحكم وظيفتي امتياز الوجود الدائم بالقرب من الجهاز، وغالباً ما كنت أجلس القرفصاء هنالك، حاملاً طفلاً صغيراً بين كل من ذراعيّ. كيف كنا نستغرق جميعنا في مراقبة مشهد التجلي فوق وجه المعذب، وكم متعنا أنظارنا ببهاء تلك العدالة التي تمت في النهاية، وانقضت بمثل تلك السرعة؟ كم كان الحال رائعاً في تلك الأوقات يا رفيقي؟! كان الضابط قد نسى على ما يبدو شخصية الرجل الذي كان يتوجه إليه بالحديث، فقد عانق الرحالة ووضع رأسه فوق كتفه، ولقد ارتبك الرحالة غاية الارتباك، وحملق متملماً من فوق رأس الضابط. وكان الجندي قد فرغ من مهمته في تنظيف الآلة، ويصب الآن حساء الأرز من قدر في الوعاء. وعندما لاحظ ذلك الرجل المحكوم عليه، الذي كان يبدو عليه وكأنه قد استفاق تماماً، بدأ يحاول بلوغ الحساء بلسانه، وظل الجندي يدفعه بعيداً، فقد كان حساء الأرز قد هُيئَ للحظة قادمة، إلا أن الوعاء كان قد امتلأ بصورة غير

مناسبة، حتى أن الجندى نفسه كان يدفع يديه القذرتين في داخل الوعاء، ويأكل منه بكفيه أمام وجه الآخر الذي كان يتعطش إلى الطعام.

وابتعد الضابط قائلاً: لا أريد أن أغضبك، وإنني لأعلم انه من المستحيل أن يصف المرء تلك الأيام وصفا يمكن تصديقه الآن. وعلى كل حال، فإن الآلة لا تزال تعمل، ولا تزال في ذاتها صالحة للعمل، إنها فعالة في ذاتها، على الرغم من وقوفها وحيدة وسط هذا الوادي، وإن البجثة لا تزال تُلقى في النهاية، داخل القبر، بحركة متموجة خفيفة، غير ملحوظة، على الرغم من عدم وجود مئات من الناس المحتشدين من حولها كالذباب كما كان يحدث في العهد السابق. فقد كان علينا في تلك الأيام أن نقيم حاجزا قويا حول القبر، ولقد تهدم ذلك الحاجز، منذ ذلك الحين!

وأراد الرحالة أن يبعد وجهه عن الضابط، وينظر حواليه كيفما اتفق، وظن الضابط أنه كان يشمل بنظره وحشة الوادي، وهكذا فقد أمسك بيديه، وأداره؛ لكي يلتقي عينيه متسائلاً:

هل لاحظت هذا العار؟

إلا أن الرحالة لم يقل شيئاً. وتركه الضابط قليلاً وحده، وبساقيه المتباعدتين ويداه فوق شفثيه كان قد وقف ساكناً تماماً، محدقاً في الأرض، ثم ابتسم للرحالة في تشجيع، وقال: لقد كنت قريباً منك بالأمس غاية القرب عندما وجه إليك القومندان الدعوة، ولقد تكهنت فوراً بما كان يهدف إليه، ومع أنه لم يجرؤ على اتخاذها بعد، لكنه يهدف بلا شك إلى استخدام حكمك ضدي، حكم أحد مشاهير الأجانب، لقد دبر هذا الأمر بعناية! إن هذا هو يومك الثاني في الجزيرة، وأنت لا تعرف القومندان

القديم وأساليبه، وإنك لتتمتع بالأساليب الأوربية في التفكير، ولعلك تعترض على مبدأ عقوبة الإعدام بصفة عامة، وتعترض خاصة على مثل تلك الآلات الميكانيكية للقتل، وإنك سوف ترى أن التنفيذ - بالإضافة إلى ذلك - لم يكن له سند من الجمهور، احتفال حقير نفذ على نحو ما بآلة قديمة ومستهلكة بالفعل - والآن - لو أننا أخذنا ذلك كله في الاعتبار، فهل لن يسفر الأمر - وهذا ما يظنه القومندان - عن استنكارك لوسائلتي؟ وإذا أنت استنكرتها، فأظنك لن تتكتم الحقيقة، وما زلت أتحدث من وجهة نظر القومندان؛ لأنك رجل يجب أن تستشعر الثقة بأحكامك السليمة؟ لقد رأيت الكثير حقاً، وتعلمت أن تقدر مميزات الكثير من الشعوب، ولا يبدو لهذا أنك ستخذ رأياً متشدداً ضد إجراءاتنا، كما لو كنت تراها في بلدك. إلا أن الحاكم في غير حاجة إلى ذلك. وإن ملاحظة عارضة أو حتى أدنى إشارة غير واعية ستكون فيها الكفاية بالنسبة له. ولن يكون الأمر في حاجة حتى إلى أن توضح له ما تفكر فيه بالفعل، إلا بالقدر الذي يلزم لكي يستخدم ببعض التمويه، حتى يخدم غرضه. إنه سيحاول أن يستفزك بالأسئلة الخبيثة. ولست أشك في هذا، وسوف تجلس سيداته من حولك، ويرهفن أسماعهن، وربما كنت تقول حينئذ شيئاً من هذا القبيل: في بلدنا، لنا أسلوب آخر لتحقيق العدالة! أو إننا لم نستخدم أساليب التعذيب منذ القرون الوسطى! كل هذه التصريحات هي تصريحات طبيعية كما تبدو حقاً بالنسبة لك، ملاحظات غير ضارة، قد لا تلقي أية أحكام على وسائلتي، لكن ماذا سيكون رد القومندان عليها؟ يمكنني أن أتخيله، قومنداننا الطيب وهو يدفع مقعده بعيداً على الفور، ويسعني أن أسمع صوته - وتسميه

السيدات، صوت الرعد - حسنًا، وهذا هو ما سيقوله: إن باحثا غريبا شهيرا قد أوفد لدراسة الإجراءات المتعلقة بالجريمة في كل بلدان العالم، قد قال لتوه إن أسلوبنا القديم في تحقيق العدالة هو أسلوب وحشي، مثل ذلك القرار الذي صدر عن مثل تلك الشخصية، يجعل من المستحيل بالنسبة لي أن أعضد تلك الأساليب بعد الآن، وبناء على ذلك فإنني أعلن أنه ابتداء من اليوم.... وهكذا، ولعلك تريد أن تعترض بأنك لم تقل شيئًا من هذا القبيل، وأنت لم تذكر أن وسائلتي وحشية، بل إن تجربتك العميقة على العكس تقودك إلى الاقتناع بأنها أكثر إنسانية، وأنها أكثر توافقًا مع الكرامة البشرية، وأنت معجب غاية الإعجاب بالآلة، لكن ذلك كله سيكون قد فات أوانه، ولن تتمكن حتى من بلوغ الشرفه؛ لأنك ستكون محاطًا كما سيحدث بالسيدات، ولعلك ستحاول لفت الأنظار، وربما أردت أن تصرخ، إلا أن سيدة ما سوف تغلق شفتيك، وسيكون قد تم القضاء علينا أنا، والقومندان السابق!

وكان على الرحالة أن يمنع ابتسامة كادت تغلبه، فبهذه السهولة كان العبء الذي كان يظنه غاية في الصعوبة، وقال بمراوغة: إنك تبالغ في تقدير نفوذي؛ لقد اطلع القومندان على رسائل التوصية التي أحملها، وهو يعلم أنني لست خبيرًا في الإجراءات المتعلقة بالجريمة، ولو كان لي أن أسوق رأيًا، فلن يكون سوى رأي شخصي بحت، رأي لا يزيد في أهميته عن رأي أي شخص آخر عادي، وأقل تأثيرًا بكثير جدًا على أي حال ممن رأى القومندان الذي، على حسب ما يسعني إدراكه، يتمتع بسلطة واسعة في مستعمرة الإعدام هذه، ولو كان موقفه من إجراءاتك موقفًا عدائيًا بصورة

مؤكدّة كما تظن، فإنني أخشى إذن أن تكون نهاية أسلوبك قد أصبحت وشيكة الوقوع، حتى بدون أية معونة متواضعة من جانبي!

فهل اتضح الأمر للضابط في النهاية؟ لا، لقد بقي كما هو، دون أن يتمكن من إدراك أي شيء، ولقد هز رأسه بشدة، وألقى حوله نظرة سريعة على الرجل المحكوم عليه وعلى الجندي، اللذين توقفا عن احتساء حساء الأرز، واقترب من الرحالة، ودون أن يتطلع إلى وجهه، قال في صوت أكثر انخفاضاً عن ذي قبل مثبتاً نظرتيه على بقعة ما من معطفه: «إنك لا تعرف القومندان، إنك تشعر بأنك- وعفوا عن التعبير- غريب بصورة ما، بالدرجة التي تهمنا جميعاً، لكن صدقني لو قلت لك إن نفوذك لا يمكن أن يقدر بهذه الصورة المبالغ في التهوين من شأنها، ولقد سررت ببساطة عندما سمعت أنك ستشهد تنفيذ الإعدام، وحدك فقط. ولقد رتب القومندان ذلك الأمر؛ لكي يوجه صفقة لي، إلا أنني سأحولها لصالحك دون أن تصرفني الهمسات الكاذبة والنظرات المغرورة، التي لا يمكن تجنبها لو أن جمعاً من الناس قد شهد الإعدام، لقد استمعت إلى شرحي ورأيت الآلة، وأنت الآن تشهد تنفيذ حكم الإعدام. ولقد كوّنت دون شك حكمك الخاص لتوك، فلو كانت لديك ثمة شكوك لا تزال باقية للآن، فإن مرأى عملية تنفيذ الإعدام سوف تذيبها. وإنني ألتمس منك ذلك الالتماس: انصبرني على القومندان!

لم يترك له الرحالة مجالاً لمواصلة حديثه؛ لأنه صاح قائلاً: كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟، إن ذلك مستحيل تماماً! إنني لا أستطيع مساعدتك، ولا أملك أن أقاومك! قال الضابط: نعم، إنك تستطيع! ورأى

الرحالة بشعور ما أن الضابط كان قد ضم قبضته: نعم، يمكنك! ردها الضابط بإصرار متزايد: إن لديّ خطة مضمونة النجاح، إنك تظن أن نفوذك غير كاف، ولكنني أعرف أنه كاف، بل إن هناك تسليما مطلقا بأنك على حق، وليس من الضروري، من أجل الحفاظ على ذلك التقليد أن تحاول حتى عمل ما قد يثبت أنه غير كاف!. استمع إذن إلى خطتي، إن أول شيء تجب عليك ضرورة تنفيذه، أن تكون صموتا بقدر المستطاع، فيما يختص بحكمك على ذلك الأسلوب، وما لم يوجه إليك سؤالاً مباشراً فلا يجب عليك أن تقول شيئاً على الإطلاق، كما أن ما تقوله لا بد أن يكون مقتضياً وعاماً، ولتدع الأمر يبدو وكأنك ترغب في عدم مناقشة القضية، وتوحي بأنها مسألة لا صبر لك على الحديث عنها، وأنه لو كان لك أن تسمح لنفسك بالحديث عنها، فلن تستطيع استخدام لغة قوية! إنني لا أطلب منك أن تطلق الأكاذيب بأي حال من الأحوال، بل ستجيب فقط إجابات مقتضبة من قبيل: نعم، لقد شاهدت الإعدام! أو نعم، لقد شرح لي إجابات من هذا القبيل، ولا شيء أكثر من ذلك. وتوجد أساسات كافية لأي ملل قد تبديه، على الرغم من أن مثل ذلك الملل لن يتتاب القومندان، وسوف يستغلق عليه مقصدهك بالطبع، وسيفسره بالطريقة التي تروقه! هذا هو ما تعتمد عليه خطتي! سوف يعقد مؤتمر مهم غدا في مكتب القومندان، يضم كل كبار الموظفين الإداريين الذين يرأسهم القومندان، وإن القومندان بالطبع رجل من طراز أولئك الرجال الذين يحولون مثل تلك المؤتمرات إلى استعراضات عامة، إن له رواقاً مجهزاً يغص دائماً بالمتفرجين، وإنني مجبر على الاشتراك في تلك المؤتمرات، إلا أنها تكاد تصيبني بالغثيان!

ومهما كان من أمر، فسوف تُدعى عندئذ بلا شك لحضور ذلك المؤتمر. فلو سلكت اليوم كما أتوقع، فسوف تكون دعوتك طلبا مهما. لكن لو حدث ولم تدع لحضور ذلك المؤتمر لسبب من الأسباب، فإن عليك أن تطلب توجيه الدعوة لك بالحضور، ولا شك في أنك ستجيب إلى طلبك عندئذ! وهكذا ستكون جالسا غدا في مقصورة الحاكم مع السيدات، ويظل يتطلع إلى أعلى ليتأكد من وجودك هناك. وستشار مختلف الأمور التافهة والمضحكة، فقط لمجرد التأثير في النظارة، وأغلبها عن أعمال الميناء، ولا شيء سوى أعمال الميناء! وستشار مناقشة إجراءاتنا القانونية هي أيضا، فإذا لم يثرها هو أو لم يتعجل إثارتها، فسأنظر أنا في أمر إثارتها، ولسوف أقف وأقرر أن إعدام اليوم قد تم تنفيذه باختصار تام، فقط مجرد تقرير! ليس مثل ذلك التقرير معتادا، إلا أنني سأقوم بإعلانه، وسيشكرني القومندان كالعادة بابتسامة ودودة، ثم لا يتمكن بعد ذلك من أن يضبط نفسه، وسيمسك بالفرصة النادرة: لقد استمعنا إلى تقرير عن تنفيذ ذلك الإعدام، فقط مجرد تقرير! سوف يقول ذلك أو كلمات أخرى لها نفس المعنى: إن إعداما قد تم تنفيذه، ويسرني فقط أن أضيف أن ذلك التنفيذ قد شهدته الباحث الشهير الذي شرف - كما تعلمون مستعمرتنا ذلك الشرف عزيز الوقوع - بزيارته لنا، وإن حضوره جلسة اليوم لمؤتمرنا كذلك لتزيد في أهمية تلك المناسبة، أفلا نسأل الباحث الشهير الآن أن يعطينا تقريره عن طريقتنا التقليدية في إصدار حكم الإعدام، والإجراءات التي يتم تنفيذها طبقا لها؟

هنالك سيرتفع بالطبع هتاف عال وموافقة شاملة، وسأكون أكثر الجميع

إصرارا، وسينحني لك القومندان، ويقول: إذن، باسم الحشد المجتمع أتقدم إليك بالسؤال! وستقدم الآن نحو مقدمة المقصورة، وستضع راحتك حيث يتسنى لكل فرد من الموجودين رؤيتها، أو ربما التقطتها السيدات، وضغظن على أصابعك، وأخيرا سوف يمكنك بعد ذلك أن تتحدث! لا يسعني أن أعرف كيف سيمكنني أن أحتمل التوتر انتظارا لتلك اللحظة، فلا تعمل حسابا لأي تحفظ عندما تسترسل في خطبتك، انشر الحقيقة جهرا، وانحنِ على مقدمة المقصورة، واهتفِ نعم، اهتفِ حقاً بقرارك، باعتقادك الراسخ في وجه القومندان! نعم، لعلك لن تفعل ذلك، فقد لا يتناسب فعله مع شخصيتك، وربما كان الناس في بلدك يفعلون أمثال تلك الأمور على نحو مختلف. حسناً، ليكن الأمر كذلك، فلسوف يكون لطريقتك هذه نفس الأثر أيضاً، فلا تقف حتى، بل قل بضع كلمات ولو همسا، بدرجة تسمح فقط للموظفين الجالسين تحتك بأن يسمعوها، وسيكون ذلك كافيا جدا، ولن تكون بحاجة حتى إلى أن تشير إلى افتقار الإعدام إلى مساندة الجماهير، ولا حتى العجلة التي تحدث صريرا أثناء دورانها، ولا السير المقطوع، ولا قطعة الفلين القذرة. لا، سأتكفل أنا بهذا كله، وصدقني لو لم تدفعه دعواي إلى خارج هذا المؤتمر، فلسوف تجبره على أن يركع على ركبتيه، لكي يقر بالعرفان: قومنداني السابق، إنني أتواضع أمامك! هذه هي خطتي، فهل تساعدني على تنفيذها؟ ولكنك راغب بالطبع في مساعدتي، وماذا يمكن أن يكون هنالك أكثر من هذا، إنه يتوجب عليك أن تساعدني! وأمسك الضابط بذراعي الرحالة، وحملق، متنفسا في وجهه بصعوبة. كان قد هتف بالجملة الأخيرة، بأعلى صوته، حتى لقد التفت الجندي والرجل

المحكوم عليه فزعين! لم يكونا قد فهمنا كلمة واحدة، إلا أنهما توقفا عن تناول حساء الأرز، وتطلعا نحو الرحالة، وهما يلوكان ما تناولا به.

ولم يكن لدى الرحالة أدنى شك حول الإجابة التي كان عليه أن يدلي بها، ففي خلال حياته كان قد مارس الكثير جدًّا من التجارب، حتى لم يكن ليتردد في مثل هذا الظرف، ولقد كان شريفاً في خصاله وشجاعاً، وإنه الآن - حتى وهو يواجه الجندي والرجل المحكوم عليه - قد تردد بالفعل لمدة طويلة، حتى استطاع أن يجذب أنفاسه أخيراً مع ذلك، وقال كما كان ينبغي له أن يقول: لا! فرمش الضابط بعينه عديداً من المرات، إلا أنه لم يحول عينيه. وتساءل الرحالة قائلاً: هل تحب أن أشرح لك لماذا؟ فأطرق الضابط، بلا صوت: لأنني لا أقر إجراءاتك هذه! حتى قبل أن تأخذني إلى مؤتمرك - إنني بالطبع، تحت أي ظرف من الظروف لن أخون ثقتك - كنت بالفعل أتساءل عما إذا كان من واجبي أن أتدخل، وعما إذا كان سيتاح لندخلي أدنى فرصة للنجاح. ولقد تحققت الآن ممن يجب على أن أقصده؛ القومندان بالطبع! ولقد أوضحت أنت هذه الحقيقة وضوحاً أشد، لكن دون أن تقوي من عزيمتي، بل على العكس، فإن اعتقادك المخلص قد أثر في نفسي على الرغم من أنه لم ينجح في أن يؤثر على عدالتي!

ظل الضابط صامتاً، واستدار نحو الآلة، وأمسك بقضيب نحاسي، ثم حدق، وهو ينحني قليلاً إلى الأمام في الرسام، كما لو كان ليتأكد بنفسه من أن كل شيء كان على ما يرام. وبدا الجندي والرجل المحكوم عليه بالإعدام، كما لو كانا قد أدركا بعض الإدراك! وكان الجندي مائلاً نحوه مchinاً إلى أسفل، وهمس الرجل بشيء ما، وأطرق الجندي.

وتبع الرحالة الضابط قائلاً: إنك لا تعرف بعد ما الذي أنوي أن أفعله، سوف أخبر القومندان دون شك برأيي، فيما يتعلق بتلك الإجراءات، لكن ليس في اجتماع عام، وإنما على حدة، كما أنني لن أبقى هنا طويلاً حتى أشهد أي مؤتمر، فسوف أرحل صباح الغد الباكر، أو سأصعد إلى ظهر سفيتتي على الأقل!

لم يكن يبدو على الضابط أنه كان يستمع، فقد قال مبتسماً، كما يتسم الرجل المسن من الهراء الصبياني، ولكنه يتعقب أفكاره الخاصة خلف ابتسامته: وهكذا، فأنت لم تقتنع بتلك الإجراءات؟

ثم أخيراً قال: إذن فقد حان الوقت!

وتطلع فجأة إلى الرحالة بعينين لامعتين، كانتا تحملان شيئاً من التحدي، وشيئاً من الدعوة إلى المعاونة.

تساءل الرحالة، في غير ارتياح: وقت ماذا؟

إلا أنه لم يتلق جواباً!

قال الضابط للرجل المحكوم عليه باللغة الوطنية: إنك حر! ولم يصدق الرجل ذلك في بداية الأمر، فقال الضابط: نعم، أنت مطلق السراح! وللمرة الأولى انتعش وجه الرجل المحكوم عليه انتعاشاً حقيقياً، فهل كان ذلك صحيحاً؟ هل كانت فقط مجرد نزوة من نزوات الضابط، ما تلبث أن تتغير ثانية؟ هل رجاء الزائر الأجنبي أن يطلق سراحه؟ وكيف تم له ذلك؟ كان من الممكن أن يقرأ المرء هذه التساؤلات على وجهه، لكن ليس لفترة طويلة، فمهما كان الأمر، فقد كان يريد أن يصبح حرّاً بالفعل لو كان ذلك

ممكنا، وبدأ يصارع، بقدر ما كان المشط يسمح له بالصراع!

وصاح الضابط قائلاً: إنك تمزق سيوري، ابق كما أنت، فسوف نفكها حالا، وشرع في فكها، مشيراً إلى الجندي، ليعاونه. وضحك الرجل المحكوم عليه، في صمت بينه وبين نفسه، وأدار وجهه مرة إلى اليسار نحو الضابط، وأخرى إلى اليمين نحو الجندي، كما أنه لم ينس أن يتطلع إلى الرحالة!

أصدر الضابط أمره قائلاً: اسحبه خارجاً! فبسبب المشط كان لا بد لذلك من أن يتم بشيء من العناية، وكان الرجل قد خلص نفسه إلى حد ما من الخلف لفراغ صبره.

ومع ذلك، فلم يلق الضابط إليه أدنى اهتمام منذ تلك اللحظة، ومضى نحو الرحالة، وسحب المحفظة الجلدية الصغيرة مرة أخرى، وأخرج الأوراق التي بداخلها، وعثر على الورقة التي كان يريدھا وعرضها على الرحالة، قائلاً: أقرأها؟

قال الرحالة: لا أستطيع، لقد ذكرت لك من قبل أنني لا أستطيع تفسير تلك النقوش!

قال الضابط وهو يقترّب جدّاً من الرحالة حتى يتمكن من تفسيرها معاً: حاول أن تنظر إليها نظرة متفحصة!

وعندما بدا أن لا جدوى من ذلك، مر الضابط على النقش بإصبعه الصغير، رافعا إصبعه عالياً فوق الورقة، كما لو كان السطح غير قابل للتلوّث باللمس؛ لكي يتيح للرحالة أن يتتبع النص على ذلك النحو. وبذل

الرحالة جهداً، متكلفاً إرضاء الضابط في هذا المطلب على الأقل، إلا أنه كان عاجزاً تماماً عن تتبع تلك النقوش. وبدأ الضابط أخيراً في تهجي الحروف حرفاً حرفاً، ثم بعد ذلك قرأ الكلمات: كن عادلاً! قائلاً: هذا ما هو مكتوب هنا، ويمكنك بلا شك أن تقرأها الآن! ومال الرحالة جداً على الورقة، حتى خشى الضابط أن يلمسها، وسحبها بعيداً عنه، ولم يلاحظ الرحالة ذلك، لكن كان واضحاً أنه كان لا يزال عاجزاً عن فك رموزها.

قال الضابط مرة أخرى: كن عادلاً! هذا ما هو مكتوب عليها!

ورد الرحالة: ربما أكون على استعداد لتصديقك!

قال الضابط: حسناً إذن! راضياً بعض الرضا على الأقل، وارتقى السلم صاعداً بالورقة إلى أعلى، وبناية وضعها في داخل الرسام، وبدأ كما لو كان يعدل من وضع كل التروس، ولقد كان عملاً مرهقاً، وكان لا بد له من ربط كل العجلات بالغة الصغر. واختفت تماماً رأس الضابط لبعض الوقت في داخل الرسام. كان عليه أن يضبط الآلة بغاية الدقة. وأرهقت عيناه من سطوع الشمس في السماء، وكان الجندي والرجل المحكوم عليه مشغولين معاً الآن، وكان قد تم اصطيد بنطلون الرجل وسرواله اللذين كانا قد ألقيا داخل القبر وسط الماء والدم بطرف حربة بندقية الجندي. كان السروال قدراً بصورة بشعة، وغسله الرجل في الدلو الممتلئ بالماء، وعندما ارتدى السروال والبنطلون أخيراً، لم يتمكن من منع نفسه هو أو الجندي من القهقهة، ذلك أن الملابس كانت بالطبع مشقوقة من الخلف. ولعل الرجل المحكوم عليه قد أحس بأنه يتعين عليه أن يسلي الجندي، فاستدار حول نفسه، واستدار بملابسه الممزقة، وألقى الجندي فوق

الأرض ضارباً ركبتيه في ابتهاج، ولكنهما سرعان ما وضعاً حداً لابتهاجهما بدافع من الاحترام للسيدتين.

وعندما فرغ الضابط من مهمته في الأعلى، نظر إلى الآلة في جملتها مرة أخرى بابتسامة، لكنه أغلق الرسام هذه المرة، ذلك الغطاء الذي كان قد بقى مفتوحاً حتى الآن، وهبط إلى أسفل، ونظر داخل القبر، معلقاً على استرداد الملابس من داخل القبر في رضا، ثم مضى نحو دلو الماء؛ لكي يغسل يديه، مدرّكاً بعد فوات الوقت أن الماء كان قدراً بصورة تبعث على القرف، ولم يكن راضياً؛ لأنه لم يتمكن من أن يغسل يديه، وفي النهاية دسهما في قلب الرمال - هذا الحل لم يرضه، لكن كان عليه أن يقنع به - ثم وقف معتدلاً، وبدأ يفك أزرار سترته الرسمية.

وعندما فعل ذلك، سقط المنديلان النسائيان اللذان كان قد دسهما خلف ياقة قميصه، سقطا في يديه. قال: ها هي مناديلك! وقذفهما نحو الرجل، واتجه نحو الرحالة مفسراً: هدية من السيدات!

وعلى الرغم من السرعة الزائدة التي كان ينزع بها سترته الرسمية، ثم ملابسه كلها بعد ذلك، فقد أمسك بكل قطعة منها بعناية فائقة، وتحسس بأصابعه زركشتها الفضية، تلك الزركشة التي كانت تزين السترة، ورتب الشوشة كما كانت. كانت عنايته الزائدة الوالهة هذه ترجع بلا شك إلى حقيقة أنه كان يتعين، بمجرد أن ينتهي من خلع كل قطعة من ملابسه، أن يطوح بها فوراً إلى داخل القبر، وقد مثل بنوع من الاندفاع المتردد. وكان قد تبقى شيء أخير هو سيفه وحزامه، وقد سحب السيف من داخل غمده وكسره، ثم طوح بقطع السيف وبالحزام والغمدة جميعاً، بغاية العنف إلى

القبر، حتى لقد انبعثت أصوات صلصلتها من داخله.

ووقف عارياً هناك في نهاية الأمر، وعض الرحالة شفتيه، ولم يقل شيئاً؛ فقد أدرك على وجه الدقة ما سيحدث بعد ذلك، إلا أنه لم يكن له حق منع الضابط من أن يفعل أي شيء يراه. فلو كانت الإجراءات القانونية التي تعهدها الضابط، تسير حقاً إلى نهايتها على هذا النحو - كنتيجة حقاً لتدخل الرحالة، الذي أحس باضطرابه إلى ذلك - فلقد كان الضابط إذن مصيباً فيما يفعله، وفي مكانه لم يكن الرحالة ليفعل شيئاً آخر سوى ذلك.

لم يفهم الجندي ولا الرجل المدان شيئاً مما كان يحدث في البداية، ولم يكونا حتى مشغولين بأدنى محاولة لفهم ما كان يجري حولهما. وكان الرجل المدان فرحاً لاستعادته المناديل، إلا أنه لم يكن مسموحاً له بالاحتفاظ بهما طويلاً؛ لأن الجندي قد اختطفهما فجأة، وعلى غير توقع. وكان الرجل يحاول بدوره أن يختطفهما من تحت الحزام، حيث دسهما الجندي، إلا أن الجندي كان متيقظاً لمحاولته. وهكذا كانا قد انهكما في الصراع على سبيل المزاح. ولم يجتذب انتباههما سوى وقوف الضابط عارياً تماماً. وقد صدمت الرجل المحكوم عليه بالإعدام بصفة خاصة فكرة أن تغيرا حاسماً في المصائر كان وشيك الوقوع. فما حدث له كان في طريقه لأن يمر بالضابط هو أيضاً، ربما حتى نهاية النهاية. ويبدو أن الزائر الأجنبي قد أمر بهذا. وعلى هذا فقد كان ذلك انتقاماً، مع أنه شخصياً لم يعان التجربة حتى النهاية، وارتسمت ضحكة سخرية عريضة صامتة على وجهه، وظلت مرسومة على وجهه طوال ما تبقى من الوقت.

ومع ذلك فقد استدار الضابط نحو الآلة. ولقد كان واضحاً من قبل

بدرجة كافية، أنه كان يفهم جيدا كيف يدير الآلة، لكنه كان يبعث الآن على الدهشة، عند رؤيته وهو يديرها، ورؤية إلى أي حد كانت الآلة تنقاد لإدارته، كان على يده فقط أن تقترب فحسب من المشط حتى يرتفع وينخفض عديدا من المرات، إلى أن يتخذ وضعه الصحيح لاستقبال الضابط، ولقد لمس فقط حافة الفراش، وسرعان ما تذبذب هذا من فوره، وجاءت قطعة الفلين لتقابل فمه، وكان في إمكان المرء أن يرى أن الضابط كان رافضا بالفعل أن يتلعها، تفادها فقط للحظة، ولكنه سرعان ما رضح وابتلعها. وكان كل شيء جاهزاً، فقط كانت السيور ملقاة إلى أسفل من كل الجوانب، لم تكن ثمة حاجة إليها بالفعل، ولم يكن الضابط في حاجة إلى أن يقيد، ثم لاحظ الرجل المحكوم عليه السيور المفكوكة، ولم يكن الإعدام مستكملاً في رأيه لشروط وقوعه، ما دامت بكالات أبزيمات السيور غير مشبوكة، ولقد أوماً بهمة للجندي، وأسرعاً معاً لكي يقيدا الضابط بالسيور، وكان الأخير قد مدد إحدى قدميه لكي يدفع بها الذراع التي حركت الرسام، ورأى الرجلين قادمين نحوه، فسحب قدمه إلى الخلف، واستسلم للقيود، إلا أنه لم يعد يمكنه أن يبلغ الذراع الآن، ولا كان الجندي أو الرجل المحكوم عليه قادرين على تمييزها، وكان الرحالة قد انتوى ألا يحرك ساكناً. لم يكن ضرورياً دفع الذراع، فما إن تم شد القيود، حتى بدأت الآلة في العمل، وتذبذب الفراش، وخفقت الإبر فوق الجلد، وارتفع المشط، وهبط. وكان الرحالة يحرق فيه لفترة قبل أن يتذكر أن ثمة عجلة من عجلات الرسام كان لا بد لها أن تحدث صريراً، إلا أن كل شيء ظل هادئاً، ولم يكن في الإمكان سماع أقل همهمة. وكان انتباههم قد انصرف عن الآلة؛ لأنها ببساطة كانت تعمل على

ذلك النحو الصامت، ولاحظ الرحالة وجود الجندي والرجل المحكوم عليه، وكان الأخير أكثر انتعاشا، فقد كان كل شيء في الآلة يستحوذ على اهتمامه، وكان منحيا الآن إلى أسفل، ومشربا في حين آخر، فوق أطراف أصابعه، وكانت سبابته ممدودة طوال الوقت، يشير بها للجندي إلى التفاصيل. ولقد تبرم الرحالة بذلك، كان قد عزم على البقاء حتى النهاية، إلا أنه لم يكن يحتمل رؤية هذين الشخصين، قال لهما: انصرفا إلى بيوتكما! وتقبل الجندي ذلك الأمر راضيا غاية الرضا، لكن الرجل المحكوم عليه تلقاه وكأنه عقوبة، وتوسل بيديه المتعانقتين طالبا السماح له بالبقاء، وعندما هز الرحالة رأسه رافضا، خرّ الرجل راكعا على ركبتيه.

ورأى الرحالة أنه لم يكن ثمة فائدة من مجرد إطلاق الأوامر، وكان على وشك أن يتجه نحوهما، ويدفعهما بعيدا، وسمع في تلك اللحظة ضوضاء منبعثة من الرسام فوق رأسه، فتطلع إلى أعلى، هل كان ذلك الترس بسبيله مرة أخرى إلى إثارة الضجيج؟، إلا أن الأمر كان أمرا مختلفا تمام الاختلاف، وبيبطء ارتفع غطاء الرسام، ثم سقط مفتوحا على آخره، وظهرت أسنان الترس، وارتفعت أكثر، وسرعان ما ظهرت العجلة بأكملها، بدا كما لو كانت ثمة قوة هائلة تعتصر الرسام، حتى لم يعد هناك مكان للعجلة، فتحركت إلى أعلى، حتى بلغت حافة الرسام وسقطت إلى أسفل، وتدحرجت فوق الرمال قليلا فوق حافتها، ثم ارتمت على سطحها، وكانت العجلة الثانية ترتفع للتو بدورها حينذاك، يتبعها العديد من العجلات المسننة كبيرة وصغيرة، وفي لحظة لا يمكن تقديرها تدحرجت جميعا على نفس النحو، وكان المرء يتصور بعد كل لحظة

أن الرسام سيفرغ، إلا أن مجموعة أخرى من العجلات التي لا حصر لها كانت سرعان ما تظهر، وتسقط على الأرض، وتتدحرج فوق الرمال، ثم ترتمي. وجعلت هذه الظاهرة الرجل المحكوم عليه ينسى تمامًا الأمر الذي وجهه إليه الرحالة بالانصراف، فلقد سحرته العجلات ذات التروس، وكان يحاول في إصرار أن يمسك بإحداها، ويسأل الجندي في الوقت نفسه، أن يعاونه في الإمساك بإحداها، لكنه كان يسحب يده دائمًا في انزعاج، ذلك أن عجلة أخرى كانت تأتي دائمًا على الأقل في بداية تدحرجها.

وكان الرحالة من ناحية أخرى قد أحس باضطراب شديد، كانت الآلة تتفكك في وضوح إلى أجزاء صغيرة، ولقد كان عملها في صمت مجرد خدعة، وخامره شعور بأن عليه أن يقف الآن إلى جوار الضابط، في الوقت الذي لم يعد قادرا فيه الآن على أن يُعنى بأمر نفسه، لكن بينما ابتلعت العجلات ذات التروس المتواترة كل اهتمامه، كان قد نسي أن يتنبه إلى بقية الآلة، وأصيب أخيرًا بدهشة بالغة، دهشة لا تبعث على الرضا مع ذلك، فحين كانت آخر عجلة قد غادرت الرسام، كان الرحالة قد انحنى على المشط، ف اكتشف أنه لم يكن يقوم بالكتابة، وإنما كان يطعن، ولم يكن الفراش يدير الجسم حول نفسه، لكن فقط يرفعه إلى أعلى مرتعشا ملاصقا للإبر. ولقد أراد الرحالة أن يفعل شيئًا، لو أمكنه أن يفعل، لإيقاف الآلة؛ لأن ما كان يحدث لم يكن تعذيبا رائعا كما أراده الضابط، وإنما كان قتلا صريحا، ومد يديه، إلا أن المشط ارتفع في تلك اللحظة حاملا الجسم مغروزا في أسنانه، وتحرك إلى أحد الجوانب كما تفعل الآلة فقط عندما تحل الساعة الثانية عشرة، وكان الدم يتدفق في مئات الجداول، ولا يمتزج

بالماء، كما أن أنابيب الماء قد تعطلت هي أيضا. وتعطل وقوع آخر مرحلة من مراحل العمل، فلم يسقط الجسم المغروز في الإبر الطويلة، وظل معلقا شاخبا خيوط الدم فوق القبر، دون أن يسقط في داخله. وحاول المشط أن يتحرك راجعا إلى الخلف إلى مكانه السابق، لكنه ظل ثابتا في مكانه فوق القبر، كما لو كان قد لاحظ أنه لم يتخلص بعد من حملة، وصاح الرحالة في الشخصين الآخرين: تقدما بالمساعدة! وأمسك هو بقدمي الضابط، بينما أمسك الآخران بالرأس من الجانب المقابل وهكذا، فربما أمكن تلخيص الضابط من الإبر. إلا أن الشخصين الآخرين لم يتمكنوا من أن يواصلوا العمل، بل لقد استدار الرجل المحكوم عليه مبتعدا بالفعل، وكان على الرحالة أن يذهب خلفهما، ويجبرهما على التقدم إلى حيث تتعلق رأس الضابط. وكان عليه هنا- على الرغم منه- أن ينظر إلى وجه الجثة. كانت الرأس كما كانت أثناء حياته، لم تكن ثمة علامة هناك للداء الموعود، ولم يجد الضابط في الآلة ما وجده فيها الآخرون، كانت الشفتان مضمومتين إلى بعضهما، وكانت العينان مفتوحتين بنفس التعبير الذي كانتا تتخذانه أثناء حياته، وكانت نظراتهما هادئة وراضية، وخلال الجبهة كان الثقب الذي أحدثته الشوكة الحديدية الهائلة.

وعندما بلغ الرحالة مع الجندي والرجل المحكوم عليه أول بيوت المستعمرة، أشار الجندي إلى أحدهم، قائلا: ها هو مشرب الشاي!

وفى فناء البيت كانت هناك مساحة عميقة منخفضة كهضبة، وكانت حوائطها وسقفها قد سوده الدخان، وكانت مفتوحة على امتداد طولها. ورغم أن هذا المقهى كان مختلفا اختلافا قليلاً جداً عن البيوت الأخرى في

المستعمرة التي كانت جميعها خرائب متهدمة، حتى تبلغ مبنى القومندان الشاهق، إلا أنه قد عكس انطبعا بتراث تاريخي من طراز ما على ذهن الرحالة، الذي أحس بقوة أثر الماضي، واقترب من المقهى، يتبعه رفيقه، صاعدا وسط المناضد الخالية التي كانت تقف في الطريق أمام المقهى، وتنفس الهواء البارد الثقيل الذي يأتي من الداخل. قال الجندي: لقد دفن هنا الرجل العجوز، فلم يسمح له القسيس بالرقاد في ساحة الكنيسة! احتار الناس في المكان الذي يمكنهم أن يدفنوه فيه مؤقتا، وفي النهاية دفنوه هنا، إن الضابط لم يخبرك بذلك؛ لأنه بالطبع كان يخجل من ذلك على الأغلب، ولقد حاول عددا من الممرات أن يستخرج جثة الرجل العجوز ليلا، إلا أنه كان يُطرد دائما، ويحال بينه وبين ذلك!

تساءل الرحالة قائلا: أين هو القبر؟ وكان قد أحس بأنه يستحيل عليه تصديق الجندي. وهرول أمامه كلا الرجلين في التو، مشيرين بأيديهما الممدودة نحو القبر. اقتادا الرحالة إلى الأمام - نحو الجدار الخلفي، حيث كان يجلس بعض الضيوف - إلى عدد من الموائد القليلة، وكان هؤلاء على ما يبدو بعض عمال الميناء، رجال أقوياء، بلحي قصيرة كثيفة متألقة. ولم يكن فوق جسد أحدهم سترة، كما كانت سراويلهم جميعا ممزقة، كانوا مجرد مخلوقات بائسة، متواضعة! وعندما اقترب الرحالة، وقف بعضهم ملتصقين بالحائط، وحملقوا فيه: إنه أجنبي! سرت همسة حوله: إنه يريد أن يرى القبر! ودفعوا إحدى الموائد جانبا، وتحتها كان يوجد بالفعل شاهد قبر. وكانت ثمة نقوش قد حفرت فوق سطحه، في حروف صغيرة جدًا، وكان على الرحالة أن يركع على ركبتيه، لكي يقرأها. وهذا ما كانت تقوله:

هنا يستريح القومندان القديم، إن أنصاره، الذين لا ينبغي أن تكون لهم الآن أسماء، قد حفروا هذا القبر، ووضعوا ذلك الحجر، وتوجد ثمة نبوءة، تتنبأ بنهوض القومندان ثانية بعد عدد من السنوات، ليقود أنصاره من هذا المنزل، لاسترجاع المستعمرة، اعتنق ذلك، وانتظر!

عندما قرأ الرحالة تلك الكلمات، ونهض قائما على قدميه، رأى المتفرجين الذين يقفون من حوله يتسمون جميعا، كما لو كانوا قد فرغوا هم أيضًا معه من قراءة النبوءة، ووجدوها مضحكة، وكانوا يتوقعون منه أن يوافقهم على ذلك. وتجاهل الرحالة ابتسامتهم، ووزع عليهم بضع قطع قليلة من العملة، وانتظر حتى انسحبت المائدة ثانية فوق القبر، فغادر مشرب الشاي، واتجه نحو الميناء.

وكان الجندي والرجل قد عثرا على بعض معارفهما في المقهى، وقد احتجزهما هؤلاء، إلا أنه كان لا بد لهما من التخلص من هؤلاء المعارف، فلقد كان الرحالة إذ ذاك في منتصف السلم، يهبط الدرجات الطويلة المؤدية إلى القوارب، عندما بلغه كلاهما مندفعين خلفه، ولعلهما أرادا أن يورطاه في اصطحابه لهما في اللحظة الأخيرة، وبينما كان يقوم بمساومة صاحب المعدية؛ لكي يجذف به من الشاطئ إلى الباخرة، كان الاثنان قد أسرعوا، فهبطا الدرجات في صمت؛ لأنهما لم يجرؤا على الصياح. لكن الرحالة كان قد أصبح داخل القارب، في اللحظة التي بلغا فيها أسفل الدرج، وكان المعداوي، قد ابتعد بالفعل عن الشاطئ لحظتها، وكان في إمكانهما أن يقفزا إلى داخل القارب، إلا أن الرحالة رفع جبلاً ثقيلاً معقوداً من أرضية القارب، وهددهما به.. وهكذا منعهما من محاولة القفز داخل القارب.

الدودة الهائلة

هؤلاء الذين يعتبرون حتى الدودة الصغيرة عادية الحجم مقرفة، و- أنا واحد منهم- قد يموتون من شدة القرف، لو أنهم شاهدوا تلك الدودة الضخمة التي وجدت منذ سنوات قليلة بالقرب من إحدى قرانا، والتي اكتسبت- لوقت ما- شهرة خاصة بسبب ذلك الحادث. ولقد هوى الآن ذلك الحادث- مرة أخرى- منذ ذلك الحين إلى زوايا النسيان، وقد بدأ نسيانه هذا غامضًا، بنفس الدرجة من الغموض الذي يبدو بها الحادث في جملته، ذلك الحادث الذي بقي بلا أي تفسير، والذي لم يتجشم الناس أيضًا في الوقت نفسه- ويجب أن نعترف بذلك- كثيرًا من الجهد في تفسيره. وهكذا، وكنتيجة لعدم مبالاة غير مفهومة، في مثل تلك الأوساط بالذات، تلك الأوساط التي كان عليها أن تهتم بذلك الحدث، والتي سبق لها أن اهتمت من قبل- في الحقيقة- اهتمامًا حارًا بأمور أشد تفاهة من ذلك الأمر، فقد أهملت المسألة قبل أن تُبحث بحثًا كافيًا. وأيا كانت الظروف، فإنه ليس أماننا أن نلتمس أيا من الأعذار، لحقيقة أن الطريق العام لم يكن يوصل إلى القرية.. ذلك أن كثير من الناس كانوا قد حضروا من مسافات بعيدة لغاية بدافع من الفضول الخالص، حتى أن بعض الأجانب كانوا قد

حضرُوا بينهم أيضًا. ولم يكن قد امتنع عن الحضور سوى هؤلاء الذين كانوا سيكشفون عن شيء آخر أكثر من مجرد الفضول، وفي الحقيقة لو أن قليلاً من الناس البسطاء جداً، الناس الذين لا يترك لهم عملهم اليومي لحظة من الفراغ إلا بصعوبة، لو أن هؤلاء الناس لم يتناولوا الأمر بكل تلك الموضوعية التي تناولوه بها، فلعل الشائعة التي تناولت تلك الظاهرة الطبيعية ما كانت لتنتشر، وتتجاوز الحدود المحلية. حقاً إن الشائعة - التي لا يمكن تقييدها عادة - كانت بطيئة الانتشار بالفعل في تلك الحالة، ولو أنها لم تكن قد تلقت دفعة - بالمعنى الحرفي للكلمة - فإنها ما كانت انتشرت. إلا أنه حتى ذلك لم يكن سبباً مشروعاً لرفض التساؤل حول المسألة.

بل إن هذه الظاهرة الثانية، كانت على العكس من ذلك جديرة بأن تبحث هي أيضاً، لكنهم بدلاً من ذلك تركوا مُدرّس القرية العجوز ليكتب الوصف الوحيد للحادث باختصار، ومع أنه كان رجلاً ممتازاً في مهنته الخاصة، إلا أن إمكانياته، واستعداده كذلك جعلاً من المستحيل بالنسبة له أن يعد وصفاً منفصلاً يمكن أن يستخدمه الآخرون كقاعدة. وإنما كان تقريره والحال كذلك، ليس سوى شرح جاف للحادث. ولقد طبع كتيبه، وبيعت منه بضع نسخ قليلة لزوار القرية في ذلك الحين، كما حققت كذلك بعض الانتشار العام، إلا أن المدرس كان واعياً بشكل كاف لأن يدرك أن جهوده الفردية تلك - التي لم يعاونه فيها أحد - كانت في جوهرها غير ذات قيمة. إلا أنه - على الرغم من ذلك - لو لم يكن قد ركن إلى الاكتفاء من الأمر بذلك الجهد فقط، بل جعله هدف حياته كلها، حتى ولو كان الأمر قد

أصبح عاما بعد آخر - وهذا شيء طبيعي - أمرا لا جدوى منه، فإن ذلك كان سيثبت وحده أولا كم كان قويا ذلك الأثر الذي كان ظهور الدودة الهائلة كفيلا بإحداثه، وكم من الجهود الشاقة، وإلى أي مدى من الإخلاص للعقيدة يمكن أن تتكشف عنه شخصية مدرس ريفي عجوز مغمور. إلا أن معاناته الأليمة من موقف اللامبالاة الذي اتخذته السلطات المعترف بها تجاهه، وقد أثبتتها نبذة موجزة، كان قد أتبعها بكتيبه بعد انقضاء عدة سنوات، في وقت لم يكن في استطاعة أي شخص فيه أن يتذكر سوى بصعوبة بالغة أصل الموضوع الذي كانت تناوله النبذة أساسا. لقد شكّا في تلك النبذة من الافتقار إلى الفهم الذي لمسّه في أناس يتواجدون - على الأقل - حيث لا يتوقع المرء أن يلمس منهم ذلك! شكاوى، لم تفلح براعته في التعبير عنها، في أن تسند عنصر الأمانة الذي كان قد أمعن في الغياب، حتى قامت الإدانة في مكانه. فلقد كتب عن أمثال هؤلاء محددا كلامه بدقة شديدة، قائلا: لم أكن أنا، بل لقد كانوا هم الذين تحدثوا بطريقة مدرسي القرى العجائز، ولقد أورد حتى - ضمن بضعة أشياء أخرى - طريقة نطق أحد الباحثين الذين كان قد توجه إليهم معربا عن مهمته. لم يذكر اسم الباحث، إلا أنه كان باستطاعتنا أن نستشف شخصيته من خلال عديد من الملابسات، وبعد أن تمكن المدرس من أن يظفر - بصعوبة بالغة - بالموافقة، كان قد أدرك للوهلة الأولى من نفس أسلوب التحية التي تلقاها أن ذلك الباحث كان قد اكتسب في الوقت نفسه حجة راسخة ضد مهمته، ذلك أن الشرود الذي كان قد استولى عليه - بينما كان يستمع إلى ذلك التقرير الطويل الذي قرأه عليه المدرس من الكتيب الذي كان في

يده- كان من الممكن إدراك مداه من خلال ملاحظته عندما قال، بعد لحظة تأمل مفتعلة: إن التربة المحيطة بكم، تربة سوداء بصفة خاصة، وغنية، ولهذا فهي تمد الديدان بتغذية دسمة، وعلى هذا ففي وسعها أن تنمو إلى حجم غير عادي.

فعقب المدرس قائلاً في دهشة وهو يحدد ياردتين على الحائط، مبالغاً إلى حد ما بسبب انفعاله، في طول الدودة: لكن ليس إلى حجم بهذه الصورة!

وأجابه الباحث، الذي كان يبدو عليه في وضوح أنه كان ينظر إلى الأمر كله على أنه نكتة واسعة: ولماذا لا تبلغه؟!

وكان على المدرس أن يعود بعد هذا الحكم إلى منزله، ولقد روى كيف كانت زوجته تنتظر هي وأطفاله الستة تحت الثلج، على جانب الطريق، وكيف كان عليه أن ينهي إليهم خبر الانهيار التام لكل آماله.

وعندما قرأت عن موقف الباحث تجاه الرجل العجوز، لم أكن بعد قد اطلعت على الكتيب الذي كان المدرس قد أصدره، إلا أنني أبحث لنفسي على الفور القيام بجمع ومقارنة كل المعلومات التي رأيت أنها تتعلق بالقضية. فإذا لم يكن في مقدوري أن أستخدم القوة الجسدية ضد الباحث، ففي مقدوري على الأقل أن أكتب دفاعاً عن المدرس، أو بدقة أكثر عن النوايا الطيبة لرجل أمين، لكنه غير ذي نفوذ، وأقر بأنني قد ندمت على هذا القرار فيما بعد، ذلك أنني أدركت على الفور أن تنفيذه كان كفيلاً بأن يضعني في مأزق غريب للغاية، فنفوذ الشخص من ناحية، لم يكن كافياً أبداً لإحداث أي أثر للتغيير في الرأي العام، لا في أوساط المتعلمين، ولا

حتى في الأوساط العامة، حتى يقف إلى جانب المدرس، بينما كان هناك من الناحية الأخرى، احتمال أن ينبري المدرس موضحاً أن التفهم التام لجوهر موضوعه يعوزني، وأن على أن أثبت أن الدودة الهائلة قد شوهدت بالفعل قبل أن أقف للدفاع عن أمانته، التي لا بد بالطبع ستوضح له شخصياً، ولا تكون ثمة حاجة بها حينئذ إلى أي دفاع. وتبعاً لذلك، فهذا هو ما كان مقدراً له أن يحدث: كان المدرس سيسيء فهمي على الرغم من أنني ما كنت أريد سوى معاونته، وبدلاً من أن أقوم بمعاونته، ربما أصبحت أنا نفسي حينئذ في حاجة إلى المعونة التي يبدو أن أحداً لن يهتم بتقديمها إليّ. وعلاوة على ذلك، فإن قراري ذاك كان سيضع فوق كاهلي أعباء ثقيلة من العمل، فإذا كنت أردت أن أقنع الناس، فقد كان في غير استطاعتي استدعاء المدرس، بما أنه لم يكن قادراً هو نفسه على إقناعهم. كما أن قراءة كتيبه لم تكن لتقدم لي سوى مزيد من التخبط، وعلى هذا فقد امتنعت عن قراءته حتى يتاح لي أن أفرغ من القيام بجهودِي الخاصة. وبالإضافة إلى ذلك كله، فإنني لم أتصل حتى بالمدرس نفسه، وحقيقة لقد سمع عن تحرياتي عن طريق الوسطاء، إلا أنه لم يكن يعرف ما إذا كنت سأستخدم معلوماتي تلك معه أو ضده. وربما كان - في الواقع - قد ركن إلى الاحتمال الأخير على الرغم من أنه قد أنكر ذلك فيما بعد، ذلك أن لديّ ما يثبت حقيقة أنه قد وضع في طريقي عديداً من العراقيل. كان من الطبيعي جداً بالنسبة له أن يفعل ذلك؛ لأنني بالطبع سأكون مضطراً إلى أن أنقل عنه ثمانية كل التحريات التي كان قد قام هو بها أخيراً، وبهذا يكون في وسعه دائماً أن يختلس خطوة نحوي. كانت تلك هي العقبة الوحيدة التي كان يمكنها أن تقوم في مواجهة

طريقتي في العمل. طريقة التناول غير المنحاز، الذي كان الحذر وإنكار الذات، واللذان كنت قد خططت بهما استنتاجاتي - بالإضافة إلى ذلك - قد قاما دائماً بتوجيهها. أما فيما عدا ذلك، فقد كان للكتيب الذي أنجزته تأثيراً بالغاً على المدرس، وفوق هذه النقطة، ربما كانت تنصب كل تلك الريبة الهائلة التي كنت قد أبديتها، وربما كان في مقدور المرء أن يشتد من كلماتي أنه ليس ثمة من اضطلع ببحث تلك الحالة من قبل أبداً، وأنني كنت أول من استجوب هؤلاء الذين كانوا شاهدوا الدودة أو سمعوا بها، وأنني كنت أول من اهتم بتلك الظاهرة، وأول من خرج منها باستنتاجات، وعندما قرأت أخيراً كتيب المدرس، وقد كان له عنوان وقتي [دودة أكبر في الحجم من كل ما سبق رؤيته من قبل من الديدان]، اكتشفت أننا لم نكن متفقين بالفعل على بضع نقاط معينة مهمة، رغم أننا كلانا كنا قد اعتقد بأننا قد أثبتنا أهم النقاط جميعاً، وهي على وجه التحديد، وجود الدودة! وقد منعت هذه الاختلافات قيام علاقات الصداقة التي كنت أنطلع إلى عقدها مع المدرس على الرغم من كل شيء. فمن ناحيته، كانت ثمة أحاسيس عداوية قد نمت، حقاً لقد كان بسيطاً ومتواضعاً في تحركه نحوي، إلا أن هذا نفسه هو ما جعل أحاسيسه الحقيقية أكثر وضوحاً، أو أنه بمعنى آخر كان يعتقد أنني لم أفعل فقط سوى أنني قمت بإنكار فضله، وأن اعتقادي بأنني قد قمت، أو بأنني سوف أقوم بمعاونته، كان واضحاً بما يكفي. إلا أنه وضوح يبدو كما لو كان افتراضاً أو خدعة، ولقد كان ولوعاً بصفة خاصة بقوله إن كل أعدائه السابقين قد مارسوا عداؤهم، إما بأن أضمره له، أو أذاعوه سراً، أو أعلنوه في الأغلب عن طريق اللسان، بينما قد رأيت أنا أنه

من الضروري أن أقوم مباشرة بنشر انتقاداتي. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان معارضوه القلائل الذين كانوا قد شغلوا أنفسهم جدياً بالأمر، قد استمعوا على الأقل - ولو باستعلاء - إليه، إلى وجهة نظر المدرس، قبل أن يعبروا عن وجهة نظرهم، بينما قمت أنا تحت وطأة الربط بلا منهج، ولأنني أسأت فهم الموضوع على نحو ما، بنشر استنتاجات، حتى لو أنها كانت صحيحة من حيث ارتباطها بالنقطة الرئيسية، فلا بد أنها كانت تبعث على الريبة في أوساط العامة، بدرجة لا تقل عما تحدثه بين المتعلمين. إلا أن أقل إشارة قد توحى بأن وجود الدودة لم يكن أهلاً للتصديق. كانت من أشد ما قد ينتهي إليه الأمر سوءاً في مثل هذه الحالة.

ويمكنني بسهولة أن أجد رداً على هذه الاتهامات المخفية تحت الأتعة كما كانت تبدو بأن كتيبه - مثلاً - قد بلغ ذروة اللامعقول، ومع ذلك فقد كانت مواجهتي لريبته أقل من ذلك سهولة، وكان هذا هو السبب في أنني كنت متحفظاً للغاية في علاقتي به، ذلك أنه كان مقتنعاً في قرارة نفسه بأنني قد انتويت أن أسطو على شهرته باعتباره يقوم على المستوى العام بتفسير وجود الدودة رغم أنه لا يتمتع الآن - بالطبع - بأية شهرة، فيما عدا سمعة سيئة للغاية، كانت تتزايد كل يوم أكثر فأكثر ولم تكن لديّ بالتأكيد أية رغبة في مزاحمته في مثل تلك السمعة، وبالإضافة إلى ذلك فقد كنت قد أعلنت في مقدمة كتيبي بوضوح أنه يجب ألا يغيب عن الأذهان في أي وقت من الأوقات أن المدرس هو مكتشف الدودة، ولم يكن هو حتى من اكتشافها، وأن تعاطفي مع حظه السيئ هو وحده ما حفزني على أن أكتب قائلاً: إن ذلك هو هدف هذا الكتيب. وهكذا أنهيت الأمر كله نهاية ميلودرامية،

إلا أنها كانت تتفق مع أحاسيسي في ذلك الوقت؛ لكي أساهم في إعطاء كتيب المدرس الشعبية الواسعة التي يستحقها، فلو أتيح لي أن أنجح في هذا المسعى، فلعل اسمي الذي اعتبره شيئاً عارضا وشريكا من الباطن في هذا الموضوع أن يسقط عندئذ في الحال. وعلى هذا، فقد أنكرت في وضوح وجود أية مشاركة جوهرية لي في الأمر، ولقد بدا لي ذلك كله كما لو أنني كنت قد تنبأت على نحو ما باتهامات المدرس التي لا تصدق، على الرغم من أنه قد وجد في تلك الفقرة بالذات ما يستخدمه ضدي. ولست أنكر أنه قد كان هناك وجه شاحب للعدل فيما قاله، أو حتى فيما أُلْمِح إليه. ولقد كنت حقاً - في أغلب الأحيان - أفاجأُ بحقيقة أنه قد كشف غالباً، فيما كنت أبحثه من نقاط عن نفاذ أشد عمقا مما أثبتته في كتيبه، ذلك أنه قد أصر على أن مقدمتي كانت ذات وجهين، فلو أنني كنت مهتما فقط حقاً بالعمل على إشاعة كتيبه، فلماذا لم أقصر اهتمامي عليه وعلى كتيبه، ولماذا لم أستخلص مآثر الكتيب وتكامله؟ ولماذا لم أوجه جهدي إلى التركيز على خطورة الاكتشاف، وتوضيحها؟ ولماذا اهتمت بالإلمام بتفاصيل الاكتشاف نفسه، بينما تجاهلت الكتيب تماماً؟! ألم يكن الاكتشاف قد تم بالفعل؟ هل كان لا يزال هناك شيء قد تبقى للقيام به في هذا الشأن؟ إلا أنه لو كان قد خيل إلى حقيقة أنه كان ضرورياً لي أن أقوم بالاكتشاف كله ثانية. فلماذا إذن مجدت الاكتشاف الأصلي بكل تلك الجدية في مقدمتي؟ ربما كان على المرء أن يرجع ذلك إلى التواضع الزائفة. إلا أن الأمر كان أسوأ من هذا، لقد كنت أحاول أن أقلل من شأن الاكتشاف، ولقد كنت ألفت إليه الأنظار فقط بقصد تحقيره. بينما قد قام هو من جانبه بالتقصي عنه وحققه

في النهاية! ربما كان الموضوع قد غرق إلى حد ما في النسيان، ولقد قمت الآن بإثارة الضجة من حوله من جديد، ولكنني جعلت المدرس في الوقت نفسه في موقف أكثر صعوبة من موقفه في أي وقت مضى، فما هي أهمية أن تُزكَّى أمانته أو لا تُزكَّى؟ إن كل ما كان يشغله هو ذلك الشيء نفسه، ذلك الشيء فحسب، إلا أن ذلك الشيء كان يضرني وحدي؛ لأنني لم أكن أفهمه، ولم أكن أقدر قيمته حق قدرها، ولم يكن لدي أي إحساس حقيقي به. كان ذلك شيئاً فوق طاقتي العقلية تماماً! وجلس وهو يحرق في. وكان وجهه العجوز المتغضن هادئاً للغاية، كان هذا هو ما يستغرقه التفكير فيه. إلا أنه لم يكن منشغلاً حقاً فقط بذلك الشيء في ذاته. فلقد كان بالفعل نَهْماً إلى الشهرة. وكان يريد أيضاً أن يجني ثروة من وراء ذلك، الأمر الذي يعد مفهوماً جداً مع ذلك، إذا نظرنا إلى أسرته الكبيرة.

ومع أن اهتمامي بالموضوع بدا اهتماماً عارضاً للغاية إذا قيس باهتمامه، حتى أنه قد أحس بأنه عليه أن يثبت نزاهته التامة دون أن يشتط في الخروج بعيداً جداً عن الصدق، فقد رفضت شكوكي الداخلية في الحقيقة أن تهدأ تماماً، لمجرد أنني قلت لنفسي إن اتهامات الرجل كان مرجعها في الواقع إلى حقيقة أنه قد (احتضن) الدودة - على ما يُقال - بكلتا ذراعيه، وأنه لم يكن في مقدوره أن ينظر إلى أي شخص يضع عليها إصبعاً، إلا على أنه خائن، ولأن ذلك لم يكن هو الحقيقة، فإن موقفه لم يكن ليفسر بالشراسة، أو بالشراسة وحدها - على أي مستوى - بل نوعاً ما، بالحساسية الزائدة، التي غذته بها جهوده الشاقة، وفشله التام.

إلا أنه حتى حساسيته تلك لم تفسر كل شيء، وربما كان اهتمامي

بالموضوع عارضاً حقاً للغاية، وكان المدرس معتاداً على عدم الاختلاط بالغرباء، وكان يعتبره أخطر الشرور، إلا أنه لم يلبث حتى بدأ يُعاني من الأعراض الفردية لنظرته، وها قد ظهر شخص ما، وبغربة تامة التقط الموضوع، بدون حتى أن يفهمه! لم يسعني الدفاع عن نفسي عندما هوجمت من هذا الجانب. لست عالماً بالحيوان، إلا أنني ربما كنت من اكتشفها، لكنني لم أكن قد اكتشفتها (لا بد أنها نذير شؤم تلك الدودة الهائلة)، إلا أنه لا يتوقع المرء أن يتبعها العالم كله بانتباهه المتواصل المركز، وخاصة إذا لم يكن وجودها قد ثبت على نحو تام لا يقبل الشك، وأنه لا يمكن تربيتها بحال من الأحوال. وأقر أيضاً بأنه حتى لو كنت أنا من اكتشفها، فربما ما كنت انبريتُ على هذا النحو بسعادة، وعن طيب خاطر في الدفاع عن الدودة، إلى هذا الحد الذي لمستته عند المدرس.

وربما أتيح لسوء التفاهم بيني وبين المدرس أن يتضح الآن بسرعة لو أحرز كتيبى نجاحاً ما. إلا أنه لم يكن ثمة أي نجاح في الأفق! ربما لم يكن الكتاب قد كتب بما يلزم من الجودة، وربما لم يكن مقنعاً بما فيه الكفاية. إنني رجل أعمال. ولعل موضوع مثل ذلك الكتيب أن يكون بعيداً عن متناول قدراتي المحدودة، بالنسبة لقدرات المدرس، على الرغم من أنني كنت متفوقاً عليه، بصورة فائقة فيما يختص بنوع المعرفة المطلوبة. وبالإضافة إلى ذلك فربما أمكن تفسير فشلي بوسائل أخرى، وقد يكون الوقت الذي ظهر فيه الكتيب وقتاً غير مناسب! إن اكتشاف الدودة - الذي فشل في أن يخدع الجماهير الواسعة، في الوقت الذي حدث فيه - لم يكن قد انقضى عليه وقت طويل من ناحية، حتى يصبح أمراً منسياً تماماً، فهو

قادر لهذا على أن يحيا ثانية من جديد بواسطة كتيبى، بينما انقضى من الناحية الأخرى وقت كاف تمامًا لاستهلاك الاهتمام العارض الذي ثار بطبيعة الأمر.

إن هؤلاء الذين تناولوا كتيبى قد قالوا جميعًا لبعضهم البعض في جدية، وبذلك اللهجة المفعمة بالضيق، التي تميزت بها المناقشة منذ البداية، أن تلك الجهود العقيمة حول تلك التساؤلات المملة سوف تبدأ الآن ثانية من جديد، ولقد خلط بعضهم حتى بين كتيبى وبين كتيب المدرس. ولقد ظهر التعليق التالي في إحدى الصحف الزراعية المهمة في أقصى مكان من الصحيفة، لحسن الحظ، وبحروف صغيرة: لقد وصلنا مرة أخرى ذلك الكتيب الذي يتناول الدودة الهائلة، ونذكر أننا قد ضحكنا من أعماقنا منذ سنوات مضت بسببه، ومنذ ذلك الحين، لا الكتيب أصبح أكثر وضوحًا، ولا أصبحنا نحن أكثر بطئًا في الفهم، ولكننا ببساطة نرفض أن نضحك منه، وسنسأل مؤسساتنا التعليمية بدلًا من ذلك إن كان هناك ثمة عمل مفيد من الممكن أن يوجد لديها ليقوم به مدرسو قرانا بدلًا من اصطيد الديدان الهائلة؟

انفعال ذاتي لا يغتفر، إنهم لم يقرأوا لا الكتيب الأول ولا الكتيب الثاني، وقد كان التعبيران المستهينان المفتعلان الدودة الهائلة ومدرس القرية، كافيين في نظر هؤلاء السادة، كممثلين للاهتمامات الجماهيرية الوهمية، للتحدث عن الموضوع، وربما كان من الممكن اتخاذ بعض التدابير وبنجاح ضد هذا الهجوم، لكن الافتقار إلى التفاهم بين المدرس وبينى منعني من الاجترأ عليهم. ولقد حاولت بدلًا من ذلك أن أخفي عنه

خبر التعليق ما وسعني ذلك، إلا أنه اكتشفه على الفور، وقد أدركت ذلك من خلال جملة وردت في أحد خطاباتهِ الذي أعرب فيه عن عزمه على زيارتي في أيام إجازة عيد الميلاد، كتب قائلاً: إن العالم مليء بالأحقاد، وإن الناس ليمهدون لها السبيل!

ولقد أراد بهذه الجملة أن يلمح لي بأنني أحد الحاقدين، إلا أنني لست قانعاً فقط بحقدي الغريزي، وإنما أردت أكثر من هذا أن أمهد للأحقاد السبيل إلى العالم. أو بمعنى آخر أنني كنت أفعل ما أفعله فقط في هذا السبيل؛ لكي أعين الأحقاد على النهوض، وأساعدوا على الانتصار! حسناً، لقد أعددت الحل الذي أحταجه وأصبح في مقدوري أن أنتظره في هدوء، وفي ثبات حييته عندما وصل، وكان ثمة ظل من سوء الأدب في سلوكه هذه المرة على غير العادة، وأخرج الصحيفة في عناية من الجيب الداخلي للباطو السميكة العتيق الذي كان يرتديه، ومن ثم نشرها، وناولها لي! أجبته قائلاً وأنا أعيد له الصحيفة ثانية دون أن أنفحصها: لقد اطلعت عليها!

قال وهو يتنهد: لقد اطلعت عليها!

كانت له عادة المدرسين العجائز في ترديد الإجابات العدائية، ثم واصل حديثه قائلاً، وهو ينقر على الصحيفة بإصبعه في تأثر، وينظر إليّ في حدة، كما لو كنت كائناً من فصيلة أخرى: لم أود بالطبع أن تفوتني هذه!

ولا شك أنه كانت لديه فكرة ما عما كنت بسبيلي لأن أقوله، ذلك أنني أحسبني قد لاحظت لا من مجرد كلماته وحدها، بقدر ما لاحظت من بعض الشواهد الأخرى أن ثمة مقدرة طبيعية كانت لديه!، مقدرة على استلهاهم رغباتي، على الرغم من أنها لم تكن تستميله، ولا كان هو يترك

لها الفرصة لأن تصرفه عن أهدافه، ويمكنني أن أسجل تقريباً كل ما قلته له كلمة بكلمة؛ لأنني كنت قد سجلت مذكرة مختصرة بما قلته له بعد انتهاء مقابلتنا؛ قلت له: افعَل ما يحلو لك، إن طريقتنا لينفصالاً منذ هذه اللحظة، ويخيل لي أن هذه الأخبار، ليست هي ما تتوقعه، ولا ما تترتاح إليه من أخبار! وإن التعليق الذي جاء بهذه الصحيفة، لم يكن هو السبب الحقيقي له هذا، فقد كنت حسبت في البداية أن تدخلني ربما قدم بعض النفع لك، إلا أنه لا يسعني الآن سوى أن أدرك أنني قد سببت لك الدمار من كل ناحية، فكيف حدث أنني لم أقل إن أسباب النجاح والفشل هي دائماً أسباب غامضة، ولكن لا تتوقع أن تجد لها التفسير الوحيد في أخطائي، ولنفرض أنك أنت أيضاً كانت لديك النوايا الطيبة، إلا أن المرء لو تفحص الأمر بموضوعية لوجد أنك قد فشلت أيضاً، ولست أقول إن علاقتك بي لا بد أن تعد - لسوء الحظ - من بين عناصر فشلك. إنه لن يكون جبناً ولا غدرًا، لو أنني انسحبت الآن من القضية، وإن انسحابي ليتضمن قدرًا ما من إنكار الذات بالفعل، وإن كتيبي نفسه ليؤكد كم قدرتك شخصيًا، فلقد أصبحت - بمعنى ما - أستاذي، ولقد غدوت مغرمًا أنا نفسي بالدودة، ومع أنني قد قررت أن أتحنى جانباً، فإنك أنت المكتشف، وكل ما يسعني أن أفعله هو أن أعوقك عن أن تنال الشهرة اللائقة بك، بينما أستقطب أنا الفشل وأعكسه عليك، وهذا هو رأيك على الأقل، وفي ذلك الكفاية. إن التكفير الوحيد الذي يسعني أن أفعله هو أن أرجو عفوك، وإنك لتحتاجه، لتنتشر صراحة - وهذا ما يجب عليك أن تفعله - في تلك الصحيفة هذا التسليم الذي سلمت لك به الآن!

كانت هذه هي كلماتي. لم تكن مخلصه، إلا أن الإخلاص كان يتبدى فيها بما فيه الكفاية، ولقد اتضح لي من تأثير كلماتي هذه عليه أنني كنت قد تسرعت للغاية، فثمة شيء خادع في العجائز، ثمة شيء من الخيانة في علاقتهم بمن يصغرونهم في السن، فأنت تعيش معهم في سلام، وتتخيل أنك معهم على أتم وفاق، وأنت تعرف الميول التي تحكمهم، وتتلقى التأكيدات المتواصلة بالألفة، وتأخذ كل شيء على أنه مسلم به معهم، وعندما يقع حادث حاسم، ويقدر لكل تلك العلاقات المسالمة التي ازدهرت طويلاً أن تصل إلى موقف جذري، ينتصب هؤلاء العجائز أمامك فجأة كالغرباء، ويتكشف لك أن ثمة أحكاماً أعمق وأقوى كانت لديهم عنك، وأنهم يسيطون الآن، ولأول مرة راياتهم إلى النهاية، وفي رعب تقرأ فيها بنفسك اللائحة الجديدة، ويكمن سبب ذلك الرعب أساساً في حقيقة أن ما يقوله العجائز الآن يختلف للغاية في الحقيقة معنى وشعوراً عما سبق أن صرحوا به من قبل، ويبدو الأمر كما لو أن للتعبير عن الذات منها في أي وقت مضى، إلا أن الخدعة النهائية التي تكمن في كلماتهم، إنما تتجلى في هذا: أنهم قد قالوا دائماً في أعماقهم، نفس ما يقولونه الآن. ولا بد أنني كنت قد سبرت غور المدرس عميقاً؛ لأنني قد لاحظت أن كلماته التالية لم تصبني بالدهشة مطلقاً، فقد قال وهو يضع يده فوق يدي، ويربت عليها في رفق: متى بدأ اهتمامك بهذه المسألة يا بني؟ إنني قد ناقشت الأمر مع زوجتي فور سماعي بنبئها! دفع مقعده إلى الخلف بعيداً عن المنضدة، ثم قام، وفرد ذراعيه، وحدق في الأرض، كما لو كانت زوجته الضئيلة

العجفاء تقف عليها أمامه، وكأنه يتحدث إليها قائلاً لها: لقد ناضلنا طويلاً وحدنا لعدة سنوات، والآن يبدو لي وكأن ثمة نصيراً نبيلاً قد نهض في المدينة لمساعدتنا. رجل أعمال عظيم هو السيد فلان! إن علينا أن نهني أنفسنا، ألا ينبغي لنا أن نفعل؟ أحد رجال الأعمال في المدينة! ليس هذا مما يستهان به، فعندما يؤمن بنا فلاح جاهل ويجهر بذلك، فإنه لن يجديننا فتيلاً، ذلك أن ما قد يقوله أو يفعله فلاح هو أمر لا طائل من ورائه، ومهما قال إن مدرس القرية العجوز على حق، أو حتى بصق ليعلن ازدراءه فإن النتيجة سواء في كلتا الحالتين، ولو قام عشرة آلاف فلاح بدلاً من فلاح واحد لنصرتنا، فإن النتيجة - حتى لو أمكن أن يحدث هذا - سوف تظل فقط أكثر سوءاً، إلا أن واحداً من رجال الأعمال في المدينة هو من ناحية أخرى - شخص مختلف تماماً - إن الأشياء التي يقولها - بلا قصد - رجل له اتصالات مثل هذا الرجل، تسمع - كما هي - وتردد، ثم يبدأ المحدثون في الاهتمام بالقضية، وقد يبدي أحدهم ملاحظة ما، قائلاً: يمكنكم أن تتعلموا حتى من مدرسي القرى العجائز. وفي اليوم التالي يقولها كل جماهير الناس لبعضهم بعضاً، حتى الذين لا يمكنك مطلقاً أن تتصورهم يقولون مثل تلك الأشياء، يقولونها هم أيضاً ليلفتوا الأنظار، ثم يوجد المال بعد ذلك لتمويل الإيمان، ويتجول أحد السادة ليجمع ذلك المال باسمنا بينما يطالبه الآخرون بالتوقعات، ثم يقررون أن يؤتى بمدرس القرية إلى الضوء. ومن ثم يصلون، لا يبالون بمظهره الخارجي، وإنما يأخذونه في أحضانهم، وبما أن زوجته وأطفاله يعتمدون عليه في معيشتهم، فإنهم يتقبلونهم هم أيضاً. ألم

تشاهدي أهل المدينة من قبل ! إنهم يثرثرون بلا توقف، وعندما يتجمع جمع كبير منهم معاً فإن في إمكانك أن تستمعي إلى ثرثرتهم تندفع من اليمين إلى اليسار، ثم تعود ثانية إلى اليمين، وترتفع، وتنخفض في هذا السبيل وفي ذاك، وبعد أن تهدأ ثرثرتهم، يدفعوننا نحو العربية، حتى أننا لا نجد وقتاً أمامنا سوى بصعوبة لكي ننحني لتحية الجماهير، ويضع السيد الذي يقود العربية عويناته في موضعها، ويرفع سوطه، ومن ثم نرحل، وسوف يلوحون جميعاً بتحية الوداع نحو القرية، كما لو كنا لا نزال فيها هنالك، ولسنا جالسين في وسطهم، ويأتي وجهاء الناس في المدينة في العربات ليلتقوا بنا على الطريق، وعندما تقترب منهم، ينهضون عن مقاعهم، ويشربون بأعناقهم. بينما يرتب السادة الذين جمعوا المال كل شيء بالطرق القانونية، ووفقاً لخطة موضوعة، وعندما ندخل المدينة، تكون قافلتنا قد تحولت إلى موكب طويل من العربات، ونظن نحن أن الاستقبال قد بدأ فقط في الواقع عندما نصل إلى فندقنا، وتتجمع جمهرة لا حصر لها فور إعلان وصولنا، وما كان يشغل فرداً يصبح على الفور شاغل الجميع. إنهم يستعيرون وجهات نظر بعضهم، وتتحول وجهات النظر العامة تلك بسرعة لتصبح وجهات نظر خاصة لكل منهم، وسوف يكون بانتظارنا كل الناس الذين لم يتمكنوا من أن يخرجوا في العربات ليقابلونا. سيكونون جميعهم في انتظارنا أمام الفندق، وسيكون هناك أيضاً من كان في مقدورهم أن يخرجوا في عربات إلا أنهم كانوا أكثر وعياً، سوف يكون هؤلاء في انتظارنا هم أيضاً، إن الأسلوب الذي يرقب به السيد الذي جمع المال، ويدير به

كل شيء، سوف يكون أسلوباً فائقاً للعادة! لقد استمعت إليه في برود، ولقد أصبحت بالفعل أكثر وأكثر بروداً كلما مضى في حديثه، وكنت قد حشدت فوق المائدة كل النسخ التي كانت في حوزتي من كتيبي، بضع نسخ قليلة فقط كانت قد فقدت. ذلك أنني كنت قد أصدرت نشرة خلال الأسبوع الماضي، أطلب فيها إعادة كل النسخ التي تم توزيعها، وقد تسلمت أغلبها ثانية، وكانت قد وصلتني - في الحقيقة - رسائل رقيقة جداً من أحياء عديدة توضح أن فلانا الفلاني لا يمكنه أن يتذكر إن كان قد تسلم مثل ذلك الكتيب، وأنه لو كان قد وصله بالفعل، فإنه يأسف لاعترافه بأنه لا بد قد فقدته. وقد كان ذلك في حد ذاته تقديراً لم أكن في أعماقي أطمع في أكثر منه. قارئ واحد فقط رجاني أن أسمح له بأن يحتفظ بالكتيب من باب الفضول متعهداً تبعاً لجوهر نشرتي بأنه لن يطلع عليه أحداً مطلقاً قبل مضي عشرين عاماً، لم يكن مدرس القرية قد رأى نشرتي بعد. ولقد كنت سعيداً لأن كلماته يسرت لي إلى حد بعيد مهمة اطلاعه عليها، وقد كان باستطاعتي رغم ذلك أن أطلعه عليها دونما أي نوع من القلق، أياً كانت الأحوال، بما أنني قد قمت بصياغتها بغاية الحذر، واضعاً اهتماماته دائماً نصب عيني، وقد جاءت الفقرة القاطعة في النشرة كما يلي: «لست أطلب إعادة الكتيب لأنني قد تراجعت بأي حال من الأحوال عما جاء فيه من مواقف الدفاع، أو أنني أريد أن أنبه إلى خطئها، أو حتى إلى صعوبة إثباتها في أي من تفصيلاتها، ولكن طلبي لها يستند على أسس شخصية محضة وعاجلة جداً علاوة على ذلك، ويجب ألا يرتبط موقفني من القضية كلها مهما

كانت الأحوال بأية نتيجة قد يمكن استخلاصها من طلبي هذا، وأرجو أن ألفت أنظاركم بصفة خاصة إلى ذلك، وأكون سعيداً أيضاً لو تيسر لكم أن تساعدوا على نشر هذه الحقيقة!

بقيت واضحاً كفي فوق نسخ النشرة لفترة بينما كنت أقول: إنك تحقد عليّ في أعماقك؛ لأن الأمور لم تنتهِ إلى ما كنت تأمل أن تنتهي إليه، فلماذا تفعل ذلك؟ لا تدعنا نجرع مرارة لحظاتنا الأخيرة معاً، وحاول أن تتمعن الأمر. فعلى الرغم من أنك قد قمت باكتشاف ما، فهو ليس بالضرورة أعظم من أي اكتشاف آخر، وتبعا لهذا فإن ما تعانيه من ظلم ليس أشد وطأة من أي من المظالم الأخرى، إنني لا أخبر سبل المجتمعات المتعلمة، إلا أنه لا يسعني أن أعتقد أنك - في أحسن الظروف - كنت ستستقبل استقبالا تربطه أية صلة شبه ولو من بعيد بذلك الاستقبال الذي وصفته على ما يبدو لزوجتك، بينما لا أزال أنا نفسي آمل أن شيئاً ما ربما يتمخض عنه كتيبتي، وكان أقصى ما كنت أتوقعه أن أنظار أحد الباحثين ربما اجتذبتها تلك القضية، وأنه ربما كلف أحد تلاميذه الشبان ببحث تلك الظاهرة، وأن هذا التلميذ ربما زارك، وراجع تحرياتك وتحرياتي حول المسألة مرة أخرى من جديد، وفقا لأسلوبه الخاص، وأن ذلك الشاب في النهاية لو بدت له النتائج جديرة بالاعتبار، وعلينا ألا ننسى أن جميع الدارسين الشبان متشككون للغاية، ربما أخرج كتيباً خاصاً به، تُوضع فيه اكتشافاتك على أساس علمي، وعلى كل حال فلو أن هذا الأمل قد تحقق فإن شيئاً ذا بال، لن يكون قد أُنجز بعد، فربما أصبح كتيب الدارس الشاب الذي يؤيد مثل

تلك الآراء الغريبة هدفا للسخرية ولو أخذت تلك الصحيفة الزراعية كمثال، لأمكنك أن تدرك مدى السهولة التي قد يحدث به الأمر، كما أن الدوريات العلمية لا تزال على عهدها في عدم الاحتفال بمثل تلك الأمور.

وإنه لمن المفهوم تمامًا أن العلماء يتحملون مسئولية ضخمة أمام أنفسهم، وأمام العلم، وأمام الأجيال القادمة، وليس في وسعهم أن يحتضنوا فورًا كل اكتشاف جديد بلا أي تحفظ، وإنما لنجنى خيرا بدورنا من تحفظهم ذاك، إلا أنني سأطرح تلك النقطة بعيدا، وأفترض أن كتيب الطالب قد حاز القبول، فما الذي سوف يحدث بعد ذلك؟ لعله أن ينوه باسمك تنوبها شرفيا، وقد تفيدك حقيقة أنك تعمل مدرسا، فلسوف يقول الناس: إن لمدرسي قرانا بصيرة نافذة! وقد تضطر تلك الصحيفة- لو أن للصحف ذاكرة- أو أن لها ضميرا- أن تنشر لك اعتذارا مفتوحا. وقد يوجد من بين العلماء عالم ذو إرادة قوية، فيحصل لك على منحة دراسية، ومن الممكن حتى أنهم قد يستدعونك لكي تذهب إلى المدينة، وأن يجدوا لك منصبا في إحدى المدارس، وبهذا يتيحون لك الفرصة لاستخدام المصادر العلمية التي يتيسر وجودها في المدينة لتمكنك من تحقيق ذاتك، إلا أنه لو كان لي أن أكون صريحا للغاية، فإنني أعتقد أنهم سوف يقنعون بمجرد محاولة عمل ذلك كله فحسب! إنهم قد يستدعونك، فتحضر. لكن فقط كواحد عادي من ملتسمي المصالح كغيره من آلاف الآخرين، لكن ليس كحالة جادة. إنهم سوف يمجدون جهودك المخلصة، إلا أنهم سوف يرون- في

نفس الوقت - أنك رجل عجوز، وأنه ليس ثمة ما يُنتظر ممن هم في مثل سنك، لو بدأوا في دراسة العلوم، وأنك بالإضافة إلى ذلك قد توصلت إلى اكتشافك هذا بمحض الصدفة، أكثر مما توصلت إليه عن طريق القصد المسبق، وأنه ليست لديك - علاوة على هذا - أية مطامح في مواصلة عملك إلى أبعد من تلك الحالة الوحيدة، ويحتمل لهذه الأسباب أن يعيدوك ثانية إلى قريتك، وسوف يجد اكتشافك بالطبع من يقطع به شوطاً أبعد! ذلك أن احتمال أن ينساه الناس ثانية ليس أمراً على هذه الدرجة من السهولة بعد أن أثار ذات مرة اهتماماً ما، إلا أنك لن تسمع بعد ذلك الكثير عنه، وما قد تسمعه فنادراً ما قد تفهمه. إن كل اكتشاف جديد يتحول فوراً إلى إضافة لمجموع المعرفة العامة، وعلى نحو ما - تبعاً لهذا - ينتهي باعتباره اكتشافاً. إنه يذوب في الكل ويختفي، وينبغي أن تكون للمرء نظرة علمية خبيرة حتى يتسنى له أن يتعرف عليه بعد ذلك؛ لأنه يكون قد التحم بالبديهيات الأساسية التي لا نحس حتى بوجودها. إن هذه الاكتشافات لترتفع فوق هذه المناقشات العلمية، وترتفع بعيداً فوق السحب، فكيف يتسنى لنا أن نتوقع وجود مثل تلك الأشياء أمامنا؟ ولقد يقع في روعنا في أغلب الأحوال إذا استمعنا إلى إحدى المناقشات الثقافية أنها تدور حول اكتشافك، بينما هي تتناول في الواقع شيئاً مختلفاً تماماً، وفي أحيان أخرى حينما نظن أنها تتناول شيئاً آخر، وأنها لا تتعلق باكتشافك مطلقاً، فمن المحتمل أن يتضح أنها كانت تتناول اكتشافك، ولا شيء سواه.

ألا تعتقد أنت ذلك؟! إنك سوف تبقى في قريتك، وإسوف تصبح

قادرًا بشكل أفضل قليلًا على أن تطعم أسرتك، وتكسوها بالمال الإضافي، لكن اكتشافك سوف يخرج من بين يديك، وبدون أن تكون قادرًا على أن تحتج، ذلك أنه في المدينة وحدها يمكن لأي اكتشاف أن يبلغ ذروته. ولن يكون الناس جاحدين تمامًا لفضلك، فربما أقاموا متحفًا صغيرًا في البقعة التي تم فيها الاكتشاف، وقد يبدو ذلك المتحف واحدًا من معالم القرية، وقد يعهد إليك بالاحتفاظ بمفاتيحه، وهكذا فإنك لن تعدم بعض الدلائل المادية الشرفية، وفي وسعهم أن يمنحوك ميدالية صغيرة، لتبتهها فوق صدر معطفك، ميدالية مثل تلك الميداليات التي يضعها هؤلاء المشتغلون بالمؤسسات العلمية. كل هذا من الممكن حدوثه، لكن.. هل هذا هو ما كنت تريده؟

ودون أن يتريث لكي يجهز رده، اتجه نحوي قائلاً: وهكذا فإن هذا هو ما أردت أن تحققه لي؟

قلت: ربما إنني لم أكن أدركت ما كنت أفعله بما فيه الكفاية في حينه، حتى أكون قادرًا على أن أوضح لك ذلك الآن تمامًا، لقد رغبت في مساعدتك، إلا أنني فشلت، وقد كان أقصى فشل واجهته في حياتي، ولهذا أردت أن أنسحب الآن، وأن أهدم كل ما بنيته بقدر ما أستطيع.

قال المدرس - وهو يخرج غليونيه - ويبدأ في ملئه بالتبغ الذي كان يحمله سائبًا في كل جيوبه: حسنًا، حسنًا، لقد قمت بذلك العمل الجاحد بمحض إرادتك. والآن تتنحى بمحض إرادتك، وعلى هذا، فليكن الأمر كما تشاء!

قلت: إنني لست رجلاً متشبهًا برأيه، هل ترى شيئاً لا تقره في طلبى هذا؟.

لا، لا شيء البتة!

قال المدرس ذلك، وكان قد بدأ في تدخين غليونيه، ولم أحتمل رائحة تبغيه، وهكذا نهضت، ورحت أذرع الحجرة ذهاباً وحيثاً. كنت معتاداً من مقابلات سابقة على صمت المدرس البالغ، وعلى حقيقة أنه على الرغم من صمته لم تكن تبدو عليه أية رغبة في أن يتحرك مغادراً حجرتي عندما يكون فيها أي مرة، ولقد ضايقني ذلك كثيراً من قبل، وكنت أفكر في مثل تلك الأوقات، في أنه يريد شيئاً أكثر من ذلك، فكنت أعرض عليه النقود التي كان يتناولها بالفعل ببساطة تامة، إلا أنه لم يكن يرحل إلا عندما كان يروقه ذلك، وعندما يكون غليونيه قد أوشك على الانتهاء، كان يزحف بمقعده في تكلف وعظمة نحو المنضدة، ومن ثم يدور حولها دورة، ويتحسس شجيرة زهر الغابة التي كان قد أحضرها، والتي كانت تستقر في أحد الأركان، ثم يشد على يدي في حرارة، وينصرف.

إلا أن وجوده الصامت اليوم - وهو جالس أمامي في الحجرة - كان عذاباً لي بالفعل. فعندما يودع شخص ما شخصاً آخر وداعاً أخيراً كما فعلت، فيجب أن يقبل ذلك الوداع بنية صادقة، ويجب - بالفعل - أن تنقضي الرسميات المفتعلة المتبادلة التي تبقى بعد ذلك سريعة بقدر الإمكان، ولا ينبغي أن يثقل المرء على مضيفه دون مبرر بوجوده

الصامت، وقد بدا لي بينما كنت أتأمل ذلك الشخص - الضئيل العجوز
العنيد من الخلف، بينما كان جالسا إلى المنضدة - بدا لي مستحيلا حتى
التفكير في أن أشير له إلى الباب.

